

النبوغ المغربي

في الأدب العربي

تأليف

عبد الله كنون

الجزء الثاني



رسالة من المستشرق بروكلمان

الى المؤلف

هالة في ٧ رجب ١٣٦١

حضرة الاستاذ العلامة الشيخ السيد عبدالله كنون الحسني ،
تحية واحتراما .

وبعد ؛ فقد قبلت كتابكم العزيز المسمى بالنبوغ المغربي في الادب العربي الذي أكرمتموني بارساله الي ، فابتـــدأت بقراءته واستفدت منه كثيراً في تاريخ الآداب المغربية مما فات بحثي الى الآن . وارجـــو ان اصرف مضمونه العزيز لفائدتي وفائدة أصحابي المستشرقين في استدراك كتابي الأول في تاريخ الآداب العربية ، الذي هو الان مطبوع في مدينة ليدن . وكذلك قبلت كتابيكم في شرح الشمقمقية ومقصورة المكودي وقرأت ما كتبتم في مقدمة الكتابـين في أحوال المؤلفين . وابتهجت بظرافة المقصورة ، وثقـافة الأرجوزة المشهورة ، فان كتبكم لم يبلغ الي صيتها في هـــذه الازمان المشوشة لولا ان ارسلتموها الي .

وتفضلوا يا حضرة السيد العزيز بقبول احترامي وتحياتي العاطرة والسلام .

كارل بروكلمان

المنتخبات الأدبية
قسم المنثور



بسم الله الرحمن الرحيم

قسم المنثور

ذكرنا في مقدمة الكتاب أننا نؤخر جميعَ الآثار والمُنتخبات الأدبية الى الجزئَيْن الثاني والثالث حيث نضُمُّ بعضَها الى بعضٍ ، ونؤلفُ منها مجموعةً نفيسة حاويَةً لأهمّ ما صدر عن أدباء العصور المُختَلِفة من بديع النظم والنثر . وها نحن أولاءِ نقدم للقارىء الأديب تلك الآثار والمُنتخَبات البديعة ، مُقسِّمين لها على قسمين ، قسم المنثور المُضمَّن في هذا الجزء ، وقسم المنظوم المُضمَّن في الجزء بعدَه ، مُبَوِبين كلَّ قسم أبواباً بحسب أغراضه وفنونه ، غير مُتعَرضين بشرح أو بيان الا للغريب والغامض الذي لا يسهُل فهمه على كل الناس ، وذلك رغبةً في الايجاز وعدم التشويش على المطالعين .

وقد بدأنا بقسم المنثور لأن النثر أصلُ الكلام ، ونفْتَتِحُه بالتحميد والصلاة للتّيمُّن ، وبعد ذلك نذكر الُخطب لأنها أولُ المحفوظ من نثر العرب ، ثم الُمناَظرات َلِمزيد شبَهِها بالخطب في الأسلوب والغَرَض ، ثم الرسائل وهي أهمُّ أغراض النثر ، ثم المقـامات وهي ِقصَصٌ قصيرة ُتكتَب بأسلوب أدبي َمسْجوع ، وتشتمل على إفادات وانشادات ، ثم الُمحاضرات وهي من موضوع المقامات لاشتمالها مثلها على القصة والفائدة ، ثم المقالات وهو باب جديد في الأدب العربي على اعتبار المعنى الحديث للأدب الذي َيرِمي الى عدّ جميع الأشكال الكلامية التي يستخدمها الانسان للتعبير عن آرائه بلسانه أو َقلمه ، سواء في الدرس الفني واللغوي أو البحث العلمي والفلسفي موضوعاً للأَدب يجِبُ أن ُيدرَس وُيبحَث بروح أدبية محضة .

والله الُمسْتَعان وعلَيْه التّكْلان .

التحميد والصّلاة

تحميد للقاضي عياض

جمع فيه بين توحيد الجلالة وتمجيد صاحب الرسالة

الحمد لله المُنفرِد باسمه الأسْمَى المختص بالمُلْك الأعزّ الأحْمَى ، الذي ليس دُونَه منتهىً ولا وراءه مَرْمَى ، الظاهر لا تخيُّلًا ولا وَهْما ، الباطن تقدُّساً لا عُدْماً وَسِعَ كلَّ شيء رحمةً وعلما ، وأسبَغَ على أوْلِيَائه نِعَماً عُمّا[1] ، وبعثَ فيهم رسولا من أنفُسِهم أنفَسَهم عَرَباً وعُجْما ، وأزكاهم مَحْتِداً ومَنْمَى، وأرجَحَهم عقلا وحِلْما وأوفرَهم علما وفهما ، وأقواهم يقينا وعزْما ، وأشدَّهم بهم رأفةً ورُحْمى ، زكَّاهُ روحاً وجسما ، وحاشاه عَيْباً ووَصْما ، وآتاه حِكْمة وحُكْما ، وفتح به أعيُناً عُمْيا وقلوبا غُلْفا وآذاناً صُمّا ، فآمن به وعزَّره ونصَره مَن جعل الله له في مَغْنَم السعادة قِسْما، وكذَّب به وصدَفَ عن آياتِهِ مَن كتب الله عليه الشقاء حَتْما ، ومَن كان في هذِهِ أعْمى فهُو في الآخِرة أعمى ، صلى الله عليه صلاة تَنمُو وتُنْمَى ، وعلى آله وسلم تسليماً .

---

١ – بضم العين أي شاملة .

تسبيح للمهدي بن تومرت

سُبْحانَ مَن أرْسَى مِهاد الأرض بالشَّامخات[١] ، وارتفعَتْ بقدرته السماوات ، ودبَّر الأزمان بالنور والظُّلُمات وتدكْدَكَت[٢] لجلاله القاسِيات ، وأثارَ السحابَ بالعاصِفات ، وأنزلَ الثجَّاجَ من المُعْصِرات[٣] ، فأخرج به من الأرض البركات وقسَم بعدْلِه الأقوات .

سُبْحانَ من قيَّد الخَلْق بالحركات والسَّكنات ، وصوَّرَهم بتَبايُن الهيْئات وسَخَّرهم بتسلُّط الحاجات ، وأظهر عجْزَهم بتبدُّل الحالات ، وحتَّم جهْلَهم بالغَيْب والتَّكْييفات ، وما تبلُغه الدَّلالات ، ولا تُحيطُ به الإدراكات ، وحذَّرهم من تجاوُز المحْدُودات ، وتعَدِّي المعْقُولات ، الى القَوْل بالتَّكْييفات ، والقطع بالتَّخْييلات ،

سُبْحَانَ من أوْضحَ لِعباده الآيات ، وأظهر لهم الدَّلالات ، على فاطِر السماوات فنطقَت بوجودِه الجمادات ، وشهِدَتْ على عظَمتِه المخلوقات ، وأخْبَرَتْ بكَماله الآياتُ فقالَتْ بلِسان الحال مُبينَات ، فاقتْ عظَمتُه الغايات ، لا تتناهى له المقْدُورات ، ولا تنحَصِرُ له المعلُومات ، جلَّ عن التَّكْييفَات ، إلَهِ مَن في الأرض والسماوات .

---

١ – يعني الجبال ٢ – أي تفتت ٣ – أي السحب ، والثجاج : المطر .

دُعاءٌ ومُناجَاةٌ لأبي العباس السَّبْتي

اللَّهمَّ أَفْضَلْتَ فعَمَّ إفضالُك ، وأنعمتَ فتمَّ نوالُك ، وغفرْتَ الذنوب فتكامَل إحسانُك . وسترتَ العُيوب فتواصل غُفرانُك ، اللَّهم لك الحمدُ على حقل ثقَّفْتَه، ولك الحمدُ على فهْم وَفَّقْتَه ، ولك الحمد على توْفِيقٍ هدَيْتَه ، جلَّ جلالُك وتعالَى ، وانْهَلَّ جُودُك وتوَالَى ، وجرَى رِزْقُك حلَالاً ، وتعالَيْتَ في دُنوِّك وتقرَّبتَ في عُلوِّك ، فلا يُدْرِكُكَ وَهْم ، ولا يُحِيطُ بك فَهْم ، وتَنَزَّهتَ في أَحـدِيَّتِك عن بِدَايَة ، وتعاظَمْتَ في أُلوهِيَّتِك عن نِهَاية ، أَنتَ الوَاحِدُ لا مِن عَدَد ، والباقي بعْدَ الأبد، لك خَضَع مَن ركَع كما ذَلَّ لَك مَن سَجد ، (قُل هُوَ اللهُ أحد، اللهُ الصَّمَد ، لم يَلِدْ ولم يُولَد ، ولم يكُن له كُفُواً أحد)

إلَهِي كيفَ يُحِيطُ بك عِلْم خلَقْتَه ، أم كيف يُدرِكُك بَصرٌ أنتَ شقَقْتَه ، أم كيف يدنُو منك فِكْرٌ أنت وَفَّقْتَه ، أم كيف يَشكُرك لسانٌ أنت أنطَقْتَه ، اذا تلَمَّحت البَصائر عـادتْ بنور سلطانك كَلِيلَة ، وإذا تجمَّعت عظائمُ الجرائم كانت في جَنْبِ غفرانِك قَلِيلة، سبَقْتَ السَّبْقَ فأنتَ الأول ، وخلَقْتَ الخَلْق فعليك المُعوَّل ، وعُدْتَ اذا جُدْتَ يا خير مَن تَطوَّل ، عجباً لقلوب كيف استمرَّت على الأُنسِ بِسوَاك ، ولأرْوَاح كيف شكَرتْ من لا يقـدر على شيْءٍ لَوْلَاك ، ولنفوس سَكِرَتْ من شراب جَدْوَاك ، ولِأكُفّ جمَعتْ وقد استقرَضْتها هلاَّ

جادت بذاك ، كيف يناجيك في الصلوات ، من يعصيك في الخلوات ، أم كيف يدعوك للمهمات من ينساك للشهوات ،

إلهي كيف ختمت الألسن بالليل وقد قلت هل من سائل ، وكيف كفت الأكف وسبيل الجود سائل ، وكيف سها عن خطابك من لا تعظه الوسائل وكيف يبيع ما يبقى بما يفنى وإنما هي أيام قلائل ، يا روح القلوب أين طلابك ، يا رب الأرباب أين أحبابك ، يا نور السماوات والأرض أين قصادك يا مسبب الأسباب أين عبادك ، من الذي عاملك بلبه فلم يربح ، ومن الذي جاءك بكربه فلم يفرح ، أي صدر صدر عن بابك الكريم فلم يشرح ، من الذي لاذ بجنابك العلي فاشتهى أن يبرح ، واهاً لقلوب مالت الى غيرك ما أرادت ، ولنفوس تحب الراحة هلا طلبت منك واستفادت ،

صلاة لعبد السلام بن مشيش

وهي المعروفة بالصلاة المشيشية

اللهم صل على من منه انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار ، وفيه ارتقت الحقائق ، وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق ، وله تضاءلت الفهوم ، فلم يدركه منا سابق ولا لاحق ، فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة ، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة ، ولا شيء إلا وهو به منوط ، اذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط ،

صلاةً تليقُ بكَ منك اليه ، كما هو أهلُه ، اللهمَّ إنَّه سرُّكَ الجامعُ الدالُّ عليك ، وحجابك الأعظمُ ، القائمُ لك بين يديك ، اللهم ألحِقْني بنَسبِه ، وحَقِّقْني بحسَبه ، وعرِّفْني إيَّاهُ مَعْرِفَةً أسْلَمُ بها مِن مَوارِدِ الجَهْل وأكْرَعُ[١] بها مِنْ مَوارِد الفَضْل ، واحْمِلْني على سَبيله الى حضرَتِكَ ، حَمْلاً مَحْفُوفاً بنُصْرتك ، واقْذِف بي على الباطِل فأدْمَغَه ، وزُجَّ[٢] بي في بِحار الاَحدِيَّة وانشُلْني مِن أوْحالِ التَّوْحيد وأغْرِقْني في عَيْنِ بَحْرِ الوَحْدَة حتَّى لا أرَى ولا أسْمَعَ ولا أجِدَ ولا أحِسَّ إلَّا بها واجعَل الحِجَابَ الأعظَمَ حياةَ رُوحي ورُوحَه سِرَّ حَقيقَتي وحَقيقتَه جامِعَ عَوالِمي بتحقيق الحَقِّ الأول ، يا أولُ يا آخِرُ يا ظَاهِرُ يا بَاطِن ، اسمَعْ نِدَائي بما سمِعْتَ به نِداءَ عبدِكَ زَكَرياءَ عليه السلام ، وانصُرْني بكَ لَك ، وأيِّدْني بكَ لَك واجْمَعْ بَيْني وبَيْنَك ، وحُلْ بَيْني وبَيْنَ غَيْرِك ، الله ! الله ! الله ! (إنَّ الذي فَرَضَ عليكَ القُرْءانَ لَرَادُّكَ إلى مَعَاد ، ربَّنا آتِنَا مِن لَدُنْك رحمةً وَهيِّءْ لنا مِن أمرِنا رَشَداً)

الحِزْبُ الكَبيرُ[٣] لأبي الحَسَنِ الشاذِلي

ويشتمِلُ على أدْعِيَةٍ وأذْكارٍ ذَاتِ نفسٍ صُوفيٍّ عَالٍ وَنزْعةٍ فَلْسَفِيَّةٍ رَائعَةٍ

بسم الله الرحمن الرحيم ، واذا جاءَكَ الذين يؤمنون بآياتنا فقُلْ سلام

---

١ – أي اشرب . ٢ – أي ارم . ٣ – للشاذلي أحزاب أخرى فلذلك يعرف هذا بالكبير والحزب عندهم طائفة من الكلام في موضوع الذكر والدعاء كأحزاب القرآن .

عليكم ، كتَب ربُّكم على نفسه الرحمةَ أنه مَن عمِل منكم سُوءاً بجَهالة ثم تاب من بعده وأصلَح فانه غفور رحيم .. بديـــعُ السماوات والأرض أنّى يكونُ له ولد ولم تكُن له صاحِبَـــة ، وخلَق كلَّ شيء وهو بكل شيء عليم ، ذلكُم الله ربُّكم لا اله الا هو خالقُ كلِّ شيء فاعبُدوه وهو على كل شيء وكيل ، لا تُدرِكُه الأبصارُ وهو يُدرِكُ الأبصارَ وهو اللطيف الخبير .. الرَ .. كهيعَص .. حمَعسَق .. ربِّ احكُمْ بالحق وربُّنا الرحمنُ المُستعَانُ على ما تَصِفون .. طه ما انزلنا عليك القرآن لتَشْقَى إلا تَذْكِرَةً لِمن يخشَى ، تـــنزيلاً مِمَّن خلقَ الارضَ والسماواتِ العُـــلَى ، الرحمنُ على العرش استَوى ، له ما في السماوات وما في الارض وما بينهما وما تحتَ الثَّرى ، وإن تَجهَرْ بالقول فانه يعلَم السرَّ وأخفَى ، الله لا اله الا هو له الأسماء الحسنى ،

اللهم إنك تعلم أني بالجهالة معروف ، وأنتَ بالعلم موصوف ، وقـــد وسِعتَ كل شيء من جهالتي بعِلمك ، فسَعْ ذلك برحمتك ، كما وسعتَه بعلمك ، واغفر لي انك على كل شيء قـدير . ياألله يا مالكُ يا وهّاب ، هَبْ لنا من نُعماك ما علمتَ لنا فيه رضاك ، واكسُنا كسوةً تَقِينا بها من الفتن في جميع عطاياك ، وقدِّسنا بها عن كل وصف يوجب نقصا مما استأثرت به في علمك عمّن سواك ، يا ألله يا عظيم يا علي يا كبير ، نسألك الفقر مما سواك ، والغِنى بك حتى لا نشهَدَ الا اياك ، والطُف بنا فيهما لطفا علمتَـــه يصلُح لمن والاك واكسُنا جلابيبَ العِصْمةِ في الانفـاس

واللَّحَظات ، واجعلنا عَبيداً لك في جميع الحالات ، وعلِّمنا من لَدُنْك علما نصير به كاملين في المَحْيَا والممات ،

اللهم أنت الحميد الرب المجيد الفعَّالُ لما تريد ، تعلَمُ فرَحنا بماذا ولماذا وعلى ماذا ، وتعلَم حزَننا كذلك ، وقد أوجبتَ كوْنَ ما أردتَه فينا ومنا ولا نسألُك دفْعَ ما تُريد ، ولكن نسألك التأييدَ بروح من عندك فيما تُريد كما أيدتَ أنبياءَك ورُسلَك وخاصّة الصدّيقين من خلْقك ، انك على كل شيء قدير ، اللهم فاطرَ السماوات والارضِ عالمَ الغيب والشهادة ، أنت تحكمُ بين عبادك ، فهَنِيئاً لمن عَرفك ، ورَضِيَ بقضائك ، والويلُ لمن لم يعرِفْك بل الويلُ ثمَّ الويلُ لمن أقرَّ بوحدانيتك ولم يرضَ بأحكامك ، اللهم ان القومَ قد حكمتَ عليهم بالذُّلِّ حتى عزُّوا ، وحكمتَ عليهم بالفَقْد حتى وَجدُوا ، فكلُّ عز يمنع دونك فنسألك بدَلَهُ ذلاً تصحبه لطائف رحمتكَ ، وكلُّ وجد يحجُب عنك فنسألك عِوَضه فقدا تصحبه أنوارُ محبتك ، فانه قد ظهرت السعادةُ على من أحببتَه ، وظهرت الشقاوة على من غيرُك ملَكَه ، فهَبْ لنا من مواهب السعداء واعصِمْنا من موارد الاشقياء .

اللهم انا قد عجزنا عن دفع الضر عن أنفسنا من حيث نعلم بما نعلم ، فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لا نعلم بما لا نعلم ، وقد أمرتَنا ونهيتَنا والمدحَ والذَّم ألزمتَنا ، فأخو الصلاح من أصلحتَه ، وأخو الفساد من أضللتَه ، والسعيدُ حقاً من أغنيتَه عن السؤال منك ، والشقي حقا من حرمتَه مع كثرة السؤال لك ، فأغنِنا بفضلك عن سؤالنا منك ، ولا تحرِمْنا

من رحمتك ، مع كثرة سؤالنا لك واغفر لنا انك على كل شيء قدير ، يا شديـــدَ البطْش ، يا جبار يا قهار ، يا حكيم نعوذ بك من شر ما خلقت ، ونعوذ بك من ظُلْمة ما أبدعت ، ونعوذ بك من كيد النفوس فيما قدَّرْتَ وأردت ، ونعوذ بك من شر الحساد على ما أنعمتَ ، ونسألك عز الدنيا والآخرة كما سألكَه نبيُّك سيدنا محمد ﷺ ؛ عزّ الدنيا بالايمان والمعرفة ، وعزّ الآخرة باللقاء والمشاهدة ، انك سميع قريب مجيب .

اللهم اني أُقدِّمُ اليك بين يَدَيْ كل نفَسٍ ولمحَة وطَرْفة يَطرِفُ بها أهلُ السماوات وأهلُ الأرض ، وكُلِّ شيْءٍ هو في علمك كائن أو قد كان أُقدِّمُ اليك بين يدي ذلك كله (اللهُ لا اله الا هو ، الحيُّ القيُّوم ، لا تأخذُه سِنَةٌ ولا نَوْم ، له ما في السماوات وما في الارض ، مَن ذَا الذي يشفَع عندهَ الاَّ بإذْنِه ، يعلَمُ ما بـــين أيديهم وما خَلْفَهم ، ولا يُحيطُون بشيء من علمه الا بما شاء ، وَسِعَ كُرسيُّه السماواتِ والأرضَ ، ولا يَؤودُه حِفْظُهما وهو العَليُّ العظيم) أقسمتُ عليك ببَسْط يدَيْك ، وكرم وجهك ، ونور عينيك ، وكمال أعيُنَك ، أن تُعطِينَا خـــير ما نفذَت به مَشيئَتُك ، وتعلَّقت به قدرتُك ، وأحاط به علمُك واكْفِنا شرَّ ما هو ضدّ لذلك ، وأكمِلْ لنا دِيْنَنا وأتِمْ علينا نعمتَك ، وَهبْ لنا حِكْمةَ الحكمة البالغة مع الحياة الطيبة ، والمَوْتة الحسنة ، وَتولَّ قبضَ أرواحنا بيدك ، وحُلْ بيننا وبين غيرك ، في البَرْزَخ[1] وما قبْله

١ – هو لغة الحاجز بين الشيئين وهنا مكان استقرار الارواح من الموت إلى البعث.

وما بعدَه بِنُور ذاتِك ، وعظيم قدرتك وجميل فضلك ، انك على كل شيء قدير .

يا ألله يا علي يا عظيم يا حليم يا حكيم يا كريم يا سميع يا قريب يا مجيب يا ودود ، حُلْ بيننا وبين فتنة الدنيا والنِّساء والغَفْلة والشهوة وظُلْم العباد وسُوءِ الخلق ، واغفِرْ لنا ذنوبنَا واقْضِ عنا تَبِعَاتِنَا واكْشِفْ عنا السوء ونجِّنا من الغمّ ، واجعل لنا منه فرَجاً ومَخرَجاً انك على كل شيء قدير . يا ألله يا ألله يا ألله ، يا لطيفُ يا رزّاق يا قويُّ يا عزيز ، لك مَقاليدُ السماوات والارض تبسُطُ الرزقَ لمن تشاء وتَقْدِرُ ، فابسُط لنا من الرزق ما تُوَصِّلُنا به الى رحمتك ، ومن رحمتك ما تحولُ به بيننا وبين نِقْمَتِك ، ومن حِلْمَك ما يسَعُنا به عَفوُك واختِمْ لنا بالسعادة التي ختمتَ بها لِأوْليائك ، واجعل خيرَ أيامِنا وأسعدَها يومَ لقائك ، وزَحْزِحْنا في الدنيا عن نار الشَّهْوة ، وأدخِلْنا بفضلك في ميادين الرحمة ، واكسُنا من نورك جلابيبَ العِصْمة ، واجعل لنا ظهيراً من عقولنا ومُهَيْمِناً من أرواحنا ، ومُسخِّراً من أنفُسِنا ، كي نسبِّحَك كثيراً ونَذكُرَك كثيراً إنّك كنتَ بنا بصيراً . وَهبْ لنا مُشاهَدةً تصحَبُها مُكالَمة ، وافتحْ أسماعَنا وأبطرنَا واذكُرنا اذا غفلْنا عنك ، بأحسنِ ما تذكُرنا به إذا ذكرناك ، وارحمنا اذا عصَيْناك بأتمِّ ما ترحَمُنا به اذا أطعْناك ، واغفر لنا ذنوبَنا ما تقدَّم منها وما تأخَّر ، والطُف بنا لطفاً يحجُبنا عن غيرك ولا يحجبنا عنك ، فانك بكل شيء عليم .

اللهم انا نسأُلك لساناً رَطْباً بذكرك ، وقلباً مُنعَّماً بشكرك ، وبدَناً هيِّناً ليِّناً لطاعتك وأَعطِنا مع ذلك ما لا عينٌ رأت ولا أُذُنٌ سمِعَتْ ولا خطرَ على قلبِ بَشَر ، كما اخبر به رسولُك ﷺ ، حسَبَ مَا علِمْتَه بعِلْمك ، وأَغنِنَا بلا سبب ، واجعلْنا سبَب الغِنَى لأوليائك ، وبرْزخاً بينهم وبين أعدائك ، انك على كل شيء قدير ، اللهم إنا نسأُلك ايمانا دائماً ، ونسألك قلباً خاشعاً ، ونسألك علماً نافعاً ، ونسألك يقيناً صادقاً ، ونسألك ديناً قيِّماً ، ونسأُلك العافيةَ من كل بَليَّة ، ونسألك تمامَ العافية ونسألك دَوامَ العافية ، ونسألك الشكرَ على العافية ، ونسألك الغِنَى عن الناس ، اللهم انا نسألك التوبة الكاملة ، والمغفرة الشاملة ، والمحبَّة الجامعة والخُلَّة الصافية ، والمعرفة الواسعة ، والأنوارَ الساطعة ، والشفاعة القائمة ، والحجة البالغة ، والدرَجة العالية ، وفُك وثاقنَا من المعصية ، ورِهَاننَا من النعمة بمواهب المِنَّة ، انك على كلّ شيء قدير ، اللهم انا نسأُلك التوبةَ ودوامَها ، ونعوذ بك من المعصية وأسبابها ، وذَكِّرْنا بالخوف منك قبل هجوم خطَراتِها ، واحمِلْنا على النجاة منها ، ومن التفكُّر في طرائقِها ، وامْحُ من قلوبنا حَلاوةَ ما اجتنيناه منها واستبدلها بالكَراهة لها والطَّعْم لِما هُو بضِدِّها ، وأَفِضْ علينا من بحر كرمك وفضلك وجودك وعفوك حتى نخرُجَ من الدنيا على السلامة من وَبالِها ، واجعلْنا عند الموت ناطِقين بالشهادة عالِمين بها ، وارأفْ بنا رأفةَ الحبيب بحَبيبه عند الشدائد ونُزولها وأَرِحْنا من هموم الدنيا وغُمومِها بالرَّوْح والرَّيْحان الى الجنة ونعيمها ،

اللهم انا نسألك توبةً سابقةً منك الينا لتكون توبتُنا تابعةً اليك منا ، وهَبْ لنا التلقِّيَ منك كتلقِّي آدمَ منك الكلماتِ ، ليكون قدوةً لولده في التوبة والأعمال الصالحات ، وباعِدْ بيننا وبين العِناد والإصرار ، والشَّبَه بإبليس رأسِ الغُواة واجعلْ سيِّئاتِنا سيِّئاتِ مَن أحببتَ ، ولا تجعل حسَناتِنا حسَناتِ من أبغضْتَ ، فالاحسانُ لا ينفع مع البغض منك ، والاساءةُ لا تضرُّ مع الحب منك ، وقد أبهمتَ الامرَ علينا لِنرجُوَ ونَخافَ فآمِنْ خوفَنا ولا تُخيِّبْ رجاءَنا ، وأعطِنا سؤْلَنا فقد أعطيْتَنا الايمانَ من قبل أن نسألَك ، وكَتبتَ وحبَّبتَ وزيَّنتَ وكرَّهتَ وأطلقتَ الألسُنَ بما به ترجَمْتَ ، فنِعْم الربُّ انتَ ، فلك الحمدُ على ما أنعمْت فاغفر لنا ولا تعاقبنا بالسَّلْب بعد العَطاء ، ولا بكُفران النعم وحِرمان الرِّضى ، اللهم رضِّنا بقضائك ، وصبِّرْنا على طاعتِك ، وعن معصيتِك ، وعن الشهوات المُوجبات للنقص والبُعْد عنك ، وهَبْ لنا حقيقةَ الايمان بك ، والتوكل عليك ، حتى لا نخافَ غيرك ، ولا نرجُوَ غيرك ، ولا نحبَّ غيرك ، ولا نعبُدَ شيئاً سواك ، وأوزِعْنا شكرَ نعمائك ، وغطِّنا بِرداء عافيتك ، وانصُرنا باليقين والتوكل عليك ، وأسْفِرْ وُجوهَنا بنُور صِفاتك ، واضحِكْنا وبشِّرْنا يوم القيامة بين أوليائك ، واجعل يدَك مبسوطةً علينا وعلى أهلينا وأولادِنا ومن معنا برحْمتِك ، ولا تكِلْنا الى أنفُسِنا طرْفةَ عين ولا اقلَّ من ذلك ، يا نِعْم المجيب ، يا مَن هو في عُلوِّه قريب يا ذا الجلال والاكرام ، يا مُحيطاً بالليالي والأيام ، اشكُو اليك من غمِّ الحجاب ، وسوء الحساب ،

وشدَّة العقاب وإنَّ ذلك لَواقع ، ما له من دافع ، إن لم ترحَمْني لا اله الا أنت سبحانَك إنِّي كنت من الظالمين ، ولقد شكا اليك يعقوبُ فخلَّصْتَه من حزْنه ، ورددتَ عليه ما ذهب من بصره ، وجمعتَ بينه وبين وَلَده ، ولقد ناداك نوحٌ من قبلُ فنجيتَه من كَرْبه ، ولقد ناداك أيوبُ من بعدُ فكشفتَ ما به من ضُرِّه ، ولقد ناداك يُونسُ فنجيْتَه من غمِّه ولقد ناداك زكرياءُ فوهبتَ له ولداً من صُلْبه ، بعد يأس أهـله وكِبرِ سِنّه ، ولقد علمْتَ مَا نَزل بابراهيم فأنقَذْتَه من نار عَدُوّه ، وأنجيتَ لُوطاً وأهلَه من العذاب النَّازل بقومه ، .. فها أنا ذا عبدُك إن تُعذِّبْني بجميع ما علِمتَ فأنا حقيق به ، وان ترحَمْني كما رَحِمْتَهم مع عِظَم إجرامي فأنتَ أولى بذلك وأحقُّ من أكرَم به ، فليس كرمُك مخصوصاً بمن أطاعك ، وأقبلَ عليـك ، بل هو مبذُولٌ بالسبْق لِمن شئتَ من خلْقِك وان عصاك وأعرضَ عنك ، وليس مِن الكرم أن لا تُحْسِنَ الاَّ لِمن أحسَن إليك ، وأنتَ المُفضلُ الغَنِيّ ، بل من الكرم أن تُحسِنَ الى من أساءَ اليك ، وأنت الرحيم العليّ ، كيف وقد أمرتَنا أن نُحسِنَ الى من اساءَ الينا ، فأنتَ اولى بذلك منا ، ربَّنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفرْ لنا وترحَمْنا لَنكُونَنَّ من الخاسرين . يا أللّه ، يا أللّه ، يا أللّه ، يا رحمانُ يا رحيم يا حيُّ يا قيُّوم ، يا مَن هُوَ هُوَ يا هُوَ إن لم نكُنْ لِرحمتِك أهلاً أن ننالَها فرحمتُك أهلٌ أن تنالَنا ، يا ربَّاهُ يا مُغيثَ من عصاه أغِثْنا يا ربُّ يا كريم ، وارحَمْنا يا برُّ يا رحيم ، يا مَن وسِعَ كُرسيُّهُ السماواتِ والأرضَ ولا يؤُودُه حفظُهما وهو العلي العظيم ، أسألك

الايمانَ بحفظك ، ايمانا يَسْكُن به قلبي من هَمِّ الرزق وخوف الخلق واقْرُبْ مني بقُدرتك قُرْباً تمحَقُ به عني كل حجاب محقْتَه عن ابراهيمَ خليلك ، فم يحتجْ لجبريلَ رَسُولك ، ولا لسؤاله منك ، وحجَبْتَه بذلك عن نار عدُوه ، وكيف لا يُحجَبُ عن مضرّة الأعداء مَن غيَّبْتَه عن منفعَة الأحباء ، كلَّا إِنِّي أسألُك أن تغيبني بقُربك مني حتى لا أرى ولا أحِسَّ بقرب شيء ولا ببعده عني ، انك على كل شيء قدير ، افحَسِبتُم أنما خلَقْناكُم عَبَثاً وأنكم الينا لا تُرجَعون ، فتَعالى اللهُ المَلِك الحقُّ ، لا اله الا هو ربُّ العرش الكريم ، ومَن يَدْعُ مَع الله إلهاً اخر لا بُرْهانَ له به فإنَّما حِسابُه عند ربِّه ، إنَّه لا يُفْلِحُ الكافِرُونَ ، وقُلْ ربِّ اغفِرْ وارْحمْ وأنتَ خيرُ الراحِمين ، هو الحيُّ لا اله الا هو فادعُوه مُخلِصينَ له الدِّينَ ، الحمدُ لله رب العالمين .

صلاة لمحمد بن سليمان الجزولي

من كتابه دلائل الخيرات

أفضلُ صلوات الله ، وأحسنُ صلوات الله ، وأجلُّ صلوات الله ، وأجملُ صلوات الله وأكمل صلوات الله ، وأسبَغُ صلوات الله ، وأتمّ صلوات الله ، وأظهر صلوات الله ، وأعظم صلوات الله ، وأذكى صلوات الله وأطيب صلوات الله ، وأبرَك صلوات الله ، وأوفى صلوات الله ، وأسنى صلوات الله ، وأعلى صلوات الله ، وأكثر صلوات الله ، وأجمع صلوات الله ، وأَعمُّ

صلوات الله ، وأدوَمُ صلوات الله ، وأبقى صلوات الله ، وأعزّ صلوات الله ، وأرفع صلوات الله على أفضلِ خلق الله ، وأحسن خلق الله ، وأجلّ خلق الله ، وأكرم خلق الله ، وأجمل خلق الله ، وأكمل خلق الله ، وأتمّ خلق الله ، وأعظم خلق الله عند الله ، رسول الله ، ونبي الله ، وحبيب الله ، وصَفيّ الله ، ونَجِيّ الله ، وخليل الله ، ووليّ الله ، وأمين الله ، وخِيرَةِ الله مِن خَلْق الله ، ونُخبَةِ الله من بَرِيَّة الله ، وصَفْوَة الله من أنبياء الله ، وعُرْوَة الله ، وعِصْمَة الله ، ونِعْمة الله ، ومفتاح رحمة الله ، المختار من رُسُل الله ، المنتخب من خلق الله ، الفائز بالمطلَب في المَرْهَب والمَرْغب المُخلَص فيما وُهب ، أكرم مبعوث ، أصدق قائل ، أنجح شافع ، أفضل مشفَّع ، الأمين فيما استُودِع ، الصادق فيما بلَّغ ، الصادع بأمر ربِّهِ ، المُضطَلِع بما حُمِّل ، أقرب رُسل الله الى الله وَسِيلةً وأعظمِهم غداً عند الله منزلة وفضيلة ، وأكرم أنبياء الله الكرام الصفوة على الله ، وأحبهم الى الله ، وأقربِهم زُلْفَى لدَى الله ، وأكرم الخلق على الله ، وأحظاهم وأرضاهم لدى الله ، وأعلى الناس قدراً ، وأعظمهم مَحَلاًّ ، وأكملهم مَحاسِنَ وفضلاً ، وأفضل الأنبياء درَجةً ، وأكملهم شريعة ، وأشرف الأنبياء نِصاباً ، وأبْيَنِهم خِطاباً ، وأفْضَلِهم مَوْلِداً ومُهاجَراً وعِتْرَةً وأصحاباً وأكرم الناس أرُومةً ، وأشرفهم جُرثُومة ، وخيرهم نَفْساً ، وأطهرهم قلبا ، وأصدقهم قولا ، وأزكاهم فعلا ، وأثبتهم أصلا ، وأوفاهم عهدا ، وأمكنهم مجدا ، وأكرمهم طبعا ، وأحسنهم صُنعا ، وأطيبهم

فرعا ، وأكثرهم طاعة وسمعا ، وأعلاهم مَقاما ، وأحلاهم كلاما ، وأزكاهم سلاما ، وأجلهم قدرا وأعظمهم فخرا ، وأسناهم نُورا ، وأرْفَعهم في الملأ الأعلى ذِكْرا ، وأصدقهم وعدا ، وأكثرهم شكرا ، وأعلاهم أمرا ، وأجملهم صبْرا ، وأحسنهم خيرا ، وأقربهم يُسرا ، وأبعدهم مكانا ، وأعظمهم شانا وأثبتهم بُرهانا ، وأرجحهم مِيزانا ، وأولهم ايمـــانا ، وأوضحهم بيانا ، وأفصحهم لسانا ، وأظهرهم سلطانا .

صلاة لابراهيم التّازي

وتُعرف بالصلاة التازيّة

اللهم صلّ صلاةً كاملةً وسلم سلاما تاما على محمد نبيٍّ تنحَلُّ به العُقَد ، وتنْفَرِج به الكُرَب ، وتُقضَى به الحوائجُ وتنالُ به الرغائب ، وحُسْنُ الخواتم ، ويُستَسْقَى الغَمامُ بِوَجْهِه وعلى آله وصَحْبِه ،

تحميدٌ لمحمد مَيّارة

يذكُر فيه هدايةَ الاسلام وجهادَ النبي عليه السلام

الحمد لله مُرشِد هذه الأمة لِما اختار لها من الايمـــان والاسلام شِرْعةً ومِنْهاجاً مُعينِ مَن أرادَ به خيرا على فَهْم قواعِدهما وحفظ فرُوعهما حتى امتزَجتْ بلحومهم ودمائهم امتزاجا ، فانتفعوا بمعرفة ضَرُورِيٍّ عِلْم دينِهم ونفعوا من الخلق أفراداً وأزواجا ، نحمَدُه ونشكره على نِعَمه التي

لا نُحصيها وكيف يُحصَى البحر سَيَّاحاً والقَطْرُ ثَجَّاجاً[1] ونَستعينُه ونستغفره لذنوبنا التي ارتكبناها انحرافا واعوِجاجاً ، ونُؤمِنُ به ونتوكل عليه افتقارا اليه واحتياجا ، ونَبْرأُ من الحَوْل والقُوَّة اليه بَراءَةً نجدُ لها سرورا وابتهاجا ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا التي صَيَّرت حلْوَنا مُرّا وعَذْبَنا أُجاجا ، مَن يَهْدِ اللّهُ فلا مُضِلَّ له ومن يَضلِلْ فلن تجدَ لِداء ضلاله عِلاجا ، ونشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة تُمازِجُ الروحَ والطُّوع مِزَاجا ، وتكون لكل خير سُلَّماً ومِعْراجا ، ونشهد أن سيدنا ونبينا ومولانا محمدا عبده ورسوله الذي أطلعه الله في ظلمات الشرك سِرَاجا وأَمَره بمحاربة أهل الكفر حتى دخلوا في دين الله أفواجا ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الذين حفِظُوا دينَه وأذَاعوه فصار مصباحا وهّاجا ، صلاة وسلاما نستَمْطِرُ بهما العفوَ استمطارا ونَستَنْتِجُ الغُفران استنتاجا .

صلاة لمحمد بن ناصر

من كتابه الغَنِيمَة ، (حرف الهَمْزة)

اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاة تكون لنا مَعاذاً من الشيطان ومَكْلأً ، اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل

---

١ – سياحا أي جاريا والقطر بالفتح المطر ، وثجّاجا بالتشديد أي مُنصبا والوصفان منصوبان على الحال .

سيدنا محمد صلاة تغفر لنا بها ما جنيناه عمْداً أو خطأ ، اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاة تسدّدنا بها في أمورنا كلها مَعاداً ومَبْدأ ، اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاة تجعل لنا بها مَهْيَعاً الى رضوانك مُوَطَّأ[1] . اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاة تجعل لنا بها عندك قدْراً وخطرا وقربا وحبا وشرفا ومَعْبَراً[2] ، اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاة تجعل لنا بها في الجنة مَقيلاً ومُبوّءاً .

صلاة للمُعطِي بن الصّالح

من كتابه الذّخيرة ، يذكر فيها شرف الاسراء بالنبي ﷺ

اللهم صل وسلم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آل سيدنا محمد سلطان المملكة المتوّج بتاج اليُمْن والبُشرى ، ومحل الخير والبركة ، المبعوث بالرفق والهداية واليُسْرى ، الذي لما أردتَ أن تُشَرِّفَ قدره على ما فوق العرش وتحت الثّرى، وتُظهر مَزيَّتَه على أحبائك وأصفيائك دُنيا وأُخرى ، أسْرَيْتَ به الى بِسَاطك لِتُرِيَه ما خَفِيَ عن العقول من أسرار قدرتك ، وباهِر آياتك الكُبرى ، وتطلِعَه على ما رمزتَ له به في دقائقِ رقائِق سُورة

---

١ – المهيع الطريق والموطأ الممهد .

٢ – أي اعتباراً .

الإسْراءِ، وتُتْحِفَه بكمال القُرْب والاصطفاءِ وتُخْبِرَهُ بأنه أولى بـذلك المقام وأحرى ، وأنه الامام الأعظم والحبيب الأكرم والصفِيُّ المؤيد بخطاب « أفتُمارُونَه على ما يَرى » والنبي المُشرَّف بقولك « ولقد رآه نَزْلةً أُخرى عند سِدْرَةِ المُنتهَى عندها جنةُ المأْوَى إذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يغشَى ما زَاغ البصرُ وما طغَى لقد رأَى من آياتِ ربه الكُبْرَى » فصلِّ اللهم عليه وعلى آله صلاة تشرَح بها صدورنا للذِّكْرَى، وتحفظنا بها من نَكَبات الدهر وعَوارِضِ العُسْرى ، وتَهُبُّ علينا نَوافِح بَركتِها المحُمَّدية كلَّ حين تَتْرى ، بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين .

تحميد لخالد العُمَري

من خطبة له إثْرَ عَزْل أحد وُلاة الجوْر بمدينة طنجة عام ١٢٤٣ هـ

الحمد لله الذي كَشف عنا البلايا ودفع عنا المَكارِهَ ونفَى عنا الأسواء، وصرَف عنا بغَيْرته الصَّمدانِيَّة كأساً كنا نتجرَّعها ولا نكاد نُسيغُها من أيدي أرباب العَسْف والأهواء ، ومال بجيش اليُسْر على جيش العُسْر فانجابت عنا بحمده أحلاك العنَا ، والحمد لله الذي صرف عنا الأذى وأذهب رفقاً بنا معشر المسلمين عنا الحزَن ، وكَحَل بيُمناه جفونَنا بعد ما أَلِفت السُّهادَ من أجل الفساد بمِرْوَدِ الوَسَن ، فاعتظنا ولله مَزيدُ الحمد من ليالي النحوس والخَنَى ، ليالي السعود والهنا ، والحمد لله الذي كبَتَ العدوَّ وجبَر الصدْعَ وغيَّر الشيطانَ وقد شابَتْ من مَفرِقِه النَّواصِي واللِّمَم،

وردَّ عز وجل اليدَ ٱلعادِيَةَ عنا ، ردَّ الغَيُور يدَ الجـــاني عن الُحرَم ، فاستوجب منـــا أن نَلْهَج بالحمدِ والشكرِ له على كل حال ، وما كان من حال . بلسان العَجَل لا بلسان ٱلوَنَا ، نحمده تعالى ونشكره ، على ما خوَّلنَا من سوابغ النعم ، ونستقيله عز جنابه ونستغفره من نَواهِيَ أقيِستَها تُنتِجُ فوَادِحَ النِّقم ، حمداً واستغفاراً يحصل بها للحامِد والُمستغفِر مِثْلُ ما يحصل للمُفْردِ والقَارِنِ[1] من التَّكْرِمَة في مِنَى ، ونُومِنُ به ونتوكل عليه ونبَرأُ من الحول والقوة اليه ، توكل من أناب ، وبَراءَة من جنتْ يــــداه من غرُوس التكريم ثمَر الُمنَى ، ونعوذ به من شرور أنفسنا التي لم يُوقَفْ لها على حساب ، ومن سيئات أعمالنا التي أثبتَتْهـــا أقلامُ الكرامِ الكاتبين في كِتاب ، فانه جل وعلا خيرُ واقٍ يقينا من وَقْع مالها وللهوى من بِيضٍ وسِهامٍ وقَنَا ، مَن يَهْدِ اللهُ فلا صارف له عن التشَبُّثِ بأذْيَال الدّين ، ومن يُضلِلْ فلا هاديَ له ولا ناصر ولا مُعين ، وما التوفيق الا من عنـد الله والله خلَقَكُم وما تعملون سرّاً وعلَناً .

صلاة للمُختار الكُنْتِي

من كتابه نفْح الطيِّب ، ضمَّنها عَمُودَ النسب الكريم

اللهم صل وسلم على أشْبَهِ وَلَدِ ابراهيم بابراهيم ، المشرَّف بالطَّوَاسِين

---

١ - المفرد هو المحرم بحج ، والقارن هو المحرم بحج وعمرة ، وكلاهما له ثواب جزيل ، ومنى من أماكن الحج المعروفة .

والحَوَامِيمْ[1] اللهم صل وسلم على المُنَبَّأ من ذُرِّيّة نَابِتٌ[2] الذي شرَفُه وذكْرُهُ والتَّنْوِيهُ به في جميع الدهور ثَابِت ، اللهم صل وسلم على المختار من ضِئْضِيء[3] عَدْنان المَحْبُوّ بالسبْع المَثانِي والقُرآن . . الخ .

١ – الطواسين السور القرءانية المفتتحة بطس والحواميمْ السور المفتتحة بحم والأوْلى أن يقال لها آل حم .

٢ – نابت هو ولد اسمعيل عليه السلام .

٣ – بكسر الضادَين أي أصل .

الخُطَب

خُطبة

لِطارق بن زِياد

قالها في جيشه الذي فتح به الأندلس بعد ان أحرق الأحفان التي حملتهم الى الجبل المسمى باسمه قطعاً لاملهم في الرجوع .

أيُّها الناس : أيْنَ المفرّ ؟ البحر من ورائكم والعدوّ أمامكم وليس لكم والله الا الصِّدقُ والصبر . واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدُبَة اللّئام . وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه ، وأسلحته وأقواته موْفورة . وانتم لا وَزَرَ لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات لكم الا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم . وإن امتدت بكم الايامُ على افتقاركم ولم تنجزوا لكم امراً ، ذَهبَتْ رِيحُكم وتعوَّضت القلوب من رعبِها منكم الجراءة عليكم . فادفعوا عن انفسكم خذلان هذه العاقبة من امركم بِمُناجزةِ هذا الطَّاغية ، فقد ألقتْ به اليكم مدينته الحصينة . وإنّ انتهازَ الفُرْصة فيه لَممْكِنٌ ان سمحتم لانفسكم بالموت وإني لم أحذّركم أمراً انا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرْخصُ متاعٍ فيها النفوسُ (من

غير[١] ان) أبدأ بنفسي . واعلموا انكم ان صبرتم على الأشق قليلاً استمتعتم بالأرفه الألذ طويلاً ، فلا ترغبوا بانفسكم عن نفسي فما حظكم فيه بأوفى من حظي . وقد بلغكم ما انشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات اليونان ، الرافلات في الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك امير المؤمنين من الأبطال عرباناً ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختانا . ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الابطال والفرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ومن دون المومنين سواكم . والله تعلى ولي إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين . واعلموا اني اول مجيب الى ما دعوتكم اليه وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم « لذريق » فقاتله ان شاء الله تعلى فاحملوا معي فان هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون اموركم اليه وان هلكت قبل وصولي اليه فاخلفوني في عزيمتي هذه واحملوا بانفسكم عليه واكتفوا لهم من فتح هذه الجزيرة بقتله فانهم بعده يخذلون .

١ – هذه الكلمة ليست بالاصول التي وقفنا عليها وبدونها لا ينسجم الكلام وفي رواية اخرى للخطبة ولاحملنكم بالاثبات والتأكيد، ومع ذلك يبقى في الكلام تقطيع.

خطبة إدريس الأزهر

قالها بإثر مبايعته وهو ابن احدى عشرة سنة

الحمد لله أحمده واستعينه واستغفره واتوكل عليه واعوذ به من شر نفسي ومن شر كل ذي شر ، واشهد ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله ارسله الى الثقلين بشيراً ونذيراً وداعياً الى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﷺ وعلى آل بيته الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا - ايها الناس ! إنّا قد ولينا هذا الأمر الذي يضاعف للمحسن فيه الأجر ، وللمسيء الوزر ، ونحن والحمد لله على قصد جميل فلا تمدوا الاعناق الى غيرنا ، فان ما تطلبونه من اقامة الحق انما تجدونه عندنا .

خطبة اخرى له

لما فرغ من بناء فاس وحضرت الجمعة الأولى صعد المنبر وخطب الناس ثم قال :

اللهم انك تعلم اني ما اردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ، ولا سمعة ولا مكابرة ، وانما اردت ان تعبد فيها ويتلى كتابك وتقام حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ما بقيت الدنيا . اللهم وفق سكانها وقطانها للخير وأعنهم عليه ، واكفهم مؤونة اعدائهم ، وأدر عليهم الرزق وأغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق ، انك على كل شيء قدير .

خطبة لعبدالله بن ياسين

خطبها في شيوخ المرابطين وقد طُعِنَ في حروبه مع «بَرَغْواطة»

يا مَعْشَرَ المرابطين : انكم في بلاد اعدائكم ، واني مَيِّت في يومي هذا لا محالة ، فاياكم ان تجبُنُوا وتفشَلُوا فتَذْهَب ريحُكم ، وكونُوا أُلْفَةً وأعوانا على الحق واخواناً في ذات الله تعلى ، واياكم والمُخالفةَ والتحاسُدَ على طلب الرِّياسة فان الله يوتي مُلكه من يشاء ويَسْتَخْلِفُ في أَرْضِه من أحبَّ من عباده ، ولقد ذهبتُ عنكم فانظروا من تُقدِّمونه مِنكم يقومُ بامركم يَقودُ جيوشكم ويغزو عدوكم ويقْسِمُ بينكم فَيْئَكم ويأخذُ زكاتكم وأعْشارَكم .

خطبة للقاضي عياض

في الحض على [illegible]

عبادَ الله سلِّمُوا الأمور الى من بيده أزِمَّةُ مقاديرها تنجَحُوا ، واش[illegible]وا راحة قلوبكم باخلاص التوكل على الله تربَحوا ، واعلموا أن الحر[illegible] لا يزيد المرء على ما قُسِمَ له ، وتصاريف القدر تقطَع لكل أمل أمله ، وانما يدرك الانسان بسعيه ما كُتِب له لا ما طَلب ، ويبلُغ بكَدِّه ما قسم له لا ما أمّل واحتسب فأجمِلُوا رحمكم الله في الطلب [illegible] وتوكلوا على الله حقَّ توكُّله تُرزَقوا ، وأريحوا أنفسكم من النَّصَب في طلب الدنيا والكَدّ ، فانه لا مانع لما أعطى الله ولا مُعطِيَ لما منع ولا

ينفعُ ذَا الجدّ منه الجدّ ، ألاَ وإنّ التوكل على الله والثقة به أحــدُ أبواب الايمان ، ومن أفضل درجات العدل والاحسان ، وهو حقيقةُ العُبودية والتوحيد ، ومُوجب الرضا والتسليم للرقيب الشهيد ، فقدجرى القلمُ بما كان ويكون ، ونفَذ قضاءُ الله بكل خير وشر وحركة وسكون ، وانقطعت الأطماعُ عن تأميل غير ما تقدَّم من مَشيئَاتِه ، (وتمَّت كلمةُ ربك صدقاً وعدْلاً ، لا مبدّل لكلماته ،) فَفيمَ التعب والطلب وقــد سبق لك في الكتاب ما سبق ؟ وعلامَ اللَّهَفُ والأسف على أمر قــد فُرِغَ منه قبــل أن تُخلق ، ألم يضمَن لك ربُّك رزقَك وما وَعد في سمائه ، ألم يُعلِمْك أنه لا مُعقِّب لحكمه ولا راد لقضائه ؟ فعامِلْ ربَّك أيها العبد بالتوكل والتسليم ، تفُزْ بالعيش الهنيِّ والثواب الجسيم .

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنتُ خلفَ النبي ﷺ يوما فقال : يا غلام ! اني أُعلِّمُك كلماتٍ ينفعُك الله بهنّ ، احفظِ الله يحفَظْك، احفظ الله تجِدْه تُجاهَك ، اذا سألتَ فاسأل الله ، واذا استعنتَ فاستعِنْ بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك الا بشيء قــد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيء لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك، جفَّت الأقــلام وطُويت الصحُف . إنَّ أحسنَ الحديث وأبلغَ المواعظ كلامُ الله تعالى (ومن يتَّق اللهَ يجعلْ له مَخْرَجاً ويرزُقْه من حيث لا يحتَسِب ومن يتوكَّل على الله فهو حَسْبُه) جعَلَني الله

وإيَّاكم ممن توكل عليه في كل حالاته ، واتّقاه سبحانه حقّ تُقاتِه ، وغفر لي ولكم ولجميع المسلمين .

خطبة للمهدي بن تومرت

خطبها في شيوخ المصامدة عاهداً الى عبد المومن

إن الله سبحانه وله الحمد مَنَّ عليكم ايتها الطائفة بتأييده وخصّكم من بين اهل العصر بحقيقة توحيده ، وقيّضَ لكم مَن ألفاكم ضُلّالاً لا تهتدون ، وعُمْياً لا تبصرون ، لا تَعرِفون معروفاً ولا تُنكِرُون مُنكَراً ، قد فشَتْ فيكم البِدَع واستهوتكُم الاباطيل وزيَّن لكم الشيطان أضاليلَ وتُرّهاتٍ أُنزِّهُ لِساني عن النُّطق بها وأربأ بلفظي عن ذكرها فهداكم اللهُ به بعد الضلالة وبصّركُم بعد العَمَى ، وجمعَكم بعد الفُرْقَة وأعزكم بعد الذّلة ورفَع عنكم سلطان هؤلاء المارقين وسيُورِثُكم ارضَهم ودِيارَهم . ذلك بما كسَبَتْه ايديهم وأضْمرَته قلُوبهم « وما ربُّك بظَلّام للعبيد » فجدِّدُوا لِله سبحانه خالِصَ نياتِكم وأرُوه من الشكر قولاً وفعلاً ما يُزكي به سَعْيَكم ويتقبَّلُ اعمالكم وينشر امرَكم ، واحذَرُوا الفُرقَة واختلافَ الكلمة وشتَاتَ الآراء ، وكُونوا يداً واحدة على عدوكم ، فانكم ان فعلتم ذلك هابَكُم الناس وأسرَعوا الى طاعتكم وكُثر أتباعُكم وأظهرَ اللهَ الحقَّ على ايديكم ، وإلاّ تفعَلُوا شمِلَكُمُ الذلُّ وعمّكم الصَّغَار واحتقرَتكم العامّة فتَخطَّفَتْكم الخاصّة .

خطبة للقاضي أبي حفص بن عُمَر

يحذِّر فيها من مذهب الفلاسفة ويحضُّ على اتباع السنة
وهو متأثِّرٌ في ذلك ، ولا شَكَّ ، بحمْلة المنصور الموحدي على الفلسفة

إياكم والقدماءَ وما أحدَثُوا ، فإنهم عن عقولهم حدّثوا . أتوا من الافتراء بكل أُعجوبَة ،وقلوبُهم عن الأسرار محجوبة ، الانبياءُ ونُورهم ،لا الأغبياءُ وغرورُهم عنهم يتلقّى وبهم يُدرَكُ السُّول ، (عالِمُ الغَيْب فلا يُظهِرُ على غيبه أحداً إلا من ارْتضى من رَسُول ،) الدينُ عند الله الاسلام ، والعِلْمُ كتابُ الله وسُنَّةُ محمدعليه السلام، ما ضرَّ من وقف عندهما ، ما جهِلَ بعدَهما، خيرُ نبيّ في خير أمة (يُزكِّيهم ويعلِّمهم الكتاب والحكمة ،) دلَّهم من قُرْبٍ عليه ، واختَصر لهم الطريق اليه ، فما ضرَّ تلك النفوسَ الكريمة ، والقلوبَ السليمة ، والألبابَ العظيمة ، ما زُوِيَ[١] عنها من العُلوم القديمة ، نقَّاهم من الأوْضار والأدناس ، وقال كنتُم خيرَ أمة أُخرِجتْ للنـــاس ، كتابُهم أعظَمُ كتاب أُنزِل ، ونبيُّهم أكرم نبي أُرسِل ، السيدُ الإمام ، لَبِنَةُ التَّمام، خيرُ البَرِيَّة على الاطلاق بُعِث لِيُتمِّم مكارِمَ الأخلاق ، أُنزِلَ الكتابُ اليه ، (مصدِّقاً لما بين يدَيْه مِن الكتاب ومُهَيْمِناً عليه) هو الشفاء والرحمة ، وفيه العلم كلُّه والحكمة ، معجِزٌ في وصْفه عزيز في رَصْفِه ، لا يأتيه الباطل من بين يديْه ولا مِن خلْفه ،) آياتُه باهرة قائمة ، ومعجزاته باقيـة دائمة ،

١ – ما نُحِّيَ وأُبْعِد .

إذ هي للنبوة والرسالة خاتمة ، لا تنقضِي عجائبُه ، ولا تنتهي غرائبه ، ماذا أقول ، وقد بهر العُقول ، حسْبِي حسْبِي (قُلْ لو كان البحرُ مِداداً لكلمات ربِّي لَنَفِذَ البحرُ قبل أن تَنْفَدَ كلماتُ ربي) .

وعليكم من جميع اموركم بمزْج الرأْفة بالغِلْظَة واللِّينِ بالعُنْف واعلموا مع هذا أنه لا يصلُح امرُ آخرِ هذه الأمة الا على الذي صلَح عليه أمرُ أوَّلِها . وقد اخترنا لكم رجُلاً منكم وجعَلْنَاهُ أميراً عليكم . هذا بعدَ ان بلَوْنَاه في جميع احواله من ليله ونهاره ومَدْخلِه ومَخْرجِه ، واختبرنا سرِيرَتَه وعلانِيَته ، فرأيناه في ذلك كله ثَبْتاً في دينه متبصرا في امره واني لأرجو ان لا يُخلِفَ الظنَّ فيه . وهذا المُشَارُ اليه هو عبدُ المومن فاسمَعُوا له واطيعوا ما دام سامعا مُطِيعاً لربه فان بدَّلَ اوْ نكَصَ على عَقِبِه او ارتاب في امره ففي الموحدين اعزَّهم الله بركةٌ وخيرٌ كثير ، والامر لله يُقَلِّدُه مَن شاء من عِباده .

خطبة للمنصور المريني

كان له باسبانيا غزَوات عظيمة ومن بعض خُطَبه فيها يحضُّ جيشه على القتال قولُه :

يا مَعْشرَ المسلمين، وعِصَابةَ المُجاهِدين : إن هذا يومٌ عظيم، ومَشْهَد جَسِيم ، أَلَا وإنَّ الجنة قد فُتِحتْ لكم ابوابُها ، وزُيِّنَتْ أَتْرابُها ، فخذوا في طِلَابِها ، فإنَّ الله اشتَرى من المومنين انفسَهم وأَموالَهم بِأَنَّ لهم الجَنَّة .

فَشَمِّرُوا عن ساعِد الجدِّ مَعاشِرَ المسلمين ، في جهاد المشركين ، فمَن مَات منكم ماتَ شهيدا ، ومَن عاش عاشَ غانما مَأجورا حميدا ، فاصبِرُوا وصابِروا ورَابِطُوا واتَّقُوا الله لعلَّكُم تُفْلِحُون .

خطبة لابن رُشَيْد

قام ابن رشيد للخطبة يوم الجمعة بعد فراغ المؤذن الثاني ظنَّه الثالثَ فكثُر لغَطُ الناس فقال بديهةً

ايها الناس رحمَكُم الله : إنَّ الواجبَ لا يُبطِلُه المَنْدُوب ، وإنَّ الأذَانَ الذي بعدَ الأوَّل غيرُ مشروعِ الوجوب ، فتأَهَّبُوا لطلَب العلم وانتبِهُوا ، وتذكَّروا قول الله تعالى (وَمَا آتَاكُم الرسولُ فخذُوه وما نَهاكم عنه فانتَهُوا ،) وقد رَوَيْنَا عنه ﷺ انه قال : مَن قال لِأخِيه ، والامامُ يخطُب ، أَنصِتْ فَقد لَغَى ، ومَن لَغَى فلا جُمُعَةَ له ، جَعلنِي اللهُ وإيَّاكم ممن عَلِم فعَمِل ، وعَمِل فقُبِل ، وأخلَص فتَخلَّص .

خطبة وعظية لأبي مَدْيَن الفاسي

عباد الله : نجَا المخِفُّون فخَفِّفوا الاثقال لِتَلْحَقوا ، وفازَ المتَّقُون فان شِئْتُم الفوزَ فاللهَ فاتَّقوا ، وترافَق السعداءُ على الجادَّة فايَّاهم فرافِقوا ، وسابَقَ النُّجبَاءُ الى العبادة فسارِعوا اليها وسَابِقُوا ، ووَصل المُشمِّرون ، فماذا ينتظرُ المقصِّرون ، « هلْ ينظُرون الا الساعةَ أن تأتِيَهم بَغْتَةً وهم لا

يشعرُون » أخرجَ الأمامُ احمدُ في الزُّهد والحاكِمُ في المُستدرك والبَيْهَقي عن ابن عباس أَن رسول الله ﷺ قال لِرَجُل وهو يَعِظُه اغتَنِمْ خَمْساً قبل خَمْسٍ ، شبابَك قبل هَرَمِك ، وصِحَّتَك قبل سَقَمِك ، وغِناك قبل فَقْرِك ، وفَراغَك قبل شُغْلِك ، وحَياتَك قبلَ مَوتِك . « استجيبُوا لربكم من قبل أن يَأتِيَ يومٌ لا مَردَّ له من الله ما لَكُم من مَلْجأ يومئذ وما لَكُم من نَكير » . في الحِلْيَة عن بِلال بن سعيد قال : قال عبد الرحمن : يُقَال لأَحدِنا أَتُحِبُّ ان تموت ؟ فيقول لا . ويقول سوف اعمل ، فلا يحب ان يموت ولا يعمل ، وأحبُّ شيء اليه ان يؤخّر عمل الله ولا يحب ان يؤخر عملَ الدنيا . « يا أيها الناسُ إنَّ وعْدَ الله حقّ فلا تَغُرَّنَّكم الحياةُ الدنيا ولا يغرَّنَّكم بالله الغَرُور » ولا تتَخيَّلُوا الاقامةَ في دار لا بقاءَ لها ، وتظنُّوا ان مَن جَدَّ على الجادَّةِ كمن تباهى بالباطل ولَها ، كلاَّ ! واللهِ إن ما وَلَدْناه فللتُّراب ، وما جَمَعْناه فللذهاب ، وما شيَّدناه فللخَراب ، وما اكتسبناه ففي كِتَاب ، وكُلَّ انسان أَلزمناهُ طائِرَه في عُنُقِه ونُخْرِجُ له يومَ القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، إقرأْ كتابَك كفى بنفسِك اليومَ عليك حسيباً » رَوى الامامُ مُسلِم عن ابي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يقول العبدُ ، مالي مالي ! وانما له من ماله ثلاث ، ما أكَل فأفنى ، أو لَبِس فأبلى ، او تصدَّقَ فأمضَى ، وما سوى ذلك فهو ذاهبٌ وتاركُه للناس . « كَمْ تركُوا من جنَّات وعُيون وزُروعٍ ومَقامٍ كريم ! كذلك وأورَثناها قوماً آخرين » رَوى الدَّيْلَمِيُّ عن أنس أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم قال : أَصْلِحُوا دنياكم واعملوا لآخرتكم كأنكم تمُوتُون غداً. « يا أيها الذين آمَنُوا اتَّقُوا الله ولْتَنظُرْ نفسٌ ما قدَّمت لِغَدٍ ، واتّقوا الله ان الله خبير بما تعمَلون » جعلَني الله وايّاكم ممن قدَّمَ من دنياه لأخراه ، واستجاب لربه من قبل ان يأتي يوم لا مَردَّ له من الله ، وأجارني وايّاكم من عذابه المُهِين ، وغفر لي ولكم ولوالدينا ولجميع المسلمين .

خطبة في التذكير والترغيب

لأبي عبدالله الرُّهُوني

أيُّها الناسُ ، حَصْحَصَ لكم الحقُّ فتبصَّروا ، وتبيَّن لكم الرُّشْد من الغيِّ فالْزَموا الطاعَةَ وتذكروا ، وحُمِلْتُم على سُلُوكِ الطريق المستقيم فاسْتَقْدِمُوا ولا تتأخَّروا وحُذِّرْتُم من العُدول عنها فخافوا اللهَ واحذَروا ، وأُسْبِغَتْ عليكم النِّعَمُ ظاهرةً وباطِنةً فاعرِفُوا حقَّها واشكُروا ، واعلموا ان الله لا يُغيِّر ما بِقَوْم حتى يُغيِّروا ، وايّاكم والتقصيرَ في العمل فلن تَسْعَدُوا مع التقصير أو تُعذَروا ، وكُونوا من قوم أشرقَتْ لهم أنوارُ الهداية فأبصَرُوا ، وتُلِيَتْ عليهم آياتُ الله فتدَّبروا ، ولا تكونوا ممن استعْبَدتْهم الدنيا فشَرِبُوا من كؤوس حبِّها حتى سَكِرُوا ، وقطَعُوا أعمارَهم في اتباع شهواتها فخابُوا وخَسِرُوا ، وانهَجُوا سبيلَ الذين استعَدُّوا لِمواطِن القيامة كأنهم شاهَدُوا أهوالَها وحضَروا ، ورأَوْا عذابَ النار فكفُّوا أنفُسَهم عن السُّوء وانْزَجروا ، وسمِعُوا ما أعدَّ اللهُ لأوليائه في الجنة فاجتَهَدوا

بالطاعة وبادروا ، وقد تحققتم يا عبادَ الله أنه ليس بعدَ هذه الدار ، منزلٌ ولا قرار ، سوى الجنّة أو النار ، فاختاروا لأنفسكم وانظروا ... في الصّحيح عنه عليه الصلاة والسلام أنّه قال : ما منكم من أحدٍ إلاّ سيُكلّمُه ربه ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان ، فينظرُ أيمنَ منه فلا يرى الا ما قدّم وينظر أشأمَ منه فلا يرى الا ما قدّم ، وينظر تلقاءَ وجهه ، فلا يرى إلّا النار تلقاء وجهه ، فاتّقوا النارَ ولو بشقٍّ تمرةٍ فمَنْ لم يجدْ فبكلمة طيّبة ، إنّ أحسنَ ما أنتم له سامعون ، كلام مَن نحنُ له عابدون (يا أيُّها الذين آمنوا قُوا أنفسَكُم وأهليكم ناراً وَقودُها الناسُ والحجارةُ عليها ملائكةٌ غلاظٌ شدادٌ لا يعصُونَ اللهَ ما أمرَهم ويفعلون ما يُؤمَرُون) .

خطبة للسلطان مولاي سليمان العلوي

في التحذير من بدع المواسم والطوائف الضّالّة

أما بعدُ أيها الناس ، شرحَ اللهُ لقبول النصيحة صدورَكم ، وأصلح بعنايته أموركم ، واستعْمل فيما يُرضيه آمرَكم ومأمورَكم ، فان الله قد استرعانا جماعتَكم وأوجب لنا طاعتَكم ، وحذّرنا إضاعتَكم ، ولهذا نرْثي لغفلتكم وعدمِ إحساسِكم ، ونغارُ من استيلاء الشيطان بالبدع على أنواعكم وأجناسِكم . فألْقوا لأمر الله آذانَكم ، وأيقظوا من نومْ الغفلة أجفانَكم ، وطهِّروا من دَنس البدع إيمانكم ، وأخلِصُوا لله سرّكم وإعلانَكم ، واعلموا أن الله أوضحَ لكم طريق السنة لتسلكوها ، وصرّح

بذم اللهو والشهوات لتملِكُوها ، فامتَثِلُوا أمرَه في ذلك وأطيعُــوه ، واعرفوا فضله عليكم وَعُوه ، واتركوا عنكم بدعةَ هذه المواسم التي أنتم بها مُتَلَبِّسُون ، والضلالَة التي يُزَيِّنُهَا أهلُ الأهواء وَيَلْبِسُون[1] ، افْتَرَقُوا أوْزَاعاً[2] ، وانتَزَعُوا الأموال انتزاعاً وأنفقوها فيما هو حرام كتاباً وسنةً وإجماعا ، وصارُوا يترَقَّبُون لِلَهْوِهم الساعات وتتزاحمُ على حِبال الشيطان وعِصِيِّه[3] منهم الجماعات ، وكلُّ ذلك حرام ممنوع ، والإنفاقُ فيه انفاق في غير مشروع ، فأنْشُدكُم اللهَ عبادَ الله هل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمِّه سيدِ الشهداء مَوْسِماً . ؟ وهل فعل سيدُ هــذه الأمة أبو بكر لسيد الأنبياء ﷺ مَوْسِماً . ؟ وهل تصدَّى لذلك أحدٌ من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين ؟ ثم أَنشُدكُم اللهَ هل زُخْرِفَت على عهد رسول الله المساجد ؟ أوزُوِّقَت أضرِحَةُ الصحابة والتابعين الأماجـد؟ كأنِّي بِكم تقولون في نحو هذه المواسم وزخرفة أضرِحَة الصالحين وغير ذلك من أنواع الابتداع: حسْبُنا الاقتداءُ والاتباع ، (إنَّا وجدْنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون (وهذه المقالةُ قالَها الجاحدون ، وقد ردَّ الله مقالَهم ، ووبَّخهم وما أقالهم ، والعاقلُ من اقتدى بالسلَفِ المهتدين ، أهل الصلاح والدين ، (خيْرُ القرون قَرْني ثم الذين يَلُونَهم ، ثمّ الذين يلونهم .) كما في الحديث ، وبالضَّرورة إنه لن يأتِي آخرُ هذه الأمة بأهْدَى مما كان عليه أوَّلُها ، فقد قُبِضَ رسول

١ – أي يخلطون . ٢ – أي فرقا وهو جمع لا مفرد له .
٣ – يعني وسائله التي يستهويهم بها .

الله ﷺ وعَقْدُ الدين قد سُجِّل، ووَعْدُ الله بإكْمَالِه قد عُجِّل، (اليــومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممْتُ عليكم نعمتي ورَضِيتُ لكم الاسلامَ دِيناً)
قال عمر بنُ الخطاب رضي الله عنه على مِنْبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحضرة الصحابة رضي الله عنهم : أيها الناس قد سُنَّت لكم السُّنَن وفُرِضَت لكم الفرائض، وتُرِكْتُم على الجادَّة، فلا تميلُوا بالناس يميناً ولا شِمالاً، ألَا وإنَّه ليس في دين الله، ولا فيما شَرع نبيُّ الله، أن يُتَقرَّبَ بغِنَاءٍ ولا شَطْح، في فَرَحٍ أو قَرْح، والذكرُ الذي أمر اللهُ به وحثَّ عليــه ومدَح الذاكرين به هو على الوجه الذي كان يفعله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن على طريق الجمع ورفعِ الأصوات على لسان واحد، فهـذه سنة السلَف، وطريقةُ صالِحي الخلف، فمن قال بغير قولهم فلا يُستَمَع، ومن سَلك غير سبيلهم فلا يُتَّبَع، (ومَن يُشاقِق الرسولَ من بعد ما تبَــيَّن له الهدى ويَتَّبِـعْ غَيْرَ سبِيل المومنين نُوَلِّه ما تَولَّى ونُصْلِه جهنَّم وساءَتْ مَصيراً) فما لَكُم يا عبــاد الله ولِهذه البدع؟ أأَمْناً من مَكْر الله؟ أم تَلْبِيساً على عباد الله؟ أم مُنابَذَةً لِمَن النَّواصي بيديه؟ أم اغتراراً بمن الرجوع اليه؟ فتُوبوا واعتبِروا، وغيِّرُوا المناكر واستغفِروا، فقـد أخذ الله بذنب المُتْرَفِين مَن دُونَهم، وعاقَب الجُمهورَ لمَّا أَغْضَوْا عن المنكر عُيونَهم، وساءَت بالغفلة عن الله عُقْبَى الجميع ما بين العاصي والمُداهِن والمطيع، ومَن أراد منكم التقرُّب بصدقة، أو وُفِّقَ لمعروف من اطعام أو نفقة، فعلى مَن ذكر الله في كتابه، ووَعد فيهم بجزيل ثوابه، كذَوِي

الضرورة غير الخافية ، والمَرْضى الذين لستم بأولى منهم بالعافية ، ولا يتقَرَّب الى مالِك النَّواصي ، بالبدع والمعاصي ، بل بما يتقرَّب به الأولياء الصالحون ، والاتْقِياء المُفلِحون ، أكْلِ الحلال ، وقيام الليال ، ومُجاهدَةِ النفس في حفظ الأحوال ، بالأقوال والأفعـال ، البَطن وما حوى ، والرأس وما وَعى ، وآياتٍ تُتلَى ، وسلوكِ الطريقة المُثْلى ، وحجّ وجهاد ، ورعايةِ السنة في المواسم والأعياد ، ونصيحةٍ تُهدَى ، وأمانةٍ تُؤَدَّى وصلاةٍ وصيام ، واجتنابِ مواقع الآثام ، (وأنَّ هذا صراطي مُستقيماً فاتَّبِعُوه ، ولا تتَّبعوا السُّبُلَ فتَفرّق بكم عن سبيله) الصراطُ المستقيم كتابُ الله ، وسنةُ رسوله صلى الله عليـه وسلم وليس الصراطُ المستقيم كثرةَ الرايات ، والاجتماعَ لِلْبَيات ، وحضُور النساء والأحداث وتغيير الأحكام الشرعية بالبِدع والإحداث ، والتصفيقَ والرقص ، وغيرَ ذلك من أوصاف الرذائل والنقص ، (أفمن زُيِّن له سُوءُ عَملِه فرآه حسَناً) في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : يُجاءُ بالرجل يوم القيامة وبين يديه راية يحملُها ، وأناسٌ يتبعونه فيُسألُ عنهم ويسألُون عنـه (إذْ تَبرَّأَ الذين اتُّبِعُوا من الذين اتَّبَعُوا ورأَوْا العذاب وتقطَّعت بِهم الأسباب) فاياكم عبادَ الله ثم ايَّاكم وَهذِهِ البِدَع ، فانها تترُكُ مَرَاسِم الدين خالِيةً خاوية ، والعُكُوفُ على المناكر يُحِيلُ رياضَ الشرائع ذابِلةً ذاوية ، ومن المنقول عن كل المِلَل ، والمشهور في الاواخر والأوَل ، أنَّ المناكر والبِـدع اذا فشَتْ في قوم أحاط بهم سُوءُ كسبِهم ، وأظلم ما بينهم وبـين ربِّهم ، وانقطعت عنهم الرَّحمات

ووقعت فيهم المَثُلَات ، وشحّت السماء ، وغِيضَ الماء ، واستولت الأعداء ، وانتشر الداء ، وجفَّت الضروع ، ونقَصت بَركَةُ الزروع ، لأنّ سُوء الأدب مع الله يفتح أبواب الشدائد ، ويسُدُّ طرُقَ الفوائد ، والأدبُ مع الله ثلاثة ، حفظُ الحرمة بالاستسلام والاتباع ، ورعايةُ السنة من غير اخلال ولا ابتداع ، ومُراقبَةُ الله في الضِّيق والاتساع لا ما يفعله هؤلاء المُتَسَمُّون بالفُقراء ، وكلٌّ ذلك كذبٌ على الله وافتراء . عن العِرْبَاض بن سَارِيَة رضي الله عنه قال وعظَنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم موعظةً ذرَفتْ منها العُيون ووجِلَتْ منها القلوب فقُلنا يا رسول الله كأنّها موعظةُ مودِّع فاعْهَدْ الينا قال أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة ، فانه مَن يعِشْ بعدي فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المَهديِّين من بعدي ، عضُّوا عليها بالنَّواجد ، واياكم ومُحدَثاتِ الامور فان كلَّ مُحدَثةٍ بدعة ، وكلَّ بدعة ضلالة ، وها نحن عبادَ الله أرشدناكم ، وحذَّرناكم وأنذرناكم فمَن ذهب بعدُ لهذه المواسِم ، أو أحدثَ بدعةً في شريعة أبي القاسِم ، فقد سعى في هلاك نفسِه ، وجرَّ الوَبالَ عليه وعلى أبناء جنسه ، وتلَّهُ الشيطانُ للجبِين[1] ، وخَسِرَ الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين (فلْيَحْذَرِ الذين يُخالِفُون عن أمره أن تُصيبَهم فتنةٌ أو يُصيبَهم عذابٌ أليم) .

---

١ — أي أوقعه على وجهه .

خطبة وعظية للعَرَبي الزَّرْهُوني

على حسَب أطوار الانسان وسنيه

عبادَ الله ! ان الله تبارك وتعلى ، كتَب علينا الانتقالَ من هذه الدار، وأمرَنا بالنظر فيها والاعتبار ، والتزودِ منها لدار القرار ، وخالفَ بمقتضَى حِكْمتِه بين مقادير الاعمار ، فمِن مُعجَّل تخْتَرِمُه المنيَّةُ في رَيْعَانِ شبابه ، وعُنْفُوان عمُره ولُبابه ، ومن مُؤَجَّل يُنْسَأ له في أَجلِه ، حتى يستوفيَ ما كُتِب له من رزقه وعَمله ، فالعبدُ لا يدري متى يأتيه حِمامُه ، وتنقضي بوفاته أيامه ، فما أحقَّه واولاده أن يَعمُر اوقاتَه بطاعة مولاه ، الذي خلَقه وسوَّاه ، ليكون يوم لُقْياه من الفائزين . فيا مَن بلغ سِنَّ الاحتلام، وحُطَّت عنه الأقلام ، وتُعبِّد بشرائع الاسلام ، خُذْ نفسك بالاجتهاد في الطاعة ، ولا تطلُب الربحَ بغير بِضاعة ، ولا تفْتَتِحْ عمُرَك بالتفريط والاضاعة ، فتكونَ من الجاهلين . ويا مَن بلَغ العشرين ، لا تَطمَئِنَّ الى ما بَقِيَ من السنين ، ولا تغْتَرِرْ برَوْنَق شبابك ، فانك لا تدري متى يقف المَنُونُ ببَابك ، وتُفرَدُ من بين اصحابك واحبابك ، ويُذهَبُ بك في الذاهبين . ويا من بلغ الثلاثين راجعْ نفسَك عن هواها ، فقد كمُل شبَابُها واستحكمت قُواها ، فأنفِق جديدَ عمرك في الطاعة ولاتركَن الى سِواها، وهَبْ انه قد بقي من عمرك مثلُ ما مضى ، فهل تجدُ لِما فرَّطت فيه من صالح العمل عِوَضا ؟ ففكِّر في امر نفسك وكن لها من الناصحين . ويا من بلغ الاربعين ذهب عنك مُعْظَمُ الايام ، وشرَعْتَ في النقصان بعد

التمام ، فاخلِصْ الى ربك المَتاب ، وقُلْ كما جــاء في الكتاب : « ربِّ أوْزِعْني ان اشكُر نعمتَك التي انعمتَ عليَّ وعلى والِدَيَّ وأن أعملَ صالحاً ترضاه وأدخِلْني برحمتك في عبادك الصالحين » ويا من بلغ الخمسين ذهب اكثرُ عمرك وأطيَبُه ، وبقي أقلُّه وأتعَبُه ، وبدت في رأسك طلائعُ المَشيب ، واوشكت شَمْسُ عمُرك أن تَغيب ، فهل لك ان تُقلِعَ وتُنيب؟ وتَسمع وتُجيب ؟ فما أَقْبحَ العصيانَ بعد المشيب ، وان كان مُستقْبحاً في كل حين . ويا من بلَغ الستّين بلغتَ العُمرَ الذي أعــذر الله فيه الى العباد ، وعزمتَ على السفَر البعيد فأَيْنَ الزّاد ؟ فــتزوَّد التقوى ان الله يحب المتقين . ويا من بلَغ السبعين لمُقْتَرِبِ الآجال فيــك دلائل ، فاغتَنِمْ ما بقي من ايام عمرِك القلائل ، قبل ان تنتقِلَ الى دار البقاء ولم تَحصُل من صالح الاعمال على طائل ، فتُصْبِحَ من النادمين . ويا من بلغ الثمانين عِشْتَ ما قـد كفاك ، وكلَّت جوارحُــك وضعُفتْ قُوَاك ، وأبغَضك من كان يحبك ويهواك ، وذهب عنك حُلْوُ العيش وبقي المرُّ فتأهّبْ للرحيل ، وتهيَّأْ للسفَر الطويل ، واعلم انك عما قريب من الراحلين . ويا من بلغ التسعين وقَفْتَ على ثَنيَّة الوداع ، وأشرَفْتَ على اللّحاق بمن فقدتَ والاجتماع ، فانك وان كنت في الأحياء معدودٌ في الميّتين . ويا من بلغ المِائَة ، وما أظنُّه في هذه الفِئَة ، بلغتَ الغـايَة القُصْوَى من السنين ، وما بعد المائة من بقاء فلا تكن من المغرورين . ويا من غدت سنُّه بين هذه الحدود المحدودة ، والاعداد المعدودة ، إعمَلْ على شاكِلَة

الرحيل ، وتزود للسفر الطويل ، واياك والتَّسْويفَ والتعليل ، خشيةَ ان يأتيك الموت عما قليل ، فتمُوت وانتَ من المفرطين . خطب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال : ايها الناس ! كأنَّ الموتَ في الدنيا على غيرِنا كُتِبَ ، وكأَنَّ الحقَّ فيها على غيرنا وَجب ، وكأَن ما نُشَيِّعُه من الاموات سَفْرٌ عمَّا قليلٍ الينا راجعون نبوِّئُهم أَجْداثَهم ، ونأكُل تُراثَهم ، كأنَّا مُخلدُّون بعدهم . يا أيها الناس اتَّقوا رَبَّكم واخْشَوْا يومًا لا يَجزِي والدٌ عن وَلَدِه ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً ، إنَّ وعدَ الله حق ، فلا تغرَّنكم الحياةُ الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » اللهم اكْتُبنا في دِيوَان من ختَمْتَ لهم بالُحسْنى ، وتمَّمْت لهم الفــوزَ بالرضوان في المقَرِّ الأسْنى ، ووفِّقنا اللهم لطاعتك ، وأعِنَّا على ذكرك وحسن عبادتك ، انك جواد كريم ، رؤوف رحيم .

المُناظَرات

أ - في الدّين

مناظرة ابي عمران الفاسي لفقهاء القيروان

قال عبد الجليل بن ابي بكر الدِّيباجي : جرَتْ عندنا بالقيروان مسألةُ الكفار هل يعرِفُون الله تعلى أوْلا ؟ فوقَع فيها اختلاف كثير وتَنازُعٌ بين العلماء . وكان اكثرَ من يعتني بها رجلٌ مُؤَذِّنٌ يركَبُ حِمارَةً ثم يذهب من واحد الى آخر ولا يترُكُ مُتَكَلِّماً ولا فَقيهاً إلاَّ ويُناظِرُه في هذه المسألة وعظُمتْ حتى كثُر الجدالُ بها في الاسواق .

ثم أَتوْا ابا عمران الفاسي فقال ما بالُكم ؟ قالوا اصلحك الله انت تعلم ان العامَّة اذا حدثَ بها حادث يفزَعُون الى علمائهم ، وانت تعلم ما جرى في هذه المسألة . فقال ابو عمران ان انتم انصفتُم واحسنتُم الاستماعَ اجبتكم . فقالوا نعم . فقال لا يُكَلِّمُني الا واحدٌ منكم . فقصَده ذلك الواحد فقال أَرأيتَ لو انك لَقِيتَ رجلاً وقلتَ له هل تعرفُ ابا عمران الفاسي فقال لك اعرِفُه فقلتَ صِفْه لي فقال هو رجل يبيعُ البَقْلَ والحِنْطَة والزَّيْت في سُوقِ ابنِ هشام ويسكُنُ البَصْرَةَ أكانَ يعرِفُني ؟ قال لا . ثم قال له فلو لَقِيتَ آخرَ وسألته عني فقال لك نعم اعرفه . فقلت صفه لي فقال هو

رجل يُدرِّسُ العلمَ ويُفتِي الناسَ ويسكُن بقُرْب السِّمَاط أكانَ يعرفني؟ قال نعم . قال له والاولُ ما كان يعرفُني؟ قال لا ، قال : فكذلك الكافِر الذي يقول إن للمعبود صاحبةً وولداً وإنه جسمٌ من الاجسام ، فانفصَلُوا عن رأيه.

مُناظرة الخرُّوبي واليَسيثَني والهبْطي
وما عقَّب به اليُوسِي عليها

كتب ابو عبــد الله الخرُّوبي الطرَابُلسِي رسالةً الى اهل فاس يتكلم فيها على القواعد الخمس فجاء فيها قوله اثناءَ الكلام على القاعدة الاولى وهي لا اله الا الله : « ومن الادب ان لا يتناول نفيُك عند النطق بحرف النفي الا ما ادَّعاه المشركون من الآلهة سوى الله تعلى ولْيكُن الحقُ جلَّ جلالُه ثابتاً عندك في حالة النفي والاثبات . والى هذا اشار بعضُ العلماء حيث قال : النَّفْيُ لِما يستحيل كَوْنُه والاثباتُ لما يستحيل عدَمُه ، فنقِمَ الناسُ عليه هذه العبارةَ لِما يلزم عليها من الكذب في الخبر الالهي . وكان اليَسيثَني مفتي الحضرة يومئذ فكتب عليه يقول : ان ذلك لا يصح من أوجه ، الاول انه يخالف ما اتفق عليــه النُّحاة والمتكلمون من ان الاله المراد به الجنس والحقيقة ولا يبنى مع لا إلّا اذا كان كذلك فهو كُلِّيّ ولا شيء مما ادعاه المشركون بِكلّي ، اذ ما يدْعونه ويُعبدُونه جزئيات خارجية مُتشَخِّصة ، الثاني انه لو كان كذلك لكان الاستثناء منقطعا ولا قائِلَ به والاصلُ في الاستثناء الاتصال . الثالث انه ليس فيما ادعــاه

كبيرُ ادب بل الادب ان يكون النفي شاملا لوجود كل إلهٍ يُقدَّ سوى الحق سبحانه على ما قاله النحاة او للمَاهِية لا بقَيْدٍ على ما قاله المتكلمون كما هو معروف في بحثهم مع النحاة حيث يُقيِّدون بالوجود . الرابع ان في كلامه تناقُضاً حيث نقَل عن بعض العلماء ان النفي لمن يستحيل كَوْنُه والاثباتَ لمن يستحيل عَدمُه فان من يستحيلُ كونُه مَفهومُه كلّي لا يُحصَر فيما ادعاه المشركون فان سُلِّمَ هذا الكلام لزِمَه التناقض . وما قاله هذا العالم هو الحقُّ الذي لا شك فيه » وقد اعترض الهَبْطِي كلامَهُما معاً فقال في بيان وجه المُواَخذة على الخرُّوبي : إنه سلَّط النفي على ما ادَّعاه المشركون ، وما ادعاه المشركون ثابتٌ موجود لا يتناولُه النفيُ بالكُلِّية . وقال في وجه المُواَخذة على اليَسيثَني مُخاطِباً له : انكم تعقَّبْتم على الخروبي قصْرَ النفي على ما ادعاه المشركون فقط حتى إنه لو ادخله في جنس الالاه لِيعُمَّ لكان مُسلَّما عندكم . والحقُّ ان جِنسَ الاله المعبود بحق ، غيرُ جنس الاله المعبود بالباطل . اذ كل واحد مُمَيَّز بِحدِّه مُحتوٍ على أفراده .

ولما قال الهبطي ما ذُكِرَ ردَّ عليه اليَسيثَني وشنَّع عليه الناس تشنيعا عظيما في قوله إن معبودات الكفار لا دَخلَ لها في النفي ثم وصلت المسألة الى السلطان وهو محمد الشيخ السعدي فبعث الى الهبطي وعقَد بفاس مجلساً للمناظرة لكنَّ الهبطي لم يشأ ان يدخُل فيها فانفصلُوا على غير طائل ولم تزل المسألةُ مثَار نزَاع شديد بين الطلبة والمؤلفين في التوحيد

حتى تادت الى العصر العلَوي فتصدَّى لها ابو علي اليوسي وبسطَها بما لا مزيدَ عليه من البيان في كتابه القيم « مَناهِج الخلاص من كلمة الإخلاص » .
ونحن نقتَضِبُ من كلامه جُمَلًا نُقرِّر بها معنى ما تقدم ، فانه قال بعد هذا الكلام : واذ قد تعرَّضنا لكلام هؤلاء الائمَّة فلا بد ان نتصفَّحه بعض التصفُّح ونشير الى ما عند كل واحد في كلامه مما لا بد من الاشارة اليه والتنبيه عليه مُعْطِياً إن شاء الله كلَّ ذي حق حقَّه ، ومُعطِياً ايضاً الحقَّ حقه ، فان لُحُوَم العلماء مَسْمُومَة ، والصَّدْع بالحق سُنَّة معلومة . ثم قال :

أما كلام الخروبي فمَوضِعُ الاعتراض منه هو قوله ان النفي لا يتناول الا ما ادَّعاه المشركون من آلهةٍ سوى الله تعالى فانه يظهر انه اراد الآلهة الخارِجيَّة عند المشركين من حَجَر وشَجَر وفلَكَ ونحوِ ذلك فاعترَض عليه اليسيثني بان هذه الخارجية جزئياتٌ ومدخولٌ لا يجِبُ ان يكون كلِّياً إلى آخر كلامه . واعترَضَ عليه الهبطي بان تلك الآلهة الخارجيَّة موجودةٌ فلم يصحَّ نفيُها فان نفيَ الموجود كذِب . وهذا مَبنيٌّ على ان المراد من قوله ما ادعاه المشركون مَصْدُوقُه الخارِجي وليس هذا بواجب أن يُراد، ولا بد ان تعلم انه من الاشياء الضرورية ان كل لفظ واقع على كلِّي كالانسان والفَرس والشجر ونحو ذلك لا بد له من اعتبارَيْن احدُهما مَفْهومُه وهو ما يتصَوَّرُ منه كالحيوان الناطق من الانسان والحيوان الصاهل من الفرس مثلا الثاني مَصدْوقُه وهو ما يقع عليه من الأفراد باعتبار وجود معناه فيه كزيد وعمرو وزينبَ وهندٍ للانسان ، فأما

الأول وهو المفهوم فهو كلي ابداً في نحو هذا وهو مُتَصوَّر في الذهن سواء كان له وجود في الخارج أم لا . وأما الثاني وهو المصدوق فقد يُوَجد للكلي منه واحدٌ وقد يوجد كثير وقد لا يُوجَد شيء اصلاً كالشريك وبَحْرٍ من زِئْبق .

اذا تقرَّر هذا فنقول قول الخروبي ما ادعاه المشركون يحتمل ان يريد به مَصدُوقَه الخارجي كالشجر والحجر وهذا موضع الاعتراض ويحتمل ان يريد به مَفهُومَه وهو مفهوم الشريك الكلي او الشركاء فان المشركين على اختلاف نِحَلِهم وتَبايُن مِلَلِهم من وَثني وفَلكي وثَنوي ومُثَلِّث وغيرِ هؤلاء متفقون على امر واحد هو القَدرُ المشترك بينهم وهو تجويز ان يكون مع الله جلَّ اسمُه وتعالَتْ كلِمَتُه مَن يُشارِكه في استحقاق العبادة ثم لم يقتصروا على هذا التجويز بل حكَمُوا بوجود ذلك غيرَ انهم اختلفوا بعد ذلك فمنهم من يُثْبِتُ شريكا واحداً هو فاعل الشر كالثَّنَوي ، ومنهم من يُثبت اثنين كالنَّصْرَاني المُثلِّث . وهؤلاء غُلاةُ المشركين القائلون بالشَّرِكة في الالوهية الحقيقية . ومنهم مَن لا تنْضَبِط حالُه بل يثبت ما اتفق له مما قام له عليه داع الى الشرِكة وباعثٌ الى العبادة كغيرهم من الوَثنيين والفلَكيين ونحوهم فقد اجتمعوا على اثبات الشريك المستحِقّ العبادةَ في الجُمْلة . وهذ مفهوم كلي من غير التِفَات الى مَصْدُوقَاتِه الخارجية في زعمهم . ولا شك ان هذا المفهوم الكلي قد ادَّعوه كلُّهم ولا اشكال انه هو المنفي في الكلمة المشرفة فيجب ان يكون هو

المعنى في قول ما ادعاه المشركون فلا يبقى على الخروبي اعتراضٌ لا مِن قِبَلِ اليسيثني لان هذا كلي لا جزئيّ ولا مِن قِبَلِ الهبطي لان هذا مَنْفيّ ليس بموجود ولا يصحّ وجودُه . ثم قال :

وقولُ المعترِض إن في كلام الخروبي تناقُضاً حيث اتى بكلام ذلك العالم فان مَن يستحيلُ كونُه مفهومه كلي الى آخره يُقال لهذا المعترض مَن يستحيلُ كونه مفهومه كلي وله مصدوق جزئي وهو معبودُ الكافر بحَسب وصْفه المدَّعى باطِلا فانَّ كونَه مستحقا لأن يُعبَد مستحيل وهكذا كلام الخروبي له مفهوم كلي ومصدوق جزئي فلمَ غلَّبْتَ في كلام هذا العالم رعايةَ المفهوم حتى صحَّ كلامُه وفي كلام الخروبي رعايةَ المصدوق حتى بطَل كلامُه ؟ » ثم قال :

واما كلام اليسيثني فمَوْقِعُ الاعتراض منه قولُه ليس فيما ادعاه ، يعني الخروبي ، كبيرُ ادب بل الادب ان يكون النفي شاملا لكل اله يُقدَّر سوى الحق سبحانه الخ فالظاهرُ منه انه يقول ينبغي للخروبي ان لا يقتصِر بالنفي على ما ادَّعاه المشركون من الآلهة الباطلة بل يجعل النفي مُتوجِّها اليها والى غيرها من كل ما يُقدَّر سوى الله تعالى ، ومَبْنَى الاعتراض عليه أنه اراد ان يضم ما وقع عند الخروبي من الجزئيات الخارجية الى كل ما يُقدَّر ليَعُمَّ النفي فيقعُ الاعتراضُ من جهتين . احداهما ان تلك الجزئيات الخارجية موجودةٌ فلا يصح نفيها . الثانية ان في هذا تهافتاً لانه قال اولا في اعتراضه على الخروبي ان الجزئيات لا يصح

ان تكون مدخولة للا ، لان مدخول لا انما يكون جنساً كليا فكيف استباح هنا ان تدخل هي وغيرُها ؟ ولا يُصَيِّرُها انضمامُ غيرها اليها كليةً بعد اذ كانت جزئية . والجواب عن اليسيثني انه ما أراد إدخال المعبودات الجزئية في النفي من حيث هي كذلك وانما مراده ان الادب هو الخروج عن هذا المسْلَك وتَرْكُ الالتفات الى ذوات المعبودات الخارجية وذلك بان يُجعَل النفيُ مُتَسَلِّطاً على كل إلهٍ يُقدَّرُ في الذهن مستحقاً للعبادة غير مولانا جلّ وعزّ كما صرَّح به من غير التفاتٍ الى ما ادُّعِيَ في الخارج وما لم يُدَّع . ثم قال :

وأما كلام الهبطي فمَوْقِعُ الاعتراض منه هو قولُه إن معبودات الكفار لا دَخلَ لها في النفي ، فان القول بذلك يقتضي انها مُسلَّمة متروكة لم يُتعرَّض لابطالها وان الكفار لم يقع الردُّ عليهم فهم مُقَرُّون على عبادتها واعتقادِ أُلوهِيَّتِهَا مع ان مدلول هذه الكلمة من ابطال كل إلهٍ سوى الله تعالى واثباتِ الألوهية لله تعالى مما عُلِمَ من الدين ضرورةً . ويَحْمِلُ كلامه عندنا وجهان . احدهما انها من حيثُ ذَواتُها اي الحجَر والشجَر والفلَك والنار وغيرُ ذلك لا تُنفَى ، وهذا لا اشكال فيه ويوافق الخصومُ عليه اذ لا إشكال ان الأجرام وكذا الأعراض لا دَخلَ لها في مُستَحِقِّ العبادة المنفي في كلمة الاخلاص . الثاني انها من حيث وصفُها أي كونها آلهةً باطِلةً لا تستحق ان تُعبد ولا ان يُتقرَّب اليها ولا بها لا تُنفَى ايضا . وهذا ايضا صحيح لا شك فيه لان هذا الوصف اعني كونَها آلهةً باطلة لا

تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع موجودٌ لها قائم بها كما هو موجود في اذهان الموحّدين العارفين فلم يَصِحَّ تسلُّطُ النفي عليه من جهتـــين . احداهما انه موجود وكما لا يصح نفيُ الذوات الموجودة كذات الصنم لا يصح نفي وصفِه الموجود له ككونه معبوداً بغير حق وفتنةً ومَضَلَّةً ووبالا. الثانية ان المنفي في كلمة الاخلاص هو المُثْبَتُ بإلّا لِما بعـــدها فلو كان المنفيُّ هو الالوهيةُ الباطلةُ الموجودة في الخارج لكان ذلك هو المثبَتُ لله تعالى عن ذلك علوا كبيرا ، ولـمَّا عُلِمَ عِلْمَ اليقين أن المُثْبَتَ لله تعالى انما هو الالوهية الحَقِّيَّةُ ، عُلِمَ أنها هي المنفية عن غَيْرِه لا الباطِلة .

ب- في الأدبْ

مناظرة مالك بن المُرَحَّل

لابن ابي الربيـع النحوي ، في كان ماذا

وقعت هذه اللفظة في شعر مالك بن المرحـــل فانكرها ابن ابي الربيع وقال : الصواب ماذا كان ، فقال مالك :

عابَ قومٌ كان ماذا ليتَ شِعْرِي لِمَ هذَا

واذا عابوه جهـــلا دُونَ علم كان ماذا ؟

وكثُر النزاع بينهما وألَّف كل منهما في المسألة مُنتصِراً لرأيه . وكان الذي ألّفه مالك كتابا سماه الرَّمْيَ بالحصَى والضربَ بالعصا وجزَّأه ثلاثةَ اجزاء . ولم نقف على شيء مما كتب ابنُ ابي الربيـع . ودُونَك

فصلا مما كتبه ابنُ المرحل فيما يشهد لاثباتِ كان ماذا من الجزء الاول مع اختصارٍ وتصرُّف في بعض الالفاظ لمزيد الايضاح :

ايها القائل :

كان ماذا لَيتَها عدَمُ   جنَّبُوها قُربُها نَدم

ليتني يا مالِ ، لم أرَها   إنها كالنار تضطرم

يقول لك مالك : لا بد لك ان تُصبح من تحتِ طبقٍ على طبَقِ نيران : كان ماذا ؟ « ونادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ علينا ربُّك قال إنَّكم ماكثُون لقد جِئْناكم بالحق ولكنَّ اكثرَكُم للحق كارِهُون »

إلى كم تُقَيِّدُ في كان ماذا تقْييدا بعد تقييد ؟ لقد حصَلْتَ منها في امر شديد . الى كم تُعيدُ فيها وتُبدِئ ، وتَنظِم وتُنشِئُ ؟ غرَّكَ احتمالي لِقَدْحِك ومَزْحك ، وصبْري على أَلَمِ جُرْحك ، حتى قلتَ :

ما لِجُرْحٍ بمَيِّتٍ إيلامُ[1]

انتهزتَ الفُرصةَ في اذاية صَبُور ، ودلاَّكَ حِلمُه بغُرور ، حتى قلتَ :

كلُّ حِلْمٍ اتى بغير احتمالٍ   حجةٌ لاجئٌ اليها اللِّئام[2]

١ – هو عجز بيت للمتنبي ، وصدره : من يهن يسهل الهوان عليه .

٢ – البيت أيضا للمتنبي وهما من قصيدة واحدة .

تاللهِ لَوْ نُهِيَتِ الأُولى لانْتَهتِ الآخرة ، ولم تكن ٱلْفَاقِرَةُ تتبعها الفَاقِرَة ولكن أغضيْتُ على القذَى ، وصبرتُ على الأذى ، حتى قيل لو قَدرَ لانتصَر . واتَّصل الامرُ فصار دَيْدَناً فلا جرم ان أتعقَّبَ كلامَك ، وأَلْفِتَ عليك لَامَك ، فاقول وانما أُخاطِبُ مَن سمِع خطابي ، ونظر في كتابي :

اعلم اعزك الله ان هذا الرجل المشار اليه هو الذي اثار نارَ كان ماذا التي احرقَتْه حتى صاح : ليتني يا مالِ لم ارها . البيتَ ، وذلك انه سَمِع رجلا يُنشِدلي قصيدةً في مَحَلّ كريم جمعني واياه وكان فيها :

واذا عشقتُ يكون ماذا ؟ هل له دَيْنٌ علي فيغتدي ويَروحُ ؟

فقال : لَحنَ هذا الناظم ، لا يُقال كان ماذا ولا يكُون ماذا ولا فَعل ماذا ولا أفعَلُ ماذَا ولا يجوزُ ما كان على هذه الطريقة ولا سُمِع . فاستشهدتُ عليه ببيت الجارية وهو :

فعاتَبُوه فذَابَ شوقاً ومات عِشْقاً فكان ماذا ؟

وبقول الشاعر :

فَعُدَّكَ قد ملكتَ الارض طرّاً ودانَ لك العِبَادُ فكان ماذا ؟

فقال : هذا لَحْنٌ ولا يُحتَجُّ بمثل هذَا . فقلت له : ايراد العلماء لهذا الشعر وقَبولُهم له حجة على جوازه . وهذا كثير . ذكر ابو علي

البغدادي في الذيل من النوادر : انبأنا الزبير حدثنا اخي هارون بسَنَده عن وهب بن مسلم عن ابيــه قال دخلت مسجد النبي ﷺ مع نوْفل بن مُساحِق فمررنا بسعيد بن المُسَيّب فسلمنا عليه فرد ثم قال يا أبا سعيد من أشعَرُ ، أصاحِبُنا ام صاحبكم ؟ يريد عُمَر بْنَ ابي ربيعة وقَيْسَ الرُّقَيات . فقــال له ابنُ مساحق حين يقولان ماذا ؟ قال حين يقول صاحبنا :

خَليلي ما بالُ المَطايا كأنّنا نراها على الأدبار بالقوم تَنْكُص

الابيات . ويقول صاحبكم ماذا ؟[١] فقال له وهْب : صاحبُكم اشعرُ بالغزل وصاحبنا أكثرَ أفانِينَ شعر ، فلما انقضى ما بينهما استغفر سعيدٌ مائةَ مرة يَعُدُّ بالخَمْس .

قال المملوك : رضي الله عن سعيد بن المُسَيّب لم يزد على ان فاوض صاحبَــه في مُباح لم يَجْرِ في كلامه فُحش ولا غِيبَةُ مُسلم ثم استغفرَ الله مائة مرة. هكَذَا هكَذَا وإلّا فلَا لَا .[٢]

اين هذا من الذي قُيِّد فيه ؟ وكَمْ فيهم مِن فَتِيــهِ سُوءٍ خَبيث كثير الأذى والمضرَّة ، يَعِيبُ ويغتاب من غاب عنــه الفا ولا يَستغفِرُ الله مرَّة .

---

١ -- الذي بالتتمة المطبوعة من الذيل والنوادر : ويقول صاحبكم ما شاء .
٢ -- هــذا عجز مطلع قصيدة للمتنبي في سيف الدولة وصدره : ذي المعــالي فليعلون من تعالى .

وحكى ابو علي قال : قُرِعَ بابُ ابن الرّقاع فخرجت بُنَيّةٌ له صغيرة فقالت مَن هاهُنا فقالوا نحن الشعراء قالت وتُريدون ماذا ؟ قالوا نهاجي اباك فقالت تجمَّعتُم من كل أوبٍ ووِجْهَة على واحد ، لازِلْتُم قِرْنَ واحد . قال : فاستحيوا ورجعوا .

قال المملوك . وكذلك حالي الآن بسبتة اجتمع كلٌّ من فيها من اصحابِ هذا الرجل واهلِ بلَده للنقد عليّ ولم يبلغوا ان يكونوا قِرن واحد ، والله المستعان .

واستشهدتُ بحكاية اخرى أخرجها أيضاً في الذيل أولها لما أراد معاوية البيعةَ ليزيد كتب الى مروان وهو والٍ على المدينة ، وفي الحكاية : او تفعلُ كما فعل أبو بكر قال فَعل ماذا ؟ وفيها أو تفعلُ كما فعل عمر فقال فعل ماذا ؟ وبحكاية أُخرى أخرجها ابنُ ظَفَر في كتابه انباء نجباء الابناء اولها بلغني انه لما وُلِد لعبدالله بن جعفر ولدُه معاوية وكان لأم وَلد والحكاية طويلة وفيها من كلام خالد بن يزيد بن معاوية يخاطب عبد الملك ابن مروان بلغني ان الحجاج تزوج الى عبدالله بن جعفر ابنَتَه امَّ كُلثوم فغَضِب عبدُ الملك وقال كان ماذا ؟ ولِمَ لا يكون الحجاج كُفْؤاً لها قال خالد يا أمير المومنين اني لم أُرِد ذلك ولكنَّكَ تعلَمُ انه لم يكن بين بيْتَيْن من بيوت قريش ما كان بيننا وبين آل الزبير ، يعني من العَداوة، فلما تزوجتَ اليهم انقلب ذلك البغض حبا . واستشهدتُ له بشواهد من هذا النوع وانما كان غرضي ان اثبت ان هذا النوع من الكلام قد قيل

وانه فصيح ولم أتعرَّض الى انه على الاتصال ولا على التقـديم والتأخير ولا على الانقطاع فتمادى على الانكار . وقال : لا يحتج بأبي عَليّ البغدادي فلم يكن من اهل الصناعة ولا بابن ظفر . وانما يحتج باهل صناعة العربية . فاستشهدت له بحكاية أُخرى أخرجها العالم الجليل ابو الفرَج الاصبهاني في كتاب الاغاني حيث قال :

يَا دارُ أقفرَ رَسْمُها بين المحصّب والحجُون

وفي آخر الحكاية فكان ماذا ؟ . واستشهدتُ بحكاية أُخرى اخرجها ابنُ قُتَيْبة في عيون الاخبار قال : مرّ اعرابي بمؤذّن وهو يقول اشهد ان محمدا رسولَ الله بنصب رسولِ الله فقال الاعرابي وَيْحَك يفعلُ ماذا ؟ وبحكاية أخرى من الكتاب المذكور قال : وَصعِد اليَرْبُوعي فخطب وقال اما بعد فاني واللهِ ما أدري مَا أَقول ولا فِيمَ أَقمتموني أقولُ ماذا ؟ فقال بعضهم قُلْ في الزَّيْت فقال الزيتُ مُبارَك فكُلوا منه وادَّهِنُوا . وبحكاية أُخرى منه قدم ابنُ جامع مكةَ بخير كثير فقال ابن عُيَيْنة : عَــلَامَ يُعطِي الملوكُ هذا الغلامَ هذه الأموالَ ويحبُونَه هذا الحِبــاء ؟قالوا يُغنّيهم قال يقول ماذا ؟ فهذان رجلان من ائمة العلماء وصناعة العربية قد حكيا في تأليفيهما المشهورين هذه الالفاظ . واستشهدتُ بحكاية أُخرى أخرجها العالم ابو بكر الزُّبَيْدِي وهو من ائمة العربية في تاريخ النحويين واللغويين . حــدَّث بِسَنَده عن العجوري قال : كان ثَعْلَب من الحفظ

والعلم وصدق اللهجة والمعرفة بالعربية ورواية الشعر القديم ومعرفة النحو على مذهب الكوفيين ، على ما ليس عليه احد . وفي الحكاية من كلام ثَعْلب لصِهْره : إذا رآكَ الناسُ تذهب الى هذا الرجل تقرأ عليه يقولون ماذا ؟

قال المملوك فلما بلغه ذلك قال : لا يتَنزّل نطقُهم لهذه الالفاظ منزلةَ نقلِهم . قلت فيظهر من قولك ايها الرجل ان الزبيدي وابن قتيبة وثعلب وابا الفرج الاصبهاني وغيرهم كانوا لحَّانِين ايضا ، فالحمد لله استوى الماءُ والخشَبةَ ولا عارَ على مَن لَحن مع هؤلاء . ثم اوقفتُه على كتاب ألّفه ابو علي المَالَقِي في شرح الُجمل هو بايدي الناس وقد تكلم على ماذا فقال : ومن حُكم مامع ذا ان الالف لا تحذف منها وإنْ دخل عليها حرفُ الجر فتقول بماذا جئت ؟ وعما ذا سألت ؟ ومِن حكمها انها يعمل فيها ما قبلها وان كانت استفهاما ثم قال : ويُقوّي ذلك حديثُ أُمّ حَبيبة حين قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : هل لكَ في بنتِ ابي سفيان فقال أَصْنَعُ ماذا ؟ انتهى كلامه .

قال المملوك : وخُرِّجَ هذا الحديثُ في كتاب البخاري ومسلم والنسائي وابي داود وابن خيثمة . فلما وقف على الجملة أكْبَرها وأعظمها ورأى ان الحديث المذكور تمخّضت عنه بُطونُ الأمّهات الكبار ، ودارت عليه كتائبُ من كتُب الائمة الأخيار ، بين سُمْر القَنا وبيض الشِّفار ، فحصل في امر عظيم ، ووقع في مُقعِد مُقيم ، ثم نظر فرأى ان الطرق

كلها تجتمع في هشام بن عروة ابن الزبير رضي الله عنه فقال هـذا نقله بالمعنى وقـد لَحن فيه فقيل له ولِمَ تقول ذلك ؟ قال : اني لا أراه كان يحسن ادوات النقل وكانت أُمُّه أَمَةً وانفرد بنقل هــذا اللفظ الذي لا يوجد في كلام العرب . فنقل الطلبةُ كلامَه ، وأكبروا جُرْأَته وإقدامَه، فأمِرَ بالتقييد في ذلك لِيُوقَف على كلامـه فاضْطُرَّ الى القول بجواز ذلك وقال : أَمّا أفعَلُ ماذا ، إذَا وَرَد في كلام فصيـح فيجوز على ان تكون ما ذا منقطعةً من أَفعَلُ ويكون التقدير ماذا تريد ومشَى في تقييــده على ذلك . ثم تكلم في بيت الجارية فقــال رأيتُ ابنَ طاهر قد قال انه على الانقطاع . فظهر من كلام هذا الرجل انه لم يكن عنده علم من الحديث ولا من بيت الجارية ولا ان ذلك جائز حتى وقف على كلام ابن طاهر في بيت الجارية بعد وقوع النازلة ، فمِنْ هناك تَدلىَّ وقال ان الحديث يجوز على الانقطاع . وانتَقلْنا ـ بحمد الله ـ مِن أنَّ ذلك لايجُوز البتّة ولا سُمِعَ الى أنه يجُوز على الانقطاع . ومعَ هذا فلم يزل مصمماً على قوله الاول ان الحديث منقول بالمعنى وان ذلك لحن فيــه فانه اورد في تقييده ان النقل بالمعنى جائز ، وهذا الذي ذكر لا يُنازَع فيه انما يُنازَع في انه لحن ، وقد فرَّقَ كلامَه في هشام بن عروة رضي الله عنه في تقييده فاشار في موضع منه انه كان ابنَ أَمَة وان اللحن طرأ عليه من قِبَلِها فقال : رَوى مُسْلِمٌ عن ابن ابي عَتيق قال تحدثتُ انا والقاسم عند عائشة وكان القاسم رُجلاً لحَّانا وكان لأمٍّ ولدٍ فقالت له عائشةُ : مَا لَك لَاتتحدّث كما يتحرك ابنُ اخي

هذا ؟ ثم قالت : أَمَا إِني قد علمتُ مِن أَين أُتِيتَ هذا أَدّبتْه أُمُّه وانت أدبتك أُمُّك . قلت : فهذه اشارة الى ان هشاما كان كذلك الى ما صرَّح به في مجالسه ، وهذا الذي نُقِل عن ابن ابي عتيق رضي الله عنه لم يَعْنِ به اللحنَ الذي هو فساد الاعراب وانما عَنَى به اخراجَ الحروفَ من غير مخارجها ونحوَ ذلك . كما حكي ان اعرابيا قال لعمر رضي الله عنه أَيُطَحَّى بضَبْي ؟ فقال له عمر انما يقال ايضحى بظبي فقال له الاعرابي كذلك نقول او هي لغتنا . وايضا فان القاسم كان صغيرا وعائشة هي ام المؤمنين وانما قصدت بقولها التعليم والتأديب وليس له ان يقول في هشام بن عروة كما قال ابن ابي عتيق في القاسم ولا ان ينزل نفسه منزلتَه في هذا القول .

قلت : وأشار في موضع آخر الى انه كان قليل المعرفة باللسان قال : ومما يستحق الراوي ان تكون عنده جملة صالحة من اللسان حتى لا يتوحَّش من شيء سمع منه واذا رأى منكرا نفَر منه ولا بد ان يتقن جهات الاعراب وابنيةَ الاسماء والافعال . ثم نقل فصلا عن الاصمعي ان اخوف ما اخاف على طالب الحديث اذا لم يعرف اللحن ان يَدخُلَ في جملة قول النبي ﷺ مَن كذَب عليَّ متعمِّداً فليتبوَّأْ مقعَده من النار لانه عليه السلام لم يكن يلْحَن فمَهْما رويتَ عنه ولحنتَ فقد كذبت . قلت : وهذه اشارة اخرى الى ان هشاما لم يكن يُحسِن من ذلك شيئا بحيث انه دخل بمقتضى قوله في الجملة التي تلحنُ فتكذِبُ فتتبوَّأُ مقعدَها من

النار . قلت : وكذلك أشار في موضع آخر الى تضعيفه فقال : ان من المحدثين مَن يُكتَب حديثه ولا يحتَجُّ به . قلت : هذا صحيح في غير هشام بن عروة . قال بعضُ من تكلم في الرجال : ابو الحصين عبيد الله القَدَّاح ليس بالقويّ مكّيّ ضعيف مولىً لبعض اهلها . وقال ابن ابي حاتم سألت ابي عن عبيد الله القداح فقال ليس بالقوي يُكتَبُ حديثه . واما هشام بن عروة فمعَاذَ الله ان يكون من هؤلاء . وهذه نبذة من اخباره وما قيل فيه رضي الله عنه (وذكرها) ثم قال :

فاما قوله وقد انفرد بهذه اللفظة التي لا تُوجد في كلام العرب فباطل قد جاء في حديث آخر ما يشبه هذا ، اخرج الامام ابو الفرج ابن الجوزي رحمه الله في كتابه صَفْوة الصَّفْوة عن أَبي سعيد عن مسلم عن ابراهيم عن هشام الدَّسْتُوَائي عن عطَاء بن السَّائب قال لما استُخْلِف ابو بكر اصبح غاديا الى السوق وعلى رقَبتهِ اثواب ليتَّجِر بها فلقيه عمر وابو عبيدة فقالا له الى اين تريد يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال : السوق ، قالا تصنعُ ماذا وقد وَلِيتَ أَمْرَ المسلمين ؟ قال فمن أين يَطعَمُ عيالي ؟ قالا انطلِق حتى نفرضَ لك شيئا فانطلق معهما ففرضوا له كلَّ يوم شاةً وماكَسُوه[١] في الرأس والبَطْن . وخرَّج ابو داود في كتابه قال : ناموسى[٢] بن اسماعيل قال نا وهب قال نا داود عن عامر عن جابر بن

١ — اى نازعوه فيها . ٢ — اختزال لحدثنا .

سَمُرَةَ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يزال هذا الدين عزيزاً الى اثني عشر خليفة . قال فبكى الناس وضجوا ، ثم قال كلمة خفية فقلت لابي ما قال ؟ قال كلهم من قريش . حدثنا ابن نُفَيْل قال نا زُهَير قال نا زياد بن خَيْثَمة قال حدثني الاسود بن سعيد الهمداني عن جـابر بن سَمُرة بهذا الحديث زاد : فلما رجع الى منزله اتته قريش فقالوا ثم يكون ماذا ؟ قال ثم يكون الهَرْج . قلتُ فقد اشترك هشام بن عروة مع غيره في رواية هذا النوع من الكلام لا فرْقَ بين أفعَلُ ماذا وتَصنعُ ماذا وثُم يكُون ماذا . فلينظر في هؤلاء الرواة كما نظر في غيرهم وليبحَثْ فلعـل فيهم ابنَ أمة فيكون الحديث لَحْناً على مذهبه ، ولعل فيهم مثلَ عبيد الله القدَّاح ، اعوذُ بالله من الجهل والضلال . قلت : ثم إن هذا الرجل لما قهرَتْه الأَدِلة ، ووقف موقف الهوان والذِّلة ، احتاج الى المطالعة فوقف على كلام ابن طاهر في بيت الجارية كما ذكر ، وعلى كلام غيره واضطر الى التقييد في ذلك . فقال وهو يمشي الضَّرَاء[1] ويقف وراء وراء : إنما أنكرت أن يكون ما قبل ماذا عاملا فيها . قال وقد تبين بما لا خفاء معه ان أَفعَلُ ماذا ليس على تقدير ماذا أفعلُ ، وان ماذا منقطعة من افعـلُ . لكن بقي ذكر المعاني التي يأتي عليها الكلام فأقول : يظهر لي في افعَلُ ماذا اذا ورد في كلام العرب انه يكون على سِتَّة أوجه ؛ أحدها أن

---

١ – أي مستخفيا .

تأتي بأَفعلُ لِتُعْلِمَ مخاطَبك بالموافقة ثم تقول ماذا أي ماذا تريد. قلت وإذا أردتَ أن تُخَرِّج البيتَ على هذا الوجه كأَنَّ العاذل قال له إذا عشقتَ يكون كذا ويكون كذا فعــدَّد له ما يطرأُ عليه من المِحَن في الهوى فيقول موافقا له : واذا عشقتُ يكونُ اي يكون ما قُلتَ ثم يقول ماذا ؟ اي ماذا يكون عليّ ؟ الوجه الثاني ان تقول افعَلُ وتسكت على وجه التذكُّر ثم تقول ماذا ؟ الوجه الثالث أن تقول افعَل ؟ على جِهة الانكار وتمثّل بقول ام حبيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لنتحدَّثُ انك تريــد أن تنكِحَ دُرَّةَ بنت أبي سلمة فقال رسول الله ﷺ بنتَ أُمِّ سلمة ؟ الوجه الرابع ان تقول افعَلُ وتحذفُ المفعول تعظيماً للامر وتهويلا . الوجه الخامس ان تقول افعلُ وتحذف المفعول لان الذي بعد ذا يبينه . الوجه السادس ان يكون انتقالا من كلام الى كلام . ثم قال :

واذا جاء افعَلُ ماذا ويفعَلُ ماذا ، فقد يكون على وجه آخر غير الوجوه المذكورة وهو ان يكون المفعول محذوفا كما تقول لانسان يقول لك افْعَلْ معي ما فعل فلان فتقول فعَل ! أي أدري انه فعل شيئاً ولكني لا أعَيِّنُه ثم تسأله عن تعيينه لتنظر في ذلك . ثم قال : وقد يكون على ان تذكر فعَل لتحقّق ما يقال . ومثالٌ من ذلك ان يقول قائل زيد ضرَب فتقول ضرب ! على معنى أَقلت ضرب ؟ ثم قال : فاذا تُتُبِّع كلامُ العرب ومقاصدها في كلامها فيوجد اكثر ممـــا ذكر . قال المملوك : انظر كيف قال أوّلاً انه يكون على ستة اوجه ثم انه زاد وجهين بعد الحصر في ستة اوجه ثم قال

واذا تتبع كلام العرب ومقاصدها في كلامها فيوجد اكثر مما ذكر، فقد صار المنحصِر لا ينحصِر. ثم قال بعد ذلك : ويمكن ان تجعل ما بمنزلة الذي وذا خبر لمبتدا محذوف ويكون بمنزلة قوله تعالى « تماماً على الذي أَحْسَنُ » على قراءة من قرأ أحسن بالرفع ، وذا اشارة والتقدير افعل الذي هو هذا . ثم قال : ويمكن ان تجعـــل ذا بمنزلة الذي وتكون الصلة محذوفة على حسب قوله :

وَكَفَيْت جانِبَها اللُّتَيَّا والَّتي[1]

قلت : انظُر كيف زاد بعد قوله ان الوجوه لا تنحصر وجهَيْن آخرين وهذا كله من قلة التحصيل . ثم انه كر على بيت الجارية فقـــال: واذا نظرتَ الى الوجوه التي ذكرتُ بدا لك في بيت الجارية غيرُ ذلك فأَخْرجَ بيتَ الجارية عن الجواز على تلك الوجوه وضعَّفَ الوجه الذي ذكره ابن طاهر وقال انه ضعيف ومعنى سخيف لانه خال عن رَشاقة ، عار عن لَباقة في كلام له مُفقَّرٍ باردٍ تركته ثم قال : وأما البيت الذي وقع فيه الكلام، وزلَّت بسببه الاقدام ، فلا يشبه بيتَ الجارية لانه قال : وإذا عشقت يكون ماذا ؟ فاذا وقف على يكون وهو قد جعله جوابا لإذا لأَنها لا تخلو من الشرط فقد جعل جمـــلة الجواب لا تُفيد الا ما افادت جملة الشرط.

---

١ – أي الخطة الفظيعة التي تقصر عنها العبارة وتحذف الصلة في هذا التعبير حتى في النثر فيقال بعد اللتيا والتي لقصد الابهام والتهويل .

قلت: هذا اعتراض بليد لم يفهم من البيت إلاّ ما وقـــع في اذنيه فان الرجـــل لا يحسن في الادب شيئا ولا يحسن اغراض الشعراء ولا ما جرى عليه عملهم حتى يفهم . هذا قول حبيب :

أَجِبْ أيُّها الرَّبْعُ الذي أنا سائِلُه

فانه ينظر فلا يرى كلاما متقدماً ولا يسمع قولَ مُخـــاطَب يكون هذا جوابه فيظن ان الشاعر مجنون. قلت : وانا بعون الله أُبين للمبتدئين كيف يُخرَّج البيت الذي فيـــه الكلام عند اهل الصناعة العربية وذلك ان فيـــه :

حقٌّ وان جعل النَّصِيحُ يصيح انا عاشق ، هذا الحديث صحيح
واذا عشقت يكون ماذا هل له دَيْن علي فيغتـــدي ويروح ؟

فكأنَّ الناصح عنَّفه على العشق وعذَله ، وقال له انت عاشق وجعل يصيح وينظر ويسمع فقال حق انا عاشق ، هذا الحديث صحيح ، ثم قال واذا عشقتُ يكون العشق كما تقول وماذا عليَّ فيه؟ ويـــدل على ذلك بعد هذا :

فيه قضاءٌ ؟ لا ولا كفَّارةٌ فأرِحْ فُؤادِي إنَّ قولَكِ رِيح

فقد تبيَّن المعنى وظهر وجهُ التقرير والاعراب على الطريقة في صناعة العربية وصار يكون جوابا لإذَا على رغم من انكره فان المُنْكِر بعيد

من فهم الشعر ومن قوله ، على انه قد تكَتَّبَ[1] وتكلف الشعر بالعَروض على ما تقف عليه ان شاء الله . فان قيل لي هذا مذهبك في البيت قلت نعم ! ويمكن تخريجه على اكثر الوجوه التي فسَّرها هذا الرجل ، بعد تحصيل الفهم لما قبل البيت كما ذكرتُ لك ولا يبعد عندي التقديم والتأخير من غير عمل كما ابيّن للمبتدي ان شاء الله وذلك انك تقول ماذا افعله ؟ ثم تحذف الضمير فتقول ماذا افعل ؟ ثم تقلِبُ فتقول افعل ماذا ؟ ويتبين لك في أن تقولَ أيَّ شيءٍ افعله ؟ ثم تقول أيُّ شيء أفعل ؟ برفع أي ثم تقول أفعلُ أيُّ شيء بالرفع . فكذلك التقدير في يكون ماذا ! والتقديم والتأخير في الكلام كثير ومن ذلك قوله تعالى : « إِنّي لكُما لَمِنَ الناصحين» على احد القولين . وقد قالوا : أصبحتَ كيفَ ؟ علَّقه أبو عليّ الفارسي.

وهذا الكلام مُقْتضَب وانما هو تذكيرٌ للعالِم وتنبيه للنائم والله الموفق

واما حديث النبي صلى الله عليه وسلم اعني حديث ام حبيبة فالتقديم والتأخير عندي فيه هو الصواب لأنّ غير ذلك يبدل معناه ويخرجه عن ظاهره ويطمِسُ حُسْنَه ونُورَ فصاحته . واما سائر ما تقدم فمما يستوي فيه النظر .

قال المملوك : ونظير البيت المذكور قولُ عمر رضي الله عنه للاعرابي الذي انشده :

---

١ – يعني تعاطى الكتابة .

يا عُمرَ الخيرِ رُزقتَ الجنّه أُكسُ بُنيّاتي وأُمّهُنّه
وكُنْ لنا من الزمان جُنّه أُقسِمُ بالله لَتفعَلَنّه

فقال له عمر : فان لم أفعل يكون ماذا ؟ فقال الاعرابي :

إذَنْ ابا حفص لأذْهبنّه

فقال له عمر : واذا ذهبتَ يكون ماذا ؟ فقال الاعرابي :

يَكونُ عن حالي لَتُسْألَنّه يومَ تكونُ الأَعطياتُ هِنّه
ومَوْقِفُ السؤال يَنْتهِنّه إمّا الى نارٍ وإمّا جَنّه

قال فبكى عمر حتى اخضَل لحِيْتَه ودعا بِقَميص فدفعه اليه وقال خذ هذا لأَهوالِ ذلك اليوم لا للشعر . والحكاية رواها ابو علي البغدادي.
والبيت الثاني الذي تقدم وهو :

فعُدَّكَ قد ملكتَ الارض طرا ودان لك العباد فكان ماذا ؟

وقع في حكاية اوردها ائمة الادباء في كتبهم قال جعفر بن القاسم الامير بالبصرة : إني لفي الجامع الاعظم بالبصرة ومعي جماعة يَعِظُونَني اذ وقف عليَّ بعضُ المجانين فقال :

فعدك قد ملكتَ الارض طرا ودان لك العباد فكان ماذا
أَلَسْتَ تصيرُ في لحدٍ ويحوي تُراثَكَ بعدُ ، هَذَا ثُمَّ هذا

ويُنسَبان ايضا لبَهْلول يقولهما لبعض الخلفاء العباسيين وقد لقِيَه في بعض الطرق . ويروى البيت الاخير :

ألستَ تصير في لحد ويَحْثو   عليك التُّرْبَ ، هذا ثم هذا ؟

ورأيتُ في كتاب ابن ظفَر ان هشام بن المغيرة كان بينه وبين العاصي ابن وائل نَبْوَة وكان ابو جهل بن هشام حديثَ السنّ مُعجَباً بنفسه حديداً فمرّ بالعاصي بن وائل وهو في نادي قومِه وابنُه عمرو بن العاص بين يديه وهو طفل فقال ابو جهل كلاماً يتهدده به فلم يُجِبْه العاصي بشيء فقال عمرو لابيه : مالك لا تجيبه ؟ قال أقول ماذا ؟ قال تقول اذا كنتَ يومَك ذَا عاجزا مَهِينا فانت غداً أَعجَز ، ولو كنت تعقِلُ أَلْهاك عن وعيدِك ذا ما به تُنْبَز ، فاستُطِيرَ العاصي سروراً وقال أنت ابني حقا وكان قبل ذلك يفضل غيرَه من ولده عليه .

قلت : والحكايات والاشعار التي وقعت فيها كان ماذا و يكون ماذا ونحو ذلك كثيرة وانما اعود الى ايرادها ، لعلمي انه متمادٍ على انكاره وانما احتاجَ الى القول بالجواز في تقييده على الوجوه التي ذكَر للضرورة ، وما زال عن قوله إن ذلك لحن ولا يزول ابداً .

ج- في السّياسَة

مناظرة المهدي بن تـُومَرتَ لعلماء مراكش

بحضرة علي بن يوسف بن تاشفين

دخل المهدي بنُ تُومَرتَ وأصحابُه الى مراكش وقد جاهرَ بدعوته واسْتَعْلَنَ أمرُه . فذَهب الى المسجد الجامع ولقي هنـاك أمير المسلمين علي بن يوسف فوَعظه وأغلظ له القول ، وكان علي جالساً والوزراء واقفون حوْلَه فقال الوزراء لابن تُومرت سلِّم سلام الخلافة على الأمير ، فقال ابن تومرت وأيُّ أمير ؟ انما أرى جوارِيَ مُنقَّبات . فلما سمع ذلك علي بن يوسف أزال النقابَ عن وجهه وقال صدق ، فلما رآه ابن تومرت قال له الخـلافةُ لِله لا لك ياعليّ ، وتمادَى في وعظه وارشاده وجادل العلماء الحاضرين جميعا .

وقيل انه كان سائراً في الطريق فرأى أختَ علي بن يوسف حاسرةً على عادة قومها فوبَّخها توبيخا وعنَّفها فدخلتْ على أخيها تذرِفُ الدموعَ مما لَحِقَها من اهانةِ ابن تومرت وتقْريعِه. وأصبح العلماء والعـامَّة لا يتكلمون في مراكش الا بأمره ، فجمَع له علي بن يوسف مجـلساً من علماء المغرب والأندلس يَرأَسُهم وزيرُه العلامة مالك بن وُهَيْب فلما التأم المجلس للمجادلة تولَّى الكلام قاضي المَرِيَّة محمـد بن أسود وقال

ما هذه الأقوال التي تُنقَل عنك في حق الملك العادل المنقـاد الى الحق والمُؤثِر لطاعة الله على هواه؟ قال ابنُ تُومَرت ان ما نُقِلَ عني قد قلتُه حقاً ولي من ورائه أقوال أخرى، أما قولُك إن ملككم عادل منقـاد للحق مؤثر طاعةَ الله على هواه، فهذه أقوال تقولونها وتنصرُونه بها مع علمكم بأن الحُجَّة متوجِّهة عليه، فهل بلغك يا قاضي أن الخمر تُبـاع في هذه الديار جِهاراً وأن الخنازير تمشي بين المسلمين وأن أموال اليتامى تُؤكَلُ ظُلْماً وعُدواناً؟ وعدَّد من ذلك جميع المنكرات التي رآها، فلما سِمعَ الملك كلامه ذَرَفتْ عينـاه وأطرَق حياء فسكتَ علمـاء السوء ولم يتكلَّم منهم أحد، فقال مالك بن وُهَيْب وقد فهم نَفْسِيَّةَ ابن تُومرت وأدرك غايته، نصيحتي لك أيها الملك أن تأمُر بسِجْن هـذا الرجل وأتبـاعه وتُنفِق عليهم كل يوم ديناراً لتُكفَى شرهم والا أنفقت عليهم كل خزائِنك ولا يُجدِيك ذلك نفعاً، اجْعَل عليه كَبْلاً قبـل أن تَسمع له طَبْلاً. فوافقـه الملك على ذلك، لكن الوزير ينِّتان بنَ عُمر تدارك الأمر وقال يَقْبُحُ بك أيها الملك أن تَبكي من موعظة رجـل، ثم تسجنه في مجلس واحد، فأصغَى الملك لرأيـه وصَرف ابنَ تُومَرت وسأله الدعاء.

مناظرة السلطان زيدان بن المنصور الذهبي

للشيخ يحيى بن عبدالله بن سِعيد الحاحي

كان للشيخ المذكور دالَّةٌ على زَيْدان بن المنصور بسبب أنـه أعانه

على حرب الثائر أبي مَحَلّي[١] وإنقاذ مراكش من يده فكان بعد ذلك يُراسله وينصحه . وكان زَيْدانُ يتحمَّل من ذلك أمرا عظيماً ، ويُداريه أشدَّ المُداراة . وهذه المناظرة تُعطينا صورةً من الصراع العنيف الذي كان يدور بينهما ، وهو صراع بَيْن الأفكار المجرّدة والواقع السياسي الذي لا يعدَم من الحُجَج ما يُناهض به تلك الأفكار ، ولئن مثَّلت المناظرةُ في شخصية الشيخ المذكور مُعارَضةً سياسية جَرِيئة فانها تُمثِّل في شخصية زيدان حكومةً مُتبصِّرة عظيمة الثقة بنفسها .

(قال الشيخ) في خطابه لزيدان بعد الافتتاح[٢] .

وبعد فالباعِث به اليكم أمور ثلاثة مَدارُها على قوله ﷺ الدينُ النصيحةُ . قِيلَ لِمَن يا رسول الله ؟ قال: لله ولرسوله ولخاصّة المسلمين وعامّتهم ، الأول بيان سبب الرُّكُون اليكم ، الثاني ذكر الحامل على دفع مُناوِئكم ، الثالث ملازمة النُّصح لكم والضجَرُ مما يصدُر من أعوانكم للرَّعية ،

أما الأمر الأول فله أسباب كثيرة منها مُراعاةُ الجناب النبوي

---

١ - هو الفقيه الشيخ احمد بن عبدالله السجلماسي المعروف بأبي مَحَلّي كان أولاً ينتحل طريق التصوف ثم تصدّى للأمر بالمعروف و النهي عن المنكر وثار على السلطة واستولى على سجلماسة وذرعة ومراكش ثم ظَفِر به زيدان بمعاونة الشيخ يحيى بن عبدالله هذا .

٢ – تصرفنا في هذه المناظرة ببعض الحذف والإيصال من غير اخلال بشكلها ولا مضمونها، وذلك رغبة في الاختصار والوضوح .

الكريم في أهل بيته. ورَضِيَ الله عن أبي بكر الصديق القائل: أرقُبوا محمدا في أهل بيته، والقائل: لَقرابَةُ رسول الله ﷺ أحبُّ إليَّ أن أصِلَ من قرابتي.

وأما الأمر الثاني فلِمَا جرى به القَدَرُ من تغلُّب ذلك الانسان المُسلَّط على الرِّقاب والَحريم والأموال، وإدخالِه بتأويلاته البعيدة عن الصواب ما ليس في المذهب حتى تعدَّى ضُروبَ الوَلاة الى سائر الرعية فاضِلِها ومفضولِها، ومَدَّ معَ ذلك يدَ الوعيد المؤكَّد بالأَيْمان الينا في الأنفس والأموال.

وأما الأمر الثالث فهو ممّا دل عليه الكتاب والسنة والاجماع. أما الكتاب فسورةُ العصر قائمةُ البرهان في كل أوَان وعصْر، وقد قال تعالى في قضية كَلِيمه ربِّ بما أنعمتَ عليَّ فلَن أكُونَ ظهيراً للمجرمين، وقال جلَّ من قائلٍ: وتَعاوَنوا على البِرِّ والتَّقْوى، ولا تَعاوَنُوا على الاِثْم والعُدْوَان. وأما السنة فقولُه ﷺ مَن رأى منكم مُنكَراً فليغيره بيده فان لم يقدِر فبِلسانه فان لم يقدر فبقلبه وذلك أضعفُ الايمان، وقد كنا مقتصرين على التغيير باللسان والعِلم بكون التغيير العمَلي اليكم، حتى جذبتمونا اليه ودَللتمُونا بارتكاب أصعَب مَرام عليه، وقولُه مَن أعان على قتل مسلم ولو بشَطْر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيِسٌ من رحمة الله. قال العلامة المَوَّاق: من أعان على عزْل أمير وتولية

غـــيره ولم يأمَنْ سَفْكَ دم مسلم فهو شريك في دمه إن سُفِك ، ثم أتى الحديث المتقدم استعظاماً لذلك الأمر الفظيع ، فإنا لله وإنا اليه راجعون ، على أننا انخدَعْنا بالله حيثُ كتبتَ لنا مراراً وأمَّنْتَ وعاهَــدْتَ ، وكنتُ أتخوَّف من هَــذَا الواقع بأزمُّور وأسَفِي ومَراكُش والغَرْب حتى أتاني القائد عبد الصادق بمُصحف ذكر أنه لسلطان تِلمْسان ، في جِرْم صغير وقال لي أمرني السلطان أن أحلِفَ لك فيه نيابةً عنه علَى بقــائه على العهد فيما بينك وبينه، ومن تأمين كل من أمنتَه ، وامضاء كل ما رأيتَــه صَلاحاً لأمته ﷺ ثم لم أكْتَفِ بذلك حتى أتاني القــاضي وأكَّد كلَّ ما تقدم مُتحمِّلًا عنك بذلك وبعد استقْرارِك في دارك كتبتَ لي كتابا بانك باقٍ على ما تعاهدنا عليه وأنَّ الامور كلها على مِعْيار الشرع - فما راعني الا وقد أُخفِرتُ في ذِمَّة الله وأماني الذي عقدتُه للناس فمِن مَأسورٍ ومُقيَّد ومطْلوب بمال ومَطرُود عن بلده ، واخبارٍ أُخرى تَرِدُ علينا من جهة السواحل ان الناس تُباع فيهـا للعدو دمَّره الله ولم نر من اهْتَبل بذلك ممَّن قلَّدتموه أُمورَ الثغور فلم ندْرِ هل بلغك خبرُ ذلك فتسقُط عنـــا مَلامةُ الشرع او لم يبلغك فأعْلِمْنا لله تعالى لِتَطمئِنَّ قلوبُنا فاني كاتبتُك في ذلك فلم أرَ جواباً فقضَيْتُ والله من الأمر عجَباً .

واما الاجمـــاع فلم نرَ من العلماء من نَهى عن نصيحة خاصَّة المسلمين وتنبيههم على ما يصلُح بهم وبالرعية بل عَدُّوه من الدين لحــديث الدين النصيحة وغيره . وما استشعرناه من امتعاضكم من عدم إلاَنَةِ القــول في

مكاتبتنا لكم ، فما خاطبناكم قطُّ رعياً لذلك ولو بنصفِ ما خاطبَ الائمة الأوَلُ به اهلَ زمانهم اتكالا على مطالعتكم لكتبهم وعلمكم بما لم نعلمه من ذلك . ويكفيكم نصحُ الفُضَيْل بن عِياض وسُفْيان الثَّوْري وإمامِنا مالك رضي الله عنهم لِمعُاصريهم من الولاة ، وفيهم من بَكى وانتفَع ، ومن غُشِيَ عليه وتوجَّع ، ومن ندم واسترجع ، الى غير ما ذكر على اختلاف الاعصار وتنوع الدول ، فبذلك اقتدينا وبما كان عليه اشياخنا واسلافُنــا لكم ولأسلافِكم كالفقيه شيخ والِدنا رحمه الله سيدي عبدالله الهَبْطي لجــدِّكم المرحوم بكرم الله تعالى ، فطمِعتُ في نُجْح النُّصح دُنْيا وأُخرى . فهذا اصلُ قضيتنا معكم وهلُمَّ جرّاً والذكرى تنفع المؤمنين .

(فاجابه زيدان) :

وبعد ، فقدورد علينا كتابكم ففضَضْنا ختامَه ووقَفْنا على سائر فُصوله ثم اننا إن جاوبناكم على ما يقتضيه المقام الَخطابي ربَّما غيَّركم ذلك وأدَّى الى المُباغضة والمُشاحنة . ويُحكى عن عثمان رضي الله عنه انه بعثَ لِعليّ كرَّم الله وجهَه واحضَره عنده والقَى اليه ما كان يجدُ من اولاد الصحابة الذين اعْصَوْصَبُو بأهل الردَّة الذين كان رجوعهم الى الاسلام على يـــد الصدِّيق ، وهو في ذلكَ لا يُجيبه ، فقال له عثمان ما اسكتَك ؟ فقال له : يا امير المؤمنين ان تكلمتُ ما اقول لك الا ما تكْرَه وان سكتُّ فليس لك عندي الا ما تُحِب . ولكن لمَّا لم اجد بُدّا من الجواب أرَى ان

اقدم لك مقدمة قبل الجواب وذلك ان الحجّاج لما ولاه عبـــد الملك بن مروان العراق وكان مِن سِيرته ما يُغنِي اشتهارُه عن تَسْطيرِهِ هنا فتأوّل ابنُ الاشعث الخروجَ عليه وتابعَه على ذلك جماعة من التابعين كسَعيد بن جُبَيْر وامثـــالِه من اولاد الصحابة ولمّا قوِيَ عزمُهم على ذلك استدعوا الحسنَ البَصْرِي رضي الله عنه فقال لا افعل فاني أري ان الحجاج عُقوبةً من الله تعالى فنَفْزَع الى الدعاء أوْلَى. وقد علمتَ ما كان من امر عبـــد الرحمان بن الاشعث وسعيد وامثاله . وقَضِية أهل الحرَّة لمّا أوقع بهم جُنْدُ يزيدَ بن معاوية بالحرَم الشريف[1] ما اوقَع ، ولمّا بلغـــه الخبرُ وهو بالشام انشد :

ليتَ أَخوَالي بِبَدْرٍ شهِدُوا جَزَع الخَزْرَجِ من وَقْع الأَسَل

وشاعَ ذلك عنه وذاع وكان ذلك على عهد أكابر الصحابة واولادِهم فما تعرّض احدٌ منهم للنكير عليه ولا تصدّى للقيام بكلام .

ونَرْجعُ لجواب الكتاب، فأما ما حكيتَ عن الصّديق رضي الله عنه في اهل البيت والاحاديث الواردة في انه يجب احترامُهم وتعظيمهم وتبجيلهم لاجل النبي صلى الله عليه وسلم فان كان يجِبُ عليكم تعظيمهم فانه يجبُ عليَّ مِنْ بَاب أوْلَى ، عملاً بقوله تعالى : « قل لا أسئلُكُم عليه

---

١ – يعنى حرم المدينة المنوّرة .

أجراً الاَّ المودَّةَ في القُرْبى » واجرَى سبحانَه وتعالى عادةَ حُكْمِهِ ما تصدَّى احد لعداوة اهل البيت الا اكبَّه لِوَجْهه . واما ما اوردتُم من احاديث النصح فانّي واللهِ احب ان تنصحني سرّاً وعلانيةً مع زيادة شكري عليها واراها منك مودَّة واعدُّها محبَّة ، ولكنْ افعلُ من ذلك ما اقدِرُ عليه لان الله تعالى يقول : « لا يُكلِّفُ اللهُ نفساً الَّا وُسْعَها » وقد كثُرقولُهم. ولمْ آلُ جُهْداً في كَذا ، لانَّ النفوس الشريفة العلية لا تترُكُ من فعل الخير والجدّ في اكتسابه الَّا ما عزَّ تناولُه وصعُبَ اكتسابُه عليها .

واما ما ذكرتم من امر ابي محلّي وسِيَرِته وما كان تسلَّط عليه لولا ما كان من نُهُوضِكم اليه، أمَا تذكُرُ استنهاضنا لكم المرَّةَ بعد المرة وتكرَّرتْ في ذلك اليكم الرُسل حتى اجبَت اليه وهُوَ أمْرٌ لا تحتاج فيه لإقامة حجَّة غيرَ كونِه خرج من الجماعة ، وقَوْلِه صلى الله عليه وسلم مَن أراد أن يشُقَّ عصاكم فاقتلوه كائناً مَن كان ، والَّا فلو دَخل المُلْكَ من بابه وبايَعه أهلُ الحل والعقد واخذَ ذلك بِوَسائِطَ مثْلَ بَيْعة جدّنا المرحوم التي تضافَرتْ عليها علماء المغرب وأهلُ الدين المشاهير ، ولو كان وَصل لذلك بمثل هذه الوسائط لَمَا وجب حربُه ولا القيامُ عليه بما ذكرْتُم لان السلطان لا ينْعَزِلُ بالفسق والَجوْر ، والَّا فان الصحابة رضي الله عنهم في زَمن يزيد بن معاوية لا يُحصَى عددُهم وما تصدَّى احد منهم للقيام عليه ولا قال بعزْله ، والَّا فانهم لا يُقيمُون على مثل ذلك ولو نُشِرُوا بالمَناشير. واما ابو محلي فبِمُجرَّد قيامه يجبُ عليك وعلى غيرك اعانتُنا عليه لانك في

بَيْعتنا وهي لازمة لك فالطاعةُ واجبة عليك . واعْلَم ان والدَك افضلُ منك بدليلِ ؛ (آباؤكم خيرٌ من ابنائكم الى يوم القيامة) وكان عمُّنا عبدُ الملك رضي الله تعالى عنه وسمَح له على ما كان عليه واشتهَر به اعلاناً . وكان والدُك في دَوْلته وبيعتِه ووفَد عليه ولم يستنكِفْ من ذلك ولا ظَهَر منه ما يخالف السلطَنةَ ولا أنكر عليها ولا تعرَّض لما يسوء ملكَ الوقت ولا سُمِع ذلك منه ، فانْ كان راضيا بفِعْله فهو مِثْلُه وان لم يكن راضيا فما وَجْهُ سكوتِه والوِفادة عليه ؟ واما ما ذكرتُم من أنَّ من اعان على قتل مسلم ولو بشطْر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيِسٌ من رحمة الله ، فهذه حجة عليك لا علينا لأني ما سعيتُ في قتل احد ولا قُتِلَ مَن قُتِلَ الا بأمر القضاة واهل العلم . واعلم انه اذا كان هذا وعيداً في قتل الواحد فما بَالُك بمن يُريدُ فتْحَ باب الفتنة حتى لا يقفَ القتلُ على المائة والمائتيْن والالف والخمسةِ آلاف ونَهْب الاموال وكشْف الحريم وغير ذلك . أمَا تعلمُ انَّ أيامَ فتنةِ ابي محلي قد هلَك من النفوس والاموال بِسبَبها ما لا يُحصي عدَدَه حاسِب . ولا يستوْفي نهايَته كاتب ، وكان ذلك في صحيفتهِ لانه المتسبِّب الأول الفاتح ابواب الفتنة لأنه كان يَقتُل كلَّ من انتمى الينا حتى قُتِل بسببه في يوم واحد بمكان واحد خمسمائة قَتيل ولولا ابو محلي ما قُتِلوا .

واعظمُ في حُرمة النفوس من هذا قولُه تعالى : « مِنْ أجْلِ ذلك ، كتَبْنَا على بني إسرائيلَ أنَّه مَن قَتل نفساً بغير نفسٍ أوْ فَسادٍ في

الأرض فكأنما قتل الناسَ جميعاً » وليس في قول الموّاق ما يُحتجّ به على السلطان وانما تكلم في أصحاب الخُطَط على الترتيب الذي كان على عهده ، مثل اصحاب الشُّرَط كصاحب شُرْطة السُّوق الذي يُنفِّذ عن القاضي وغيرِ ذلك من الولايات . وولايةُ ابي محلي لا تعدُّ ولايةً حتى يُعَدَّ عزلُه عزْلا . وما عند الموّاق وغيره وقفْنا عليه وعرَفناه وتلقّيناه من الشيوخ الجلّة وعرَفْنا ما عند الشافِعية والحنفية ودرسْناه المرةَ بعدَ المرةِ . ولستُ ممن ينطبقُ عليه قولُه عليه السلام : أشقَى النـاس عالمٌ لم ينفَعْه اللهُ بعلمه . ولكن لِماذا تجْنَحُ بقول الموّاق لغَرضك وتجعلُه حجةً ، ولم تُجِبْنا نحن فيما كتَبْنا اليك فيه في يونُس اليُوسِي وقلنا لك قال ﷺ الحرَمُ لا يُعيذُ عاصيا قال : ألابِي هذا ممّا يُحتجُّ به على أهل الزوايا ، فأخبِرْنا عن الوجه الذي منَعته به من الشرع ومتاعُنا عنده وإمَاءُ أهلنا في داره وترتَّب في ذمّته للمسلمين من الأموالِ والدِّماء ما يجِلُّ حصرُه ، فان كنتَ تُريد العدلَ فهلّا عدلتَ فيه ؟ والناسُ خرجتْ على أطوارها واحبّوا الفتنة طلباً للراحة فان كنتَ تُصغِي لِمَقالتهم وإسعافِ شَهَواتهم والتعرُّضِ للسلطان ، فهذا نفسُ خراب العالم .

ورأيتُ أن أقدِّم لك مقدمةً أمامَ هذا ، وإن كانتْ أدبية ، قيل لابْنِ الرُّومي ، وهو علي بن العباس ، لِمَ لَمْ تقُل كعبدالله بن المعتزّ :

كأنَّ آذَرْيونَنَا … والشَّمْسُ فيه كَالِيَه
مَداهِنٌ من ذَهبٍ … فيها بقَايَا غَالِيَه

فاجاب بأنْ قال : هوَ لا يقدرُ أن يقولَ مثلَ قوْلي في وصْف الرّقاقـة :

إنْ أنسَ ، لاأنسَ خبّازاً مررتُ به يدحُو الرّقاقةَ وَشْكَ اللمح بالبصر
ما بين رُؤيتِها في كَفّــهِ كُرةً وبــين رؤيتهــا قَوْرَاءَ كالقمر
إلاّ بمِقْــدار ما تَنْــداحُ دائرةٌ في صَفْحَةِ الماءِ يُرْمَى فيه بالحجر

وقال كلٌّ منا يصِفُ أوَانِيَ بيته ، وربُّ البيت ادرَى بما فيه ، واهلُ مكّةَ أدرى بشِعَابها ، والصَّيْرفيُّ أعرفُ بنقــد الدينار وقضيةُ الخضِر والكَليم صلواتُ الله على نبينا وعليهما السلامُ فيها كِفــايةٌ لمن يعتَبر .. فأخبِرْنا كيفَ تُحِبُّ ان نسلك مع الناس في الغَرْب ، فان كنتَ تُحِبُّ أن نسلُكَ فيهم مسلَكَ مولاي عبد الله[1] فالزمانُ غيرُ الزمان والاسعارُ قــد ارتفعَتْ وبلغت النهاية والله تعالى قد بعث انبياءه وانزلَ كُتبَه بحَسَب ما يقتضيه الزمان وهذا يعرِفُه من خالَط الشرائع والكُتبَ المنزلةَ وأخذَ العلم من أفواه الرجال وأدّبتْه مجالِسُ العلم .

ونحنُ نُلخّصُ لكم الكلام على بعض ما أورد الناسُ في الخراج . أما ما بنَوْا عليه فرْضَه في صدر الاسلام والدول العظام فــلا نُطيل بذكره لشهرته وأمّا في المغْرِب خصوصاً فأولُ مَن فرضه عبدُ المؤمن بن

---

١ – هو عم زيدان ويعرف بالغالب وكانت أيامه في غاية الرخاء .

علي وجعله على إقْطاع الأرض بناءً على ان المغرب فُتِح عَنْوةً واليه ذهب بعضُ العلماء ومنهم مَن يقول ان السَّهْل فُتِحَ عنوةً والجبَل صُلْحاً . فاذا تقرَّر هذا علمتَ ان أهل هذا العصر قد بادُوا واندَثرُوا فيكونُ السهلُ كلُّه لبيت المال وتعيَّن أن يكون الخراجُ فيه على ما يُرضي صاحبَ الأرض وهو السلطان والجبلُ تتعذَّر معرفةُ ما كان الصلح عليه ولا سبيلَ الى الوقوف عليه فيَرجعُ للاجتهاد . وقد اجتهد سلفُنا الكرام رضوان الله عليهم في فَرْضه لأول الدولة الشريفة على وَفْقِ أيمة السنة ومشائخ أهل العلم والدين في ذلك العهد فجرَى الأمرُ على السَّنَن الأقوم الى أن هبَّت عواصفُ الفتنة لايام ابن عمنا صاحب الجبل[1] وازالَه مولانا الامام وصِنْوَهُ المرحوم عن حواضر المغرب وسَهْلِهِ عند الزَّحف بالاتراك ، وامتدت به الفِتنَةُ في الجبل الى أن هلك[2] مع النَّصارى ، دمَّرهُم الله في الغَزْوة الشهيرة وجاءَ الله من مولانا المقدس[3] بالجَبَل العاصِم للاسلام من طوفَان الاهوال فقدَّر رضي الله عنه الاشياءَ حقَّ قدرها ورأى المغرب غِبَّ تلك الفتن قد فغَر الأفواه لانتهابه عدُوَّان ؛ عدوٌّ عظيم من التُّرك ، وعدوُّ الدين الطَّاغِيَة. فاضْطُرَّ رحمه الله الى الاستكثار

١ – يريد به محمداً المتوكل الذي لجأ الى الجبل عند زحف عمه عبد الملك المعتصم على فاس بجيش الترك .

٢ – يعني ابن عمه المذكور .

٣ – أي والده المنصور الذهبي .

من الأجناد لمقاومة الاعداء والذبّ عن الدين وحمايةِ ثغور الاسلام فدعا تضاعُفُ الأجناد الى تضاعُفِ العطاء وتضاعُفُ العطاء الى تضاعُف الَخراج وتضاعُف الَخراج الى الاجحاف بالرَّعية، والاجحافُ بالرعية امرٌ يستنكف رضي الله عنه من ارتكابه ولا يرضاه في سيرةِ عدْله طولَ ايامه، فلم يبق له حينئذ الا أن أمعن النظر في اصْل الخراج فوجد بين السِّعْر الذي بُنِيَ عليه في قيمة الزرع والسمْن والكَبْش الذي تُعطِي الرعيــةُ منذ زمان الفرْض بحسبه وبين سعر الوقت أَضعافاً. فحينئذ تحرَّى العدلَ فخيَّرَ الرعيةَ بــين دفْع كل شيء بوجهِه أو دفع مــا يُساوي سِعْرَ الوقت فاختارُوا السِّعْرَ مخافةَ أن يرتَفِع الى ما هو أكثر فأسعفَهم رضي الله عنه وعرَفَ النــاس الحقَّ فلم يُنكِرْه واحد من أهل الدين ولا من أهـل السياسية. وليتَ شِعْري لو طالبنا نحن الناسَ اليوم بسِعْر الوقت الذي ارتفَع الى أضعافٍ مُضعاعَفةٍ ماذَا تقولون وقد انتقدتُم علينا ما هُو أخفُّ من ذلك؟

وامَّا ما تَقضيه من العجب لتعطيل أجوِبتِنَا عنك حتى نُراجَع منك فان كتابك اكَّدتَ مبناه على قضية أهل أزمور فانفَذْنا مَن أخرج الذي كان به واقصاه عنه وسرَّح من كان عنده فتوقف الجواب حتى يرجـــع الخديم فحينئذ أجبناكم بما وصلكم. وكَوْنُ تعطيل الجواب منشَأه ما منَّ الله به علينا من رجوعنا الى سرير ملكِنا واجتماعنا بأبنــاء أمّتنا فاعْلَم أن أهـــل المغرب لما تمالَؤُوا عليَّ وخرجتُ الى المشرق والتقيتُ بالترك

والأروام وجالسوني وجالستهم وخاطبوني وخاطبتهم ، منهم مُشافهةً ومنهم مُراسلةً ، كنتُ ايام مُقامي بارضهم كمُقامي على سرير ملكي لان كبيرهم وصغيرهم ورئيسهم ومرؤوسهم كان ينتجع فضلي ويمدُّ كف رغبتــه لنعمتي وواسيتُ الجميع عطاءً مُترَفاً مع قلة الزاد والذَّخيرة ، وترفعتُ عن مُراسلة الاماثل والأكابر من العجم والعرب ولم أرْكَن لأحد بل تجردتُ بمـا قدرتُ عليه من الأخْبِيَة حتى جعلت مَحَلَّة برُمَّتِها وَخيْلِها فترامَى عليَّ العجمُ بالرغبة وبسطوا أكفَّ الضراعة في المُقــام عندهم والدخول في جُمْلتِهم وعرضوا عليَّ الإقطاعاتِ السَّنيةَ والبِلادَاتِ الملوكية بلُطف مقال وأدب خِطاب حتى قال القبطان مُراد رئيسُ المجاهدين : وما مثلك يكون مع الغرب ، ها نحن نخدُمك باموالنا وانفُسنا وبمـا لنا من السفُن حيث اردت واحببت وما انفصلتُ عنهم حتى كتبتُ لهم بخطي اني احمِلُ أهلي وحاشيتي وارجعُ اليهم الا ان تمكن لي الدخولُ في الملك والغلبةُ على البلاد وقد قفلتُ من عندهم ولم يتعلَّق ثوبُ عفافي بما يَشينُه معهم ولا مع العَرب ولكن ليس لأحد عليّ منة ولا نعمة إلاّ فضلُ الله تعالى « وكان فضلُ اللهِ عليكَ عظِيماً » .

ثم اني دخلتُ سِجلماسةَ على رغم انف أهلِها وواليها ومنهـا دخلتُ للسوس وجعلتُ وليَّ الله تعالى العارف ابا محمد عبد الله بن مُبارَك واسطةً بيني وبــين اخي حتى اجتمعتُ بأهلي ومالي وبعثَ إليَّ التُّركُ بأحــد

بلكبباش اسمه مصطفى صولحي الى السُّوس راغبين انجاز الوعد فجَنحتُ للمسير اليهم .فرأيتُ الأهلَ والأتباعَ قد عظُم عليهم الأمر واستكبروا الخروج فاسعفتُ رغبتهم في المُقام بالمغرب وشيَّعتُ الرسول قافِلاً الى قومه من سِجلماسة عند الدخول الثاني لها ومُغالَبة اهلِها عليها وعزَّزتُه برسول من عندي إليهم بتُحَفٍ وأموال ورَد بها عليهم مع رُسولهم . ثم اني اقتحمتُ مراكش مع أهل فاس على كثرة عَـدَدِهم وعُدَدِهم وقلّتي ووحدتي وفتحَ اللهُ عليَّ ثم خرجتُ للسوس مرة أُخرى وأوقعتُ بولد مولاي احمد الشريف وجُموعِ مراكش وقد تعصبُوا عليه لانهم شيعةُ جَده ففضَضتُه على رَغْمِهم ونازلتُه بالسَّهْل والحَزْن حتى أمكن الله منه وحكم بيني وبينه . ثم نجم نجم الغَوِيّ ابي محلِّي وغُلِبتُ على الرأي وقد قال مَن هو افضلُ مني مولانا علي كرم الله وجهه لا رأيَ لمن لا يُطاع ، ودخل هذه البلاد وخرجتُ انا للسوس بينما تجتمع لنا قبائلُنا في المكان الذي كان اجتماعهم فيه الى ان بلغتُهم وقصد إليهم ابو محلي فقاتلوه ورَحل عنهم بعد أن اثخَنُوا فيه بالقتل ثم وافيتُهم بالمكان والحرب بيننا سِجَال فهل سمعتم خلال هذه الأحوال كلِّها اني احتجتُ لأحد فيما قَلَّ أو جَلَّ وهذا كله بحيث لا يخفَى عليك ، اللهم إلاّ أن تَعْتَدَّ الوِفَادةَ التي وفدْنا عليك من قبيل الاضطرار والاحتياج فلا نَدْري .

على اني ما قصدتُك لطلب دنيا ، بل لأني كنتُ أسمعُ ما أنتَ عليه من

متانة الدين والصّلاح والاقبال على طاعـة الله والتمسك بسنة رسول الله ﷺ لا غَرْوَ ومَن كان هـذا وصفه جديرٌ بان يُقصَد للدعاء والتبرك ولإصلاح القلب . ولو علمتُ أن ذلك يُعَدُّ ويُظَنُّ انه نوع من الاحتياج والله ما كنتُ لأقفَ على أحد ولو انه يُملِّكني الدنيا بِحَذَافِيرها لأن الخير والشر بيد الفاعل المختار وهو أولى إليه بالاضطرار .

واَمّا سِربي فما تَرَوَّع قط حتى يأمَن . وأمَّا مَن كان في الدار التي ذكرتُم فانما هُم أهلِي ومَتْرُوكُ أعمامي . وأما ما أخبرَكُم به القاضي فكلٌّ ما حَمل عني فهو حَقّ وقَد التزمتُه الى الآن إلّا ما طرأ علينا فيه النِّسيان ذكرونا به فإنَّا لا نخرُج عنه .

واما يمين المصُحَف وأني كنتُ حلفتُ فيه للقائد عبد الصادق فلا واللهِ ما حلفتُ فيه ولا نحلِفُ لأحد الى لقـاء الله . أَمَا علِمْتَ انِّي حضرتُ بيعةَ صاحب المغرب[1] سامحه الله وحضر اولادُ السلطان واستحْلَفهم له إلاّ أنا فانه قال : فلان لا يحلِفُ ولا يَحتاج اليـه فما نأمُره به يفعَلهُ وعظُم ذلك على إخوتي وظَهرتْ في وُجوههم الكَرَاهِيَّة لأجله . ولكن

١ – يعني بيعة أخيه المأمون بولاية العهد أيام أبيهما المنصور .

الذي قلتُ لعبد الصادق احلِف للمرابط[٢] وأنَا أُوفِي لكَ به ومازلتُ على ذلك الى الآن .

واما الامتعاضُ من عدَم إلاَنةِ القول وحُسْنِ الخطاب كما قال الله تعالى : « وقُولُوا للنَّاس حُسْناً » وأنَّك لم تبلُغ ولو نِصْفَ ما خاطب به الأيمةُ رضوانُ الله عليهم أهلَ زمانهم اتكالاً على علمنا به فحسْبِي نُصْحُ الفُضَيل بنِ عِياض وسُفيان الثَّوْري ومالِك بنِ أَنس رضي الله عنهم فهذه المسألةُ حسبي في الجواب عنك والسلام .

٢ – المقصود بالمرابط الشيخ يحيى ولفظ المرابط كثيراً ما يطلقونه على السادة والأشياخ .

الرسائل

أ- السّلطانيّات

توقيع يوسف بن تاشفين
على كتاب الفونش

كتب الفُونش الى يوسف بن تاشفين لمَّا سمع باستدعاء ملوك الطوائف له وعزْمِه على الجوَاز الى الاندلس ، كتابا يهدده فيه ويُغلِظُ له القول ليصرفه عن الجواز فوقّع على ظهر كتابه « الجوابُ ما ترى لا ما تسمع » فعَلِم الفونش انه بُلِيَ برجل يفعل ولا يقول .

كتابه بالفتح في واقعة الزلاّقة الى العُدْوة

أما بعد حمد الله تعالى المتكفّل بنصر أهلِ دينِه الذي ارتضاه ، والصلاةِ والسلامِ على سيدنا محمد أفضلِ رُسلِه وأكرم خلْقِه وأسراه ، فإنّ العدو الطاغِيَةَ لعنه الله لما قرُبنا من حِماه ، وتوافَقْنا بازائه لَقنّاه الدعوة وخيّرْناه بين الاسلام والجزْيةِ والحربِ ، فاختار الحربَ فوقعَ الاتفاق بيننا وبينه على الملاقاة في يوم الاثنين الرابع عشر لرجب وقال الجمعةُ عيدُ المسلمين والسبتُ عيدُ اليهود وفي عسكرنا منهم خلق كثير والأحدُ عيدنا نحن فتفرقنا على ذلك واضمَر اللعين خِلافَ ما شرطناه

وعلِمْنا انهم أهل خدْع ونقض عهود فأخذنا أُهبةَ الحرب لهم وجعلنا عليهم العيون ليرفعوا الينا أحوالهم فاتتنا الانباء في سَحَر يوم الجمعة الحادي عشر من رجب المذكور بان العدو قد قصد بجيوشه نحوَ المسلمين يرى انه قد اغتنم فُرصتَه في ذلك الحين فانتدَبت اليه أبطالُ المسلمين و فُرسان المجاهدين فتغَشَّتْه قبل أن يتَغَشَّاها[1] وتغــدَّتْه قبل أن يتعَشَّاها ، وانْقضَّت جيوش المسلمين في جيوشهم انقِضاضَ العُقــابَ على عَقِيرَتِه ، ووثَبتْ عليهم وُثوبَ الأسد على فَريستَه ، وقصدنا بِرَايتنا السعيدة المنصورة ، في سائر المشاهد المشهورة ، في جيوش لَمتُونة نحوَ الفُونش فلما أبصر النصارى رايَتنا المشتهرةَ المنتَشِرة ونظروا إلى مَراكِبنا المنتَظِمة المظفَّرَة ، وغشيَتْهم بُروقُ الصِّفَاح ، وأظلَّتْهم سحائِبُ الرِّماح ، وزلزلتْ حوَافِرَ خُيولهم رُعودُ الطبول بذلك الفَيَّاحِ ، التحَمَ النصارى بطاغيتهم الفونش وحمَلُوا على المسلمين حَمْلةً مُنكَرة فتلقَّاهم المرابطون بنية صادقــةٍ خالِصة وهِمم عالية فعصَفتِ ريـــحُ الحرب ، ووكَفت دِيَمُ السيوف والرماح بالطَّعْن والضرب ، وطاحت المُهَج ، وأقبــل سيْلُ الدِّماء في هَوَج ، ونزل من سماء الله على أوليـــائه النصرُ العزيز والفرَج ، وولَّى الفَونش مطعونا في إحدى رُكْبَتَيْه ، طعنةً أفقدته إحدى ساقَيْــه ، في خمسمائة فارس من مائة وثمانين الفَ فارس ومائتي الفِ راجِل ، قادَهم اللهُ الى المصارِع والحَتْف

١ – في الاصول فتعشته بالعين المهملة وليس بصواب فان المراد نازلته وغشيته .

العاجل ، وتخلَّص لعنه الله الى جبل هنالك ونظَر النَّهْب والنيرانَ في مَحَلَّتِه من كُلِّ حانب وهو من أعلى الجبل ينظُرها شزْراً ، لم يجِدْ عنها صَبْرا ، ولا يستطِيعُ عنها دِفاعاً ولا لها نَصْرا فأخذ يدعو بالثُّبور والوَيْل ، ويرجو النجاةَ في ظلام الليل واميرُ المسلمين بِحَمْدِ الله قد ثبتَ في وَسط مَراكِبه المظفَّرَة . تحتَ ظلال بنوده المنَشَّرَة منصورَ الجهاد ، موفُورَ الأعداد ، يشكر الله تعالى على ما منحه من نيل السؤال والمراد ، وقد سرَّحَ الغارات في مَحلَّاتِهم تَهْدِمُ بناءَها وتستلم ذخائرَها واسبابَها ، وتُريهِ رأيَ العين دَمارها ونِهابَها ، والفونشُ ينظر اليها نظرَ المغْشِيِّ عليه ويعَضُّ غيْظاً وأسفاً على أنامِل كفَّيْه ، وحين تمت الهزيمة وتتابع الفرار ، عاد رُؤساء الاندلس المنهزمون نحو بَطَلْيَوْس والغار ، وتراجعُوا حذراً من العار ولم يثْبُتْ منهم غيرُ زعيم الرؤساء والقُوّاد ، أبو القاسم المعتمدُ بنُ عبَّاد ، فأتى الى أمير المسلمين وهو مَهيضُ الجناح ، مَريضُ عَناءٍ وجِراح[1] ، فهنَّأهُ بالفتح الجميل ، والصُّنْع الجليل ، وتَسلَّل الفونش تحتَ الظلام ، فارّاً لا يهدأ ولا ينام ، ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق أربعمائة فلم يدخل طليطلة الا في مائة فارس والحمد لله على ذلك كثيراً .

١ – أبلى المعتمد في وقعة الزلاقة بلاء حسنا وأصيب فيها بجروح .

ظهير[١] له في تلقيبه بامير المسلمين وناصر الدين

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ، من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين ، الى الاشياخ والاعيان والكافّة من أهل فلانة[٢] أدام الله كرامَتهم بتقواه ووفّقهم لما يرضاه . سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، أما بعد حمد اللهِ اهلِ الحمد والشكر ، مُيسِّر اليُسْر وواهب النَّصْر ، والصلاةِ على محمد المبعوثِ بنور الفُرقان والذكر ، فإنّا كتبناه اليكم من حضرَتنا العَلِيــة بمراكش حرسها الله في نصف مُحرَّم سنة ستة وستين وأربعمائة وإنّا لمَّا منَّ الله علينا بالفتح الجسيم ، وأسبَغَ علينا من نِعَمه الظاهرة والباطنة وهدانا إلى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم ، صلى الله عليه أفضلَ الصلاة وأتم التسليم ، رأَينا ان نُخَصِّصَ انفسَنا بهذا الاسم لنمتاز به على سائر امراء القبائل وهو أميرُ المسلمين وناصرُ الدين فمن خطَب الخطبةَ العلية السامية فَلْيَخْطُبْها بهذا الاسم إن شاء الله تعالى ، واللهُ وليُّ العدل بمَنّه وكرمه والسلام .

---

١ – الظهير في الاصطلاح المغربي يعني المرسوم الملكي وذلك لان حامله يستظهر به .

٢ – يعني المدينة أو القبيلة .

كتاب عبد المؤمن الى الشيخ محمد بن سعد المعروف بابن مَرْدَنيش صاحب شرق الاندلس

يدعوه الى الدخول في دعوتهم ويظن أنه من انشاء الوزير أبي جعفر بن عطيّة

من امير المؤمنين أيّده الله بنصره، وأمدَّه بمعُونته، الى الشيخ ابي عبدالله محمد بن سعد وفّقه الله، ويسّره لِما يَرضاه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أما بعد فالحمد لله الذي له الاقتدار والاختيـــار، ومنه العَوْنُ لأوليائه والإِقدار، وإليه يُرجَعُ الامرُ كلُّه فلا يَمْنعُ منه الاستبداد والاستئثار، والصلاةُ والسلامُ على محمد نبيه الذي ابتُعِثَتْ بمبعثه الاضواء والأنوار، وعُمِّرت بدعوته الأنجادُ والأغوار، وخَصَم بدعوته الكُفْرَ والكفار، وعلى آله وصحبه الذين هم الكرام الأبرار، والمهاجرون والانصار، والرضا عن الامام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله حين غيَّرَتْه الأغيار، وانْعدمَ الامتعاضُ له والانتِصَار. وهذا - كتابُنا كتب الله لكم نظراً يُرِيكُم المَنْهج ويُلَقِّيكُم الأبهجَ فالأبهج، وآتاكم الله من نعمة الايمان، وعِصْمَةِ الانقياد له والإذْعان، ما تجِدُونَ به اليقينَ والثَّلج - من حضرة مراكش حرسها الله تعالى، ولا استظهارَ إلا بقُوَّته وَحوْلِه، ولا استكثارَ إلاّ من إحسانه وطَوْلِه.

ولما جعل اللهُ هذا الأمرَ العظيمَ رحمةً لِخَلْقه ومَطِيَّةً لِرُقِيِّه وقَرارةً لإقامة حقِّه، وحمَّل حَمَلَته الدعاءَ إليه، والدَّلالةَ به عليه والترغيبَ في

عظيم ما عنده ونعيم ما لديه ، وجعل الإنذار والإعذار من فصوله المستوعبة ، وأحكامه المرتبة ، ومنتجاته المخلصة من الخطوب المهلكة والاحوال المعطبة - رأينا ان نخاطبكم بكتابنا هذا أخذاً بأمر الله تعالى لرسوله في المضاء الى سبيله ، والتحريض على اغتنام النجاء وتحصيله ، وإقامة الحجة في تبليغ القول وتفصيله ، فأجيبوا - رفعكم الله - داعي الله تسعدوا ، وتمسكوا بامر المهدي - رضي الله عنه - في اتباع سبيله تهتدوا ، واصرفوا أعنة العناية الى النظر في المثال والتفكر في نواشيء التغير والزوال ، وتدبروا جري هذه الأمور وتصرف هذه الاحوال ، واعلموا أنه لا عزة إلاّ باعزاز الله تعالى فهو ذو العزة والجلال ، ولا يغرنكم بالله الغرور ، فالدنيا دار الغرور ، وسوق المحال ، وليس لكم في قبول النصيحة ، وابتداء التوبة الصحيحة ، والعمل بثبوت الايمان في هذه العاجلة الفسيحة ، الا ما تحبونه في ذات الله تعالى من الأمنة والدعة ، والكرامة المتسعة والمكانة المرفعة ، والتنعم بنعيم الراحة المتصلة والنفس الممتنعة ، فنحن لا نريد لكم ولسائر من نرجو إنابته ، ونستدعي قبوله وإجابته ، إلاّ الصلاح الأعم ، والنجاح الأتم ، وتأملوا سددكم الله من كان بتلك الجزيرة حرسها الله من أعيانها وزعماء شأنها ، هل تخلص منهم الى ما يوده ، وفاز بما يدخره ويعده ، الّا من تمسك بهذه العروة الوثقى ، واستبقى لنفسه من هذا الخير الأدوم الأبقى وتنعم بما لقي من هذا النعيم المقيم ويلقى ، وأما من أخلد الى الارض واتبع هواه ، ورغب بنفسه عن هذا الامر

العزيز الى ما سِواه ، فقد عَلِم بضرورتَي المُشاهَدة والاستفاضة سُوءَ مُنقَلَبِه ، وخسارةَ مذهبه ومطلَبه ، وتنقَّل منه حادثُ الانتقام اخسرَ ما تنقَّل به ، وحقَّ عليكم ـ وفَّقكم الله وسيَّركم لما يرضاه ـ أن تُحسِنُوا الاختيار ، وتصِلُوا الادِّكار والاعتبار ، وتبتدروا الابتدار ، وما حقٌّ من انقطع الى هذا الأمر الموصول الواصل ، وأَزْمع ما يناله من خيره المحوُز الحاصل ، ان يناله منكم شاغل يشغَلهُ عن مقصودِه ، ويحيط به ما يصرِفُه عن محبوبه ومَوْدُودِه . فقد كان منكم في أمر أهل بَلنسية حين اعلانهم بكلمة التوحيد ، وتعلُّقهم بهذا الامر السعيد ، ماكان ثم كان منكم في عَقِب ذلك ما اعتمدتموه في أمر أهل لَورْقَة ـ وفقهم الله . حين ظهر اختصاصُهم وبَانَ اخلاصُهم ، وليس لذلك وأمثاله عاقبة تُحمَد ، فالخير خيرُ ما يُقصد ، والنجاة فيما يُنْزِح عن الشر ويُبعد ، وانا لنرجو ان يكفَّكم عن ذلك واشباهه نظرٌ موفق ، ومتاع محقق ، ويَجذِبكم الى مُوالاة هذه الطائفة المباركة جاذبٌ يُسعِد وسائق يُرشِد ، والله يمنُّ عليكم بما ينجيكم ويمكن لكم في طاعته أسباب تأميلكم وتَرجِّيكم بمنه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

رسالة من عبد المومن أيضاً الى أهل تلمسان

وهي من إنشاء الكاتب أبي عقيل بن عطية

من أمير المؤمنين أيده الله بِنَصره ، وأمده بمعونته ، الى الطَّلبة الذين بتلمسان وجميع من فيها من الموحدين أدام الله كرامتَهم بتقواه ، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد فالحمد لله الذي وسِعَت رحمته كلَّ شيء على العموم والاطلاق وجمعت عصمتُه أهلَ الاجتماع على طاعته والاتفاق ، وتمت نعمتُه تماما على أبلغ وجوه الانتظـام والاتِّساق ، والصلاةُ على محمد نبيه المُبتَعَث لتتميم مكارم الأخلاق ، وعلى آله الطاهرين وصحبه المتوازرين أولى البَواء الى مَرْضاته والاستباق ، والرِّضى عن الامام المعصوم ، المهدي المَعْلوم ، علَم الأعلام ، وذَخيرة الايمان والاسلام ، وبدر الكمال والتمام ، الطالع بأشرف مطالع الاشراق ، الفارع عند تطاول الرؤوس والأعناق ، الجامع أشتاتَ الفضل وأجناسه على الاستيفاء والاستغراق ، وهذا كتابنا اليكم كتبَ الله لكم فيما خوّلكم النَّماء والزيادة ، ومكَّن في تمكينكم واصلاح شؤونكم الإنالةَ والافادة ، وبسط في أرجائكم ومتعلّقات رجائكم اليُمْن والسعادة ، من حضرة بجَايَةَ حرَسها الله عن أحوال ترتَّب صلاحُها على أفضل وُجوده ، وفُتُوح تتابع افتتاحُها في قريب المعمور وبعيده ، وبَشائر يُنزِّه بِشرها وسَماحُها عن الجَرْي على مُعتاد الدأب المألوف ومعهوده ، وآياتٍ بيِّنات أغنى تجَلِّيها واتضاحُها عن كل برهان وجُحودِه ، نسألُ الله سبحانه عوْناً يُعينُ وينهض ، وعملاً يتخلّص بشكر آلائه الباهرة ويُمْحِضْ ، وقوةً لا تَنتكِثُ بالعجز عن أداء حقوقه ولا تَنتقِض ،

وقد تقدَّم اعلامُكم واصل الله سرورَكم ، وضاعف شَكُوركم بما كان من صُنْع الله تعالى في فتح هذه البلاد التي يسَّر مرامها بحوْله واقْتِداره ، ونوَّر ظلامها بأضواء هذا الأمر السعيد وأنواره ، وصيَّر

أباطِحَها وآكامها مِن مَواطِىء أوليـائه وأنصاره ، وإنَّ أبازكرياء يحيى ابنَ العزيز بالله بنِ المنصور[1] وجميعَ إخوَتِه وقَرابته وخُؤُولته حـين أتاهم الرائِدُ الذي لا يكذِبُ أهلَه ، وانتَحاهم القائد المُبِيحُ وعْرَ المنتحى وسَهْله ، لم يكن لهم بُدّ من التوليّ عن قَرارهم والتخلّي عن أوطـانهم وأقطارهم ، لِأمْرٍ قضى الله فيه لهذا الأمر المبارك بخير قضائه ، وشأنٍ طوَى الخِيرَةَ دَرْجَ تضمُّنِه واقتضائه ، فكَانَ مَأَمُّهم الذي اعتقـدوا مَنعَته وحصانته ، واعتمدُوا ثِقتَه عليهم وأمانته ، بلدَ قُسَنْطينة عمره الله ، لكونه بحيثُ لا ينالُ بقُدرة مخلوق ، وأينَ[2] يستَعلى بامتناعه على كل ملحوظ بعين المحاربة أو مَرْموق ، وكانت جُمَل من عساكر الموحدين حين اختلال الجملة المذكورة فيه ، واعتدادهم في عِداد من يحويه ويؤويه ، بجهة القَلْعة حرسها الله على إثْر فتحها المُيسَّر ، ونيْل أجرها على الوجه المتخيَّر ، فأنهِض منهم بعون الله الى تلك الجهة من رُجِيَ الخيرُ في إنهاضه ، وحُضَّ على خدمة هذا الأمر وأغراضه ، فحِينَ أَمَّ الناهضون المذكورون وفّقهم الله بجهات قسنطينة حرسها الله ، فُتِحَ لهم الفتحُ الذي تقدَّم اليكم بيانُ القول فيه واعرابُه ، وأوردَ عليكم إبداعُ القدَر في تقريبه واغرابُه ، وعلمتم كيف انهزمت له جموعُ الضلال وأحزابُه ، وحلّ الموحدون

---

١ — يعني صاحب مملكة بجاية التي اكتسحها عبد المؤمن في جملة ما اكتسح من بلاد الشمال الافريقي .

٢ — أين هذه ، معطوفة على بحيث قبلها .

هناك وفقهم الله بساحة ذلك القطر وثراه، وغَشِيَه منهم ما غشِيَه وعَراه، وما تُرِكَ القَطا به أن يطْعَم كَراه.

وكان التَّخْيِيم المُلاصِق، والتَّدويم المراهِق، والحق يتجلى، والنصرُ يتولَّى من إظهار الطائفة العزيزة ما يتولَّى، الى أن صرَف اللهُ ألبابَ القوم المذكورين الى قِبْلة الإصابة، وأراهم أن النجاة في جانب هذه العِصابة، والحياة في قرارها الذي هو مقرُّ قَرار اليمن والمثَابة، فاتفق رأيهم على انفاذ جماعة منهم فيهم أخو أبي زكرياء وشيوخ صَنْهاجة وقُسَنْطِينة معتصمين بهذه العُروة الوثقَى، مُسْتَسلِمين للأمر الذي لا يُقابَل بعِناد ولا يُلقَى، سائلين من التأمين والإبقاء ما يدوم خيرُهُ للمحقّ السّائل ويبقى، ووصلت الجماعةُ المذكورة الى هذه الحضرة المحروسة يسعى أملُها بين يديها، ويُعرِّف القصد عما لدَيْها، وأنهَتْ ما تحملتْه من المُخاطبَة، وأمَّته لَها ولمن وراءها من حُسن العاقبة، فمنَّ الله على جميعهم بتيسير مطلَبِهم، واجمال منقلَبِهم، وصدروا الى مُرسِلهم تتهلل أسِرَّتُهم، وتتجمل بحُلَل العافية والنعمة الصافية كَرَّتُهم، فأتوا قومَهم على تطلُّع الى بشراهم، وتمتُّع بطيب ذِكْراهم، وأعلَموهم بالصُّنع الذي عرَّفهم تعظيمَ صُنْع الله وأدراهم، فرأوا أجمعين أن الله سبحانه سنَّى لُهم بفضله غاية ما طلَبُوا، ورزقَهم من حيث لم يحتَسِبوا، ووَهبهم من إيواءِ الفضل وقبوله فوق ما استوْهَبوا، حين لم يكن لهم منجىً إلا الذي نزَحُوا عنه وَهرَبُوا، وفتحوا أبوابَ المدينة المذكورة عند تيقُّن الأمر وتحققه، وتعرُّف سنةِ هذا الأمر المبارك وعظيم خُلُقِه، وخرَجُوا عن آخرهم فَرِحين بفضل

الله ورحمته الواسعة ، مُستَظِلِّين بظِلال هذه الدعوة المُحِيطة الجامعة ، ودَخل القُطر من أُمَناء الموحدين وغُزاتِهم ، ووفَّقهم الله من أَمر بعِمارته ، والاستقرار في قَرارته ، واستقبل أبو زكرياء المذكور ومَن معه وفقهم الله هذه الجهة حرسها الله على أحسنِ حال وأكرم اقبال ، وأتمّ اللهُ نعمتَه بهذا الفتح المحيط ، والصُّنع المبسوط ، اتماما بلَّغ الآمِلَ غايةَ مأموله ، اوالسائِلَ كافَّة مسؤُولِه ، فذلك القُطر هو الطَّرَفُ الأعلى والرابطُ الأحقُّ لأوْلَى ، ورأسُ الجسد الذي استَتْبع بعضه بعضاً واسْتَتْلَى ، وبه انعقدت روابطُ هذا الإقليم العظيم وقواعده ، وفَقَدت ضرَرَ من كان ينوي الضرر فَواقِدُه ، ومعه تَأَتَّى جمعُ شملِه وضَمُّه ، وامساكُ شأنِه كلِّه وعزْمُه ، وبه خُتِمَ كتابُه وكرَمُ الكتاب خَتْمُه ، واللهَ نسألُ بشُكْر هذه النعم المتظاهرة عونا ممدودا ، وحولاً بمَعاقِد المعونة الربَّانية معقوداً وقوةً تلْقَى من حمْدِها الى كل جديد منها جديداً بِمَنِّه . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

توقيعه على رسالة أبي جعفر بن عطية

كان عبد المؤمن قد نَقِم على وزيره أبي جعفر افشاءه لسرّ أفضى إليه به فقَبض عليه ثم نكَبه وقد صدرت من ابي جعفر إليه رسائل استعطاف بليغة يتنصَّلُ فيها من الذنب ويعتذر . فوقَّع عبدُ المؤْمن على إحداها : « الآن وقد عصيتَ قبلُ وكنتَ من المفسدين » .

رسالة أبي حفص الهنتاتي الى عبد المؤمن بالفتح

في ثورة ابن هود ، وهي من انشاء الوزير ابي جعفر بن عطية

كتابُنا هذا من وادي مَاسّة بعد ما تجدّد من أمر الله الكريم ، ونصره تعالى المعهود القـــديم ، (وما النّصرُ إلا من عند الله العزيز الحكيم ،) فَتْحٌ بهَر الأنوارَ اشراقاً وأحدق بنفوس المؤمنين إحداقاً ، ونبّه للأماني النائمةِ جُفونا وأحداقا . واستغْرقَ غـــايَة الشكر استغراقا ، فلا تُطيقُ الالسُنُ لِكُنْه وصفه إدراكاً ولا لَحاقا ، جمَع اشتاتَ الطلب والأرب ، وتقلَّب في النعم أكرم مُنقلَب ، وملأ دِلاءَ الأمل الى عَقْدِ الكَرب[1] .

فتــــحٌ تفتَّحُ أبوابُ السماء له وتبرُزُ الارض في اثوابها القُشُب

وتقدمت بِشارَتُنا به جُملةً ، حين لم تُعطِ الحال بشرحـــه مُهْلَة : كان اولائك الضالُّون قد بطِرُوا عدوانا وظلما ، واقتطعوا الكُفر معنىً واسْما ، وأملَى الله تعالى لهم لِيزْدادُوا إثْما ، وكان مُقدَّمُهم الشقِيُّ قـــد استمال النفوس بخُزَعْبِلاته واستهوَى النفوس بِجُهولاته ، ونَصَب له الشيطان من حِبالاته ، فأتته المُخاطباتُ من بُعْدٍ ومن كَثَب ، ونسَلت إليه الرُسُل من كل حدَب ، واعتقدته الخواطِرُ اعجبَ عجَب . وكان الذي قادَهم الى

[1] – الكرب حبل يصل ما بين الرشاء والدلو فاذا وصل المــــاء الى عقده فذلك غاية الامتلاء ، وهذا مثل .

ذلك ، وأوردَهم تلك المهالِك ، وصولُ مَن كان بتلك السواحل ممن ارتسَم برسم الانقطاع عن الناس فيما سلَف من الأعوام ، واشتغل على زعمه بالقيام والصيام آناءَ الليل والأيام ، لَبِسوا الناموسَ أثوابا ، وتدرَّعوا الرياءَ جلبابا ، فلم يفتَح اللهُ تعالى لهم للتوفيق بابا .

ومنها في ذكر الثائر المذكور[1]

... فصُرِعَ بحمدالله تعالى لِحينِه، وبادرتْ إليه بَوادِرُ مَنُونِه ، وأَتَتْه وافِداتُ الخطايا عن يَساره ويمينِه ، وقد كان يدَّعي انه بُشِّر بأن المنية في هـذه الأعوام لا تُصيبه والنوائب لا تَنُوبه ، ويقول في سواه قولًا كثيرا ويختَلِقُ على الله إفْكا وزُورا ، فلما رأوْا هيئةَ اضطجاعِه ، وما خطَّته الأَسِنَّةُ في أعضائه وأضلاعِه ، ونفَذ فيه من أمر الله تعـــالى ما لم يقدِرُوا على استرجاعِه، هُزِمَ من كان لهم من الأحزاب ، وتساقَطوا على وجوههم تساقُطَ الذُّباب ، واعطوا على بَكْرةِ أبيهم صفَحاتِ الرِّقاب ، ولم تَقْطُر كلُومُهم الاَّ على الأعقاب فامتلأَت تلك الجهـــات باجسادِهم ، وآذَنَت الآجالُ بانقراض آمَادِهم ، واخذَهم الله تعالى بكُفْرِهم وفسَادِهم، فلم يُعايَنْ منهم إلاَّ من خرَّ صريعاً وسقَى الأرضَ نجيعا ولَقِيَ من أمر الهِنْدِيَّات فظيعا ، ودعت الضرورة باقِيهَم الى الترامي في الوادي . فمَن

---

١ — لم نر من ذكرها كلها فاقتصرنا على ما ذكروه منها .

كان يؤمّلُ الفرار ويرتجيه ، ويسبَحُ طامعا في الخروج الى ما يُنجّيه ، اختطفته الأسِنَّةُ اختطافا ، واذاقته موتا زُعافاً ، ومَن لجَّ في الترامي على لُجَجِه ، ورام البقاء في ثَبَجِه ، قضَى عليه شرَقُه ، وألْوَى بِذَقَنِه غَرَقُه ، ودخل الموحدون الى البَقِية الكائنة فيه يتناولون قتْلَهم طعْناً وضَرْبا ، ويُلقُّونهم بامر الله تعالى هوْلاً عظيماً وكَرْبا ، حتى انبسطت مُراقَاتُ الدّماء ، على صفحَاتِ الماء ، وحكَت حمرتُها على زُرقَتِه حُمْرةَ الشفق على زُرْقةِ السماء ، وجرت العِبرةُ للمعتبِر ، في جَرْي ذلك الدم جَرْي الأبحُر .

توقيع المنصور الموحدي على كتاب الفونش

كان المنصور الموّحدي حسنَ التوقيع جدا يضرب به المثل في ذلك وكتب إليه الفونش حين كان يستعِدُّ لغزْوَة الأرْك الشهيرة يتوعده ويهدده ويطلب إليه أن يبعث بقِطَع من اسطوله ليجُوزَ هو الى محاربته في عُقْر داره ويكْفِيه مَؤُونَة الحركة فلما وصل كتابه الى المنصور مزّقه وكتب على ظهر قطعة منه « إرْجعْ إليهم فلنأْتِيَنَّهُم بجنود لا قِبلَ لهم بها ولَنُخرِجَنَّهُمْ منها أذِلّةً وهم صاغِرُون » ثم كتب « الجوابُ ما ترى لا ما تسمع » وانشد متمثلا :

ولا كُتْبَ إلّا المَشْرَفِيَّةُ والقَنَا ولا رُسُلٌ إلّا الخَمِيسُ العَرَمْرَمُ[١]

---

١ – البيت للمتنبي ، والمشرفية السيوف والقنا الرماح والخميس العرمرم الجيش الكثيف

توقيـع آخر له

طلب يوماً من قاضيه ان يختار له رُجلَيْن لِغَرضَيْن من تعْليم ولد وضَبْطِ أمرٍ فعرَّفه برُجلَيْن قال في أحدِهما : هو بَحْرٌ في عِلْمه وقال في الآخر : هو بَرٌّ في دِينه . ولمَّا خرج المنصور احضرهُما واختَبرهُما فقصَّرا بين يَدَيْه واكذَبا الدعوى فوقَّع المنصور على رُقْعَة القاضي « اعوذُ بالله من الشيْطان الرَّجيم ، ظَهر الفسَادُ في البَرِّ والبَحْر »

رسالة للمأمون الموحدي من انشائه

في الاعلان بابطال دَعْوى المهدي وعِصْمته

من عبدالله ادريس أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين الى الطلَبة والاعيان والكافَّة ، ومَن معهم من المؤمنين والمسلمين ، أوْزَعهم الله شكرَ نعَمه الجسام ، ولا أعدَمهم طلاقة أوُجــه الأيام الوِسَام ، وإنَّا كتبناه اليكم كتب الله لكم عملا مُنقادا ، وسعدا وقَّادا ، وخاطرا سليما ، لا يزال على الطاعة مُقيما ، من مراكش كلأَها الله تعالى وللحق لسان ساطع ، وحكم قاطع ، وقضاء لا يُرَدّ ، وباب لا يُسَدّ ، وظِلال على الآفاق ، تمحو النّفاق ، والذي نوصيكم به تقْوَى الله والاستعـانةُ به ، والتوكلُ عليه ، ولتعلموا أننا نبذنا الباطل وأظهرنا الحــق ، وأن لا مهديّ

إلا عيسى بن مريم ، الناطق بالصِّدْق ، وتلك بدعة قد أزلناها ، والله يُعِيننا على القلادة التي تقلَّدناها ، كما أزَلْنا لفظَ العِصمة عمن لا تثبُت له عصمَة ، وأسقطنا عِنه وَصْفَه ورسْمَه ، وقد كان سيدنا المنصور رضي الله عنه[1] هَمَّ أن يصدَع بما به الآن صدعْنا ، وأن يرقَع للأمة الخرْق الذي رقَعْنا ، فلم يساعده لذلك أملُه ، ولا أجَّلَه إليه أجلُه ، فقدم على ربه بصدق نيّة ، وخالص طوية ، وإذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصَّحابة ، فما الظنُّ بمن لا يدري بأيّ يدٍ يأخذُ كتابَه ، أفّ لهم قد ضلوا وأضلُّوا ، وسقَطوا في ذلك وزَلُّوا ، اللهم اشهد أننا تبَّرأنا منهم تبرُّأ أهل الجنة من أهل النار ، ونعوذُ بك من أمرهم الرَّثيث ، وفِعْلهم الخبيث ، لأنهم في المعتقد كفار ، والسلام على من اتبع الهدى واسْتقام .

رسالة أُخرى له من انشائه أيضا

في توبيخ أهل أندُوجَر[2] على تخلُّفهم عن قتال العدو

الى أهل الجماعة والكافّة من فلانة ، وقَاهم الله عثراتِ الألسنة ، وأرشدهم الى مَحْو السيئة بالحسنة .

أما بعد ، فانه قد وصل من قِبَلكم كتاب وجَّهَ لكم أسهُمَ الانتقاد ،

١ – يعني والده المنصور الموحدي .

٢ – مدينة صغيرة بناحية قرطبة .

من جميع الأشهاد ، ورَماكم بالدَّاهية الدَّهياء ، والدَّاء العَياء ، أتعتذِرُون من المَجال بضُعْف الحال ، وقِلَّة الرجال ، لِنُلْحِقَكُم برَبَّات الحِجال ، كأنَّا لا نعرِفُ مَناحِيَ أقوالكم ، وسوءَ تقلُّبِكُم في أحوالكم ، لا جَرَم أنكم سمعتم بالعــــدو قصمه الله ، وقَصْدِه ذلك الموضعَ عصمَه الله ، فطاشت قلوبكم خوَراً ، وعاد صفوُكم كدَراً وشمَمتُم ريحَ الموتِ ورْداً وصَدرا ، وظننتُم أنكم أُحيط بكم من كل الجوانب ، وأن الفَضاء قد غُصَّ بالتفاف القَنا ، واصطفاف المقَانب ، ورأيتُم غيرَ شيء فحسبتموه طلائعَ الكَتائِب[١] ، تبّاً لِهممكم المنحطة ، ولِشيَمكم الراضيــــة بأدْونِ خُطة ، أَحِينَ نُدِبتم الى حماية اخوانِكم ، والذبّ عن كلمة ايمانكم ، نسَّقْتُم الأقوالَ وهي مكذوبة ، ولفَّقتُم الأعذار وهي بالباطل مَشُوبة ، لقد آن لكم أن تتَبدَّلوا حَمْل الخُرْصان ، بمغَازِل النِّسْوان ، فمـــا لكم ولِصَهوات الخُيول وانما على الغانيات جَرُّ الذيول[٢] ، أتظهرون العنـــاد تصريحا وتلويحا وتظنُّون أنكم اذا تفرقتم لا نجمع لكم شَتاتا ولا نُدنِي منكم نُزوحا ، أينَ المَفَرّ وأمرُ الله يدرككم ، وطلبُنا الحثيث لا يتركُكم ، فأميطوا هذه النزعة النِّفاقية عن خواطركم قبل أن نمحوَ بالسيف أقوالَكم

---

١ — هذا مأخوذ من قول المتنبي :

وضاقت الأرض حتى كان هاربهم   اذا رأى غير شيء ظنه رجلا

٢ — هو من قول عمر بن أبي ربيعة :

كتب القتل والقتال علينـــا   وعلى الغـــانيات جر الذيول

وأفعالكم ، ونستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ، ونحن نُقسِمُ بالله لو اعتسفتم كلَّ بيداءَ سَمْلَق[1] واعتصمتم بأمنع معقِل وأحفل فَيْلَق، ما وَنينا عنكم زمانا ، ولا ثَنَيْنا عن استئصالكم عِنانا ، فلا يغرَّنكم الامهال ، أيها الجهـال ، فأدْوَاءُ الأهواء بالسيف تَنْحسِم ، واذا رأيتُم نيوبَ الليث بارزةً فلا تظنون أن الليث يبتسم ، فان كفاكم صرِيرُ الأقلام وإلاَّ شَفاكم طَرِيرُ الُحسام، والسلام، على من استقام.

توقيـــع له

رفعت امرأة اليه رقعةً تشكو فيها بجندي نزل دارها وآذاها فوقع عليها : « يُخْرَجُ هذا النازل ولا يُعوَّض بشيء من المنازل » .

رسالة للأمير سليمان الموحدي من انشائه

الى ملك السودان ينكر عليه تعْوِيقَ التجار

نحنُ نتجاور بالإحسان ، وان تخالَفْنا في الأديان ، ونتَّفق على السيرة المرضية ، ونتألف على الرفق بالرعية . ومعلوم أن العدل من لوازم الملوك في حكم السياسة الفاضلة، والَجوْر لا تُعانيه الا النفوس الشريرة الجاهلة، وقد بلغنا احتباسُ مَساكينِ التجـار ومنعُهم من التصرف فيما هم بصدده ،

---

١ – السملق : الأرض المطمئنة المستوية .

وتردُّد الجلاَّبة الى البلَد مفيد لسكانها ومعين على التمكين من استيطانها ، ولو شئنا لاختَبسْنا مَن في جهتنا من أهل تلك الناحية ، لكنَّا لا نَستصوِبُ فعلَه ، ولا ينبغي أن ننهَى عن خلق ونأتي مثلَه ، والسلام.

توقيع له

وقَّع الى عاملٍ له كثرت الشكاوى منه « قد كثرت فيك الأقوال ، واعضائي عنك رجاءَ أن تتيقظ فتنْصَلِح الحال ، وفي مبادرتي الى ظهور الانكار عليك نسبةٌ الى شر الاختيار ، وعدم الاختبار . فاحذر فانك على شفَا جُرُفٍ هَار » .

كتاب السلطان ابي الحسن المريني الى الملك الناصر محمد بن قلاوُون

صاحب مصر ، في شأن ركْب الحاج المغربي والمصحف الذي خطَّه بيده ووقَفه على الحرم النبوي الشريف

من عبد الله علي امير المسلمين ، ناصر الدين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ملك البرَّين ، مالك العُدْوَتين[1] ، ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ملك البرَّين ، وسلطان العُدْوَتين ، ابي سعيد ابن مولانا امير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ملك البرين ،

١ – يعني بالبرين المغرب الأقصى والأدنى وبالعدوتين المغرب والأندلس .

وسلطان العدوتين ابي يوسف يعقوب بن عبد الحق ، منح الله التأييـد مقامَه ، وفسحَ لفتح مَعاقِل الكفر وكَسْر جَحافِل الصُّفْر اياَمه .

الى السلطان الجليل الكبير الشهير العادل الفاضل الكامل الكافـل الملك الناصر المجاهد المرابط المؤيَّـد المنصور الأسعد الأصعد الأرقى الأوفى الأمجد الأنجد الأفخم الأضخم الأوحـد الأوفى ناصر الدين عاضِد كلمة المسلمين ، مُحْيِ العـدل في العالَمين ، فاتح الامصار ، حائزَ ملك الاقطار مفيد الاوطار ، مبيد الكفار ، هازم جيوش الأرمن والفرَنج والكُرْج والتَّتار ، خادم الحرَمين غيْثُ العُفاة غَوْث العُنـاة مُصرِّف الكتائب مُشرِّف المواكب ، ناصر الاسلام ، ناشر الاعلام ، فخر الانام ، ذخر الايام ، قائد الجنود ، عاقد البنود ، حافظ الثغور ، حائط الجمهور ، حامي كلمة الموحدين ابي المعالي محمد بن السلطان الجليـل الكبير الشهير الخطير العادل الفاضل الكافل الكامل الحافظ الحافل المؤيد المكرم المبجل المكبَّر الموقَّر المعزَّر المعزَّز المجاهد المرابط المثاغِر الأوحـد الأسعد الأصعد الأوفى الأفخم الأضخم المقدس المرحوم الملك المنصور سيف الدنيا والدين ، قَسيم امير المؤمنين ، ابقى الله مُلكَه موصولَ الصولة والاقتدار ، مَحمِيَّ الحوْزَة حاميا للدّيار ، حميد المآثر المأثورة والآثار ، عزيز الاوليـاء في كل موطن والانصار ، سلام كريم ، زاكٍ عميم ، تشرق إشراقَ النهار صفحاتُه ، وتعبَق عن شذا الروض المعطار نفَحاتُه ، يخصُّ إخاءَكم العلي ، ورحمةُ الله وبركاته .

اما بعد حمد الله الذي وَسِع العباد مَنّا جسيما وفضلا جزيلا ، والهمهم الرشاد بان ابدى لهم من آثار قدرته ، على مقدار وَحدته ، بُرهانا واضحا ودليلا ، وألزم أمةَ الإسلام ، حجَّ بيته الحرام ، مَن استطاع إليه سبيلا ، وجعل تعظيمَ شعائره من تقوى القلوب ، ومَثابات مَحطّ الأَوزار والذنوب فما أجزلَ نعمتَه منيلا ، وأجملَ رحمةَ ربه مَقيلا . والصلاةِ والسلامِ على سيدنا ومولانا محمد المصطفى من افضل العرب فَصيلة ، في اكمل بقاع الأرض فضيلة ، واكرمها جُملةً وتفصيلا ، المُجتَبى لختم الرسالة، وحسْم ادواء الضلالة ، فأحْسَبَ[1] اللهُ به النبوةَ تتميما والرسالة تكميلا ، المخصوص بالحوض المورود ، والمقام المحمود ، يوم يقول الظالم (يا وَيْلتَى لَيْتَني لم اتَّخِذ فُلاناً خليلا ،) المبوَّإ من دار هِجْرته ، ومَقرّ نُصرته ، محلّا ما بينه وبين مِنْبَرِه فيه روضةٌ من رياض الجنة لم يَزَلْ بها نَزِيلا[2] ، والرضى عن آله الابرار ، واصحابه الاخيار ، الذين فضَّلتهم سابقةُ السعادة تفضيلا ، وأمهَلتهم العناية بأمر الدين إلى أن يُوسِعوا الاحكام برهانا ودليلا ، فإنّا نُحيط علمَ الإخاء الاعزّ ما كان من عزم مولاتنا الوالدة قدس الله روحها ونور ضريحها ، على اداء فريضة الحج الواجبة ، وتوْفِيَتِه مَناسِكه اللازِبة فاعترض الحِمام ، دون ذلك المرَام، وعاقَ القدَر ، عن بلوغ ذلك الوطر ، فطُوِي كتابُها ، وعُجّل الى مقرّ

---

١ – أحسبه أعطاه فأكثر .

٢ – فيه اشارة الى الحديث : ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة .

الرحمة بفضل الله مثابُها ، وعلى الله اجرُها ، وعنده يُحتسب ذُخرُها ، وان لدينا من نوجبُ اعظامَها ، ونقيمها بحكم البرّ مقامَها ، وعزمُها الى ما أملته مصروف ، وأملُها الى ما كانت أملته موقوف ، وهي محلّ والدتنا المكرَّمةِ المبرورةِ الأثيرةِ الموقَّرة المبجَّلة المفضلة المعززة المعزَّرة المعظمة المطهَّرة أسنى الله مكانَتها ، وسنَّى من هذا القصد الشريف لُبانَتها ، وقد شيَّعناها الى حج بيت الله الحرام ، والمثول بحول الله تعالى ما بين زَمْزَم والمقام ، والفوز من السلام على ضريح الرسالة ، ومثابة الجلالة ، بنَيْل السؤل والمرَام ، لتظفر بأملها المرغوب وتنفر بعد اداء فرضها في كرم الوُجوب .

وحين شخَص لذالكم الغرض الكريم مَوكبُها ، وخلَص إلى قصد الحرم العظيم مذهبُها ، والكرامة تُلحِفُها ، والسلامة ان شاء الله تكنفُها ، اصحبناها من حُورِ دولتنا وأحْظِيَائِها ، ووجوه دَعوتنا العلية واوليائها ، مَن اخترناه لهذه الوِجْهة الحميدة الاثر ، والرِّحلة السعيدة الورْد ان شاء الله تعالى والصدَر ، من أعيان بني مَرين اعزهم الله تعالى والعرَب ، واولاد المشائخ اولي الديانة والتقوى المالئين دِلاءَ القِرَب ، الى عَقْد الكرَب ، وكل من له اثرة مشهورة ، وشُهْرة بالمزايا الراجحة والسجايا الصالحة مَأثورة ، وقصدُهم من اداء فرض الحج قصدُها ، وورْدُهم ان شاء الله تعالى من مَنْهَل بركاته الجمّة وردُها ، وهكذا سيَّرنا من تُحَف هذه البلاد اليكم ما تيَّسر في الوقت تسْيِيره وان تعذَّر في كثير مما قصدناهُ

ولهذا الغرض اردناه تيْسيره ، لِطُول الَمغِيب عن الحضرة ، والشُغْل بتمهيد البلاد التي فتحَها الله عليهـا في هذه السَّفْرة ، وعيَّنا لايرادها لديكم ، وإيفَادِها عليكم ابا اسحاق ابن الشيخ ابي زكرياء يحيى بن عثمان السُّوَيْدِي ، وامـير الركب الحسن بن عِمْران وغيرهم ، كتَب الله سلاَمتهم ، ويَمَّنَ ظعنَهم واقامتَهم ، ومقامُ ذلك الاخاء الكريم ، يُسَنِّي لهم من اليُسْرى والتسهيل القصدَ والسُّؤل ، ويأمرُ نُوابَ ماله من الممالك ، وقُوَّامَ ما بها من المسالك ، لتكمُل العناية بهم في الَممرّ والقُفول ، ومُعظَم قصدِنا من هذه الوجهة المباركة إيصالُ المصحف العزيز الذي خطَطناه بِيَـدنا ، وجعلناه ذِخيرةَ يومِنا لِغَدِنا ، الى مسْجدِ سيدنا ومولانا ، وعصمة ديننا ودنيانا ، محمدٍ رسول الله ﷺ بطيْبَة[1] زادَها الله تشريفـا ؛ وأبقى على الايام فخرها مُنِيفا ، رغبةً في الثواب ، وحِرْصاً على الفوز بحظّ من اجر التلاوة فيه يومَ المَئاب. وقد عيَّنا بيد محل الوالدة المذكورة فيه ، كرَّم الله جبهَتها ، ويمَّن وِجهَتها ، من المالِ ما يُشتَرى به في تلكم البلاد الَمحُوطة من المستَغلاَّت ما يكون وقفاً على القرَأة فيه ، مؤبّدا عليهم وعلى غيرهم من المالِكيَّة فوائِدُه وَمجانِيه . والإخاءُ المـذكور يتلقَّى من الرُسل المذكورين ما اليهم في هذه الأغراض ألقَيْناه ، ويأُمر باحضارِهم لادائهم بالُمشافَهة ما لدَيْهم أوْعَيْناه ، ويُوعِزُ باعانتهم على هذا الغرض المطلوب ،

١ – إسم المدينة المشرفة .

و يُيَسِّر لهم أسبابَ التوصل الى الأمل والمرغوب ، وشأنه العونُ على الأعمال الصالحة ، ولا سيما ما كان من أمثال هذا الى مثل هـذه السبُل الواضحة ، وشكرُ بادراتكم مُوطَّدُ الاساس ، مُطَّرِدُ القياس ، مُتجدِّدٌ مع اللحظات والأنفاس ، واللهُ يصل للاخاء العلي نَظْرةَ ايامه ، ويُوالي نُصرةَ اعلامه ، ويُبقي الثغور القصيَّة ، والسبُل السريَّة مَنُوطة بنَقْضِه وابرامِه ، مَحُوطة بمعاضدة اسيافه واقلامه ، والسلام الكريم العميم ، يخص اخاءكم الاعز ورحمة الله وبركاته .

كتابٌ منه الى الملك الصالح ابي الفداء اسماعيل بن محمد بن قلاوون
في التعزية بوالده وأغراض أُخرى

من عندِ امير المسلمين ، المجاهد في سبيل الله رب العالمين ، المنصور بفضل المتوكل عليه ، المعتمد في جميع أموره لديه ، سلطان البرَّين ، حامي العُدوَتيْن ، مُوثِر المُرابطة والمُثاغَرة مُؤازِر حِزْب الاسلام حقَّ المؤازرة ، ناصر الاسلام ، مُظاهِر دين الملك العلام ، ابن أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، فخر السلاطين ، حامي حوْزَة الدين ، ملك البرَّين ، إمام العُدوتين ، ممهِّد البلاد ، مبدِّد شمْل الأعاد ، مجنِّد الجنود ، المنصور الرايات والبنود ، محطِّ الرِّحال ، مُبلِّغ الآمال ، ابي سعيد ابن امير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، حسَنةِ الايام ، حُسام الاسلام ، ابي الأملاك ، مُشْجي أهل العِناد والإشراك ، مانِع البلاد ،

رافع علَم الجهاد ، مُدوّخ اقطار الكفار ، مُصْرِخ مَن ناداه للانتصار ، القائم لله باعلاء دين الحق ، ابي يوسف يعقوب بن عبد الحق ، اخلَص الله لوجهه جهادَه ، ويسَّر في قهر عداة الدين مُرادَه . الى محل وَلدِنا الذي طلع في افق العُلا بدراً تمّا ، وصَدع بانوار الفخار فجلى ظلاما وظُلْماً ، وجمع شمل المملكة الناصِرية فأعلى منها علَما واحيى رَسْما ، حائط الحرَمين ، القائم بحفظ القِبلتين ، باسِط الامان ، قابض كفّ العُدوان ، الجزيل النّوال ، الكفيل تامِيله بحياطة النفوس والاموال ، قُطب المجد وسِماكه ، حَسْب الحمد ومِلاكِه ، السلطان الجليل ، الرفيع الأصيل الحافل العادل الفاضل الكامل الشهير الخطير الاضخم الافخم المُصان المؤزَّر المؤيد المظفر الملك الصالح ابي الوليد اسماعيل ابن محل اخينا الشهير عَلاؤه ، المستطير في الآفاق ثناؤه ، زين الايام والليال ، كَمال عين انسان المجد وانسان عين الكمال ، وارث الدُّوَل ، النافِث بصحيح رأيه في عُقودِ أهل المِلَل والنِّحَل ، حامِي القبلتين بعدله وحُسامه ، النامي في حفظ الحرَمين اجرُ اضطلاعِه بذلك وقيامِه ، هازم أحزاب المعاندين وجيوشِها ، هادِم الكنائس والبِيَع فهي خاويةٌ على عروشِها ، السلطان الأجلّ الهمام الأحفَل الأفخم الأضخم الفاضل العادل الشهير الكبير ، الرفيع الخطير ، المجاهد المرابط ، المُقْسِط عدلُه في الجائر والقاسِط[1] ، المؤيَّد المظفَّر ،

---

١ – أي الظالم فهو من عطف المرادف .

المنعَّم المقدَّس المطهر ، زَيْن السلاطين ـ ناصر الدنيا والدين ، ابي المعالي محمد ابن الملك الارضى ، الهمام الامضَى ، والد السلاطين الاخيـــار ، عاقِد لواءِ النصر في قَهْر الأرَمن والفرَنْج والتّتار ، مُحيي رسُوم الجهاد ، مُعْلي كلمةِ الاسلام في البلاد ، جَمال الايام ، ثِمال الأعلام ، فاتح الأقالِم ، صالح ملوك عصرِه المُتقادِم ، الامام ، المؤيَّد ، المنصور المسدَّد ، قَسيم أمير المؤمنين فيما تقلَّد ، الملك المنصور ، سيف الدنيا والدين قلاوون ، مكَّن الله له تمكينَ اوليائه ، ونمَّى دولتَه التي أطلعها السعدُ شمساً في سمائه ، واحسَن إيزَاعه للشكْرِ أنْ جعلَه وارثَ آبائه .

سلام كريم يُفاوِح زَهْرَ الرُّبى مَسْراه ، ويُنـــافِحْ نَسيم الصبا مَجراه ، يصحَبُه رضوانٌ يـدوم ما دامت تُقِلُّ الفَلَكَ حركاتُه ، ويتولاه رَوْح وريحان تُحَيِّيه به رحمةُ الله وبركاته . أما بعد حمدِ الله مالك المُلْك ، جاعِل العاقبة لِلتَّقوى صدْعاً باليقين ودفعاً للشك ، وخـــاذِل من أَسرَّ النفاقَ في النجْوَى فأصرَّ على الدَّخن والإفْـــك ، والصلاةِ والسلام على سيدنا محمد رسوله الذي محَى بانوار الهدى ظُلمَ الشِّرك ، ونبيه الذي ختَم به الانبياء وهو واسِطةُ ذلك السِّلك ودعا به حجةَ الحق فمادَت بالكَفَرة محمولةُ الأفلاك وماجتْ بهم حامِلة الفُلْك ، والرضا عن آله وصحبه الذين سلكوا سبيل هُداه فسلك في قلوبهم أجمل السِّلك ، وملَكوا أعِنّة هواهم فلزِموا من محجّة الصواب انجح السلك وصابروا في جهاد الاعـداء ، فزاد خلوصُهم مع الابتلاء والذهبُ يزيدُ خلوصا على السّبْك ، والدعاء

لاولياء الإسلام وحُماتِه الاعلام، بنصرٍ لِمضَائه في العِدى أعظمُ الفَتك، ويُسْرٍ بقضائه دَرْكُ آمال الظهور وَأَجْمِلْ بذلك الدَّرْك، ـ فكتبناه اليكم كتبَ الله لكم رُسوخَ القَدم، وسُبوغ النعَم، من حضرتنا مدينة فاس المحروسة وصُنْعُ الله سبحانه يُعرِّفُ مذاهبَ الألطاف، ويُكيِّف مَواهِبَ تلهجُ الالسِنَةُ في القصور عن شكرها بالاعتراف، ويُصرِّف من أمره العظيم، وقضائه المُتَلَقَّى بالتَّسليم، ما يتَكوَّن بـين النُّون والكاف، ومكانُكم العَتيدُ سلطانهُ، وسلطانكُم المجيـد مَكانه وولاؤكم الصحيح بُرهانه، وعلاؤكم الفسيح في مَجال الجلال مَيْدانُه ـ والى هـذا زادَ الله سلطانَكم تمكِينا، وافادَ مَقامَكم تحْصِينا وتحسينا، وسلَك بكم من سَنَن من خلَفْتمُوه سبيلا مُبِينا. فلا خفاءَ بما كانت عقَدْته أيدي التقـوى، ومهدْته الرسائلُ التي على الصفَاء تُطوَى بيننا وبين والِدكم نعَّم الله روحه وقدَّسه، وبِقُربه مع الابرار في عِلِّيِّين آنَّسه، من مؤاخـاة أحكمت منها العهودَ تالِيةُ الكتُب والفاتِحَة، وحفِظ عليها مُحكَمَ الاخلاص مُعوِّذَتاها المحبةُ والنية الصالحـة، فانعقَدتْ على التقوى والرِّضْوان؛ واعتضَدتْ بتعَارُف الأرواح عند تَنازُح الابدان، حتى استحكَمت وُصْلَةُ الوَلاء، والتأمتْ كلُحْمَة النَّسَب لحمَةُ الإخـاء فما كان إلّا وشيكاً من الزمان، ولا عجَب قِصر زَمَن الوُصْلة أن يشكُوه الخُلّان، ورَدَ وارِدُ أورَدَ رَنِقَ المشارب وحقّ قولُ «ومَن يَسْأل الرُّكْبانَ عَن كُلِّ غائب»[1] أنبأنا باسْتِئْثار

---

١ – هو شطر بيت للشريف الرضي من قصيدة قالها عند توجُّه الحاجّ، وتمامه وهو المقصود: فلا بد ان يلقَى بشيراً وناعيا.

الله تعالى بنَفْسِه الزَّكية . وإكْنَان دُرَّتهِ السَّنية ، وانقلابه إلى ما أُعِدَّ له من المنازل الرِّضوانية بِجَليــل ما وقَر لِفقْده في الصدور وعظيم ما تأَثّرت له النفوس لِوُقوع ذلك المقدور ، حناناً للاسلام بتلك الاقطار ، واشفاقاً من أن يعْتَورَ قاصِدي بيتِ الله الحرام من جرّاء الفِتَن عارِضُ الإضرار ، ومُساهَمة في نَصيب الملِك الكريم والوصيِّ الحميم .

ثم عَمِيَتِ الأخبار وطُوِيَت طيَّ السِّجِلِّ الآثار ، فلم نر مُخبِراً صِدْقاً ولا مُعْلِما بمن استقرَّ له ذالكم المُلك حقًّا ، وفي اثناءِ ذلك حفزَنا للحركة عن حضرتِنا استصراخُ أهلِ الاندلس وسلطانُها ، وتواتُرُ الاخبار بان النصارى أجمعوا على خَرابِ أوطانِها ، ونحن اثنـــاءَ ذلك الشأن ، نستخبر الوراد من تلكم البُلدان ، عما أجــلى عنه ليلُ الفِتَن بتلْكمُ الاوطان ، فبعد لأي وقعنا منها على الخبير وجاءَنا بوقاية حرم الله بِكُم البَشير ، وتعرَّفنا أن المُلك استقرَّ منكم فِي نِصابه ، وتَدارَكه الله تعالى منكم بفـــاتح الخيْر من أبوابه فأطفأ بكم نارَ الفتنة واخمدَها ، وابرأ من أدواء النفـــاق ما أعلَّ[1] البلاد وافسدَها ، فقام سبيلُ الحج سابلا ، وعُبِّدَ طريقه لمن جاء قاصدا وقافلا ، ولما احتفَّت بهذا الخبر القَرائن ، وتواتَرت بنقل الحاضر المُعاين ، أثار حفظُ الاعتقاد البواعِث ، والودُّ الصحيح تجرُّه حقـــا الموَارِث ، فأصدرنا لكم هذه المخاطبةَ المتفنِّنةَ الأطوار ، الجامعة بين الخبر

---

١ – اوقعهم في العلّة .

والاستخبار ، الملْبَسة من العَزاء والهناء ثوبي الشّعار والدّثار ، ومثل ذالكم الملِك رضوان الله عليه من تجِلُّ المصائبُ لفقدانه ، وتُحَلُّ عُرَى الاصطبار بموته ولات حِينُ أوانهِ ، لكن الصبرَ أجملُ ما ارتداه ذو عقل حصين ، والأجر أولى ما اقتناه ذو دينٍ متين ، ومثلكم من لا يخِفُّ وقارُه ، ولا يشِفُّ عن ظهور الجزع الحادث اصطبارُه ، ومن خلَفتموه فما مات ذِكرُه ، ومن قُمتُم بأمره فما زال بل زاد فخرُه ، وقد طالت والحمد لله العِيشة الراضية بالحِقَب ، وطاب بين مبداه ومحتضره هنيئاً بما من الأجر اكتسَب ، وصارَ حميدا الى خير منقلَب ، ووفَد من كرم الله على أفضل ما منح مُوقِناً ووهَب ، فقد ارتضاكم الله بعده لحياطة أرضِه المقدسة، وحماية زُوّار بيته مُقَيلة أو مُعرِّسة ، ونحن بعد بسط هذه التعزية ، نُهنِّيكم بما خوّلكم الله أجمَلَ التهنِية ، وفي ذات الله الإيراد والإصدار ، وفي مرضاته سبحانه الاضمار والإظهار ، فاستقبلوا دولةً ألقى العزُّ عليها رِواقَه ، وعقَد الظهور عليها نِطاقَه ، وأعطاها أمانُ الزمان عهدَه وميثاقه ، ونحن على ما عهدنا عليه الملك الناصر رضوان الله عليه من عهود مُوثّقة ومُوالاةٍ محقّقة ، وثناءٍ كمائمه عن أذكَى من الزهر غِبَّ القَطر مُفتَّقة .

ولم يغبْ عنكم ما كان من بعْثنا المصحفين الاكرمين اللذين خطَّتهما منا اليَمين وآوتْ بهما الرغبةُ من الحرمين الشريفين إلى قَرار مَكين ، وأنه كان لوالدكم الملك الناصر تولاه الله برضوانه ، وأورده موارد إحسانه ، في ذلكم من الفعل الجميل والصنع الجليل ، ما ناسبَ مكانَه الرفيع وشاكَل فضله

من البرّ الذي لا يضيع ، حتى طبّق فعلُه الآفاقَ ذكرا ، وطوّق أعناقَ الوُرّاد والقُصّاد بِرا ، وكان من أجمل ما به تحَفّى واتحف وأعظم ما يعرفه الملك العلام به في ذلك تعرّف ، إذْنه للمتوجهين إذ ذاك في شِراء رِبَاعٍ تُوقف على المصحفَين ، ورَسم المراسم المباركة بتحرير ذلك الوقف مع اختلاف الجديدَين ، فجرت أحوالُ القرّاء فيهما بذلك الخَراج المستفاد ، ريثما يصلِهم من خراج ما وقفْناه عليهم بهذه البلاد ، على ما رسمه رحمه الله من عناية بهم مُتّصلة ، واحترامٍ في تلك الأوقاف فوائدها به متوفرة متحصّلة ، وقد أمرنا مُؤدّيَ هذا لكمالكم ومُوفِدَه على جلالكم كاتِبنا الأسنى الفقيه الأجل الأحظى الأكمل ، ابا المجد ابنَ كاتبنا الشيخ الفقيه الأجل الحاج الأتقى الأرضى الأفضل الأحظى الأكمل المرحوم ابي عبدالله بن أبي مَدْين حفظ الله عليه رُتبتَه ، ويَسّر في قصد البيت الحرام بُغيتَه ، بأن يتفقد أحوالَ تلك الاوقاف ، ويتعَرّفَ تصرُّفَ الناظر عليها وما فعله من سَداد وإسراف ، وأن يتخيّر لها من يُرتَضى لذلك ، ويُحمد تصرُّفه فيما هنالك ، وخاطبنا سلطانكم في هذا الشأن ، جريا على الود الثابت الاركان ، واعلاما بما لوالدكم رحمه الله تعالى في ذلك من الافعال الحِسان ، وكما لكُم يقتضي تخليدَ ذلكم البرِّ الجميل ، وتجديدَ عمل ذلكم الملك الجليل ، وتشييدَ ما اشتمل عليه من الثّراء الاصيل ، والاجر الجزيل ، والتقدمَ بالاذن السلطاني في إعانة هذا الوافِد بهذا الكتاب ، على ما يتوخّاه في ذلك الشأن من طرُق الصواب ، وثناؤنا عليكم اثناءَ الذي

يُفاوِح زهرَ الرُّبى ، ويطارِحُ نغمَ حَمام الأَيك مُطرِّبا .

وبحسَب المُصافاةِ ، ومقتضَى المُوالاة نشرَحُ لكم المتزايدات بهذه الجهات ، وننبئكم بموجِب إبطاء انفاذِ هذا الخطاب على ذلكم الجناب ، وذلك أنه لما وصلَنا من الأندلس الصريخ ، ونادَى منا للجهاد عزماً لِمثل نِدائه يُصيخ ، انبأنا أن الكفار قد جمعوا أحزابَهم من كل صَوْب ، وفرض عليهم بَابَاهم اللعين التناصر من كل اوْب وأن تقصِد طوائفُهم البلادَ الاندلسية بإيجافها ، وتنقُص بالمنازلة أرضَها من أطرافِها ، ليَمحُوا كلمةَ الإسلام منها ويُقلِّصوا ظل الإيمان عنها ، فقدَّمنا من يشتغل بالاساطيل من القُواد ، وسِرْنا على إثْرِهم الى سبتة مُنتهَى الغربِ الأقصى وبابَ الجهاد ، فما وصلناها إلا وقد أخذ أخذَه العدُّو الكفور ، وسدَّت أجفانُ الطواغيت مَجازَ العُبور ، وأتوْا من أجفانهم بما لا يُحصى عَددا ، وأرصدُوها بمجمع البَحْرين حيثُ المجازُ إلى دفع العدا ، وتقلَّصوا عن الانبساط في البِلاد ، واجتمعوا الى الجزيرة الخضراء ـ أعادَها الله ـ بكل من جمعوه من الأعاد، لاكنَّا مع انسدادِ تلك السبيل ، وعَدم أُمور نستعين بها في ذلكم العمل الجليل ، حاوَلْنا إمدادَ تلكم البلاد بحسَب الجُهْد ، وأصرَخْناهم بما أمكن من الجُنْد ، وجهَّزنا أجفاناً مُختَلِسين فُرصةَ الإجازة ، تتردَّد على خطَرٍ جُهِّزَ للجهاد جِهازه ، وأمرْنا لصاحِب الأندلس من المال ، بما يجهِّزُ به حركتَه لمداناةِ مَحلَّة حِزب الضلال ، واجرينا له ولِجيْشه العطاء الجزْل مُشاهرة ، وأرْضَخنا لهم من النَّوال ما نرجو به ثوابَ

الاخرة ، وجعلتْ أجفانُنا تتردَّد في مِيناء السواحل وتلجُ ابواب الخوف العاجل لإحراز الأَمن الآجِل، مشحونةً بالعُدَد الموفورة والأبطال المشهورة ، والخيْل المُسوَّمة ، والاقوات المُقَومة ، فمِن نَاجٍ حارب دونه الأَجل، وشهيدٍ مضَى عند الله عز وجل ، وما زالت الاجفـانُ تتردد على ذلك الخَطر ، حتى تَلِفَ منها سبع وستون قِطعةً غَزْوِيَّة اجْرُها عنـد الله يُدَّخر ، ثم لم نقنع بهذا العمل في الإمداد ، فبعثنا أحدَ أولادنا اسعدهم الله مساهمةً به لأهل تلك البلاد ، فَلَقِيَ من هوْل البحر وارتجاجه ، والحاحِ العدو ولجَاجِه ، ما به الامثالُ تُضرَب وبمثله يتحدَّث ويُستغرب ، ولما خلَص لتلك العُدوة بمن أبقته الشدائد ، نزَل بازاء الكافر الجاحد ، حتى كان منـه بفرسَخَيْن أو أدنى . وقد ضَرب بعطَن يُصابِح العدوَّ ويُماسِيه بحرب بها يُمْنَى ، وقد كان من مدَدنا بالجزيرة جيش شرِيَت شرارتُه ، وقوِيَت في الحرب إرادتُه ، يُبلون البلاء الاصدَق ، ولا يُبالون بالعدو وهُم منـه كالشامة البيضاء في البَعير الأورَق ، إلا أن المطاولَة بحصارها في البحر مَدة ثلاثةَ أعوام ونصف ، ومَنازَلتها في البَر نحو عامين معقوداً عليها الصَفُّ بالصَّف ، أدَّى الى فَناء الاقوات في البلَد ، حتى لم يبق لاهليه قوتُ شهر مع انقطاع المدَد ، وبه من الخلـق ما يُربِي على عشرة آلاف دون الحُرَم والولْد ، فكتب الينا سلطانُ الأندلس يرغَبُ في الأذن له في عقْـد الصلح ، ووقَع الاتفاق على أنه لاستخلاص المسلمين من وجوه النجح ، فاذِنَّا له فيه الاذنَ العام ، إذ في إصراخه واصراخ من بقُطره من المسلمين

توخينا ذلك المرام ، هنالك دُعِيَ النصارى الى السلم فاستجابوا ، وقدكانوا علِمُوا فناءَ الاقوات وما استرابوا ، فتمَّ الصلح الى عشْر سنين ، وخرج مَن بها من فرسانٍ ورجال وأهلٍ وبَنين ، ولا رُزِءُوا مالا ولا عُدَّة ، ولا لَقُوا في خروجهم غيرَ النزُّوح عن أوَل أرض مَسَّ الجِلْدَ ترابُها شِدَّة ، ووَصلُوا الينا فاجزلنا لهمُ العَطاء ، واسلَيْناهم عما جرى بالِحبَاء ، فمن خيْل تزِيدُ على الألف عِتاقُها ، وخلَع تُرْبى على عشرةِ آلاف اطوَاقُها ، وأموالٍ عمَّت الغني والفقير ، ورعايةٍ شمِلتِ الجميع بالعيش النضير ، وكفَّ الله ضُرَّ الطواغيت عمّا عداها ، وما انقلبوا بغير مَدرَةٍ[1] عفَا رسمُها وصَمَّ صداها .

وقد كان من لطف الله حين قضى بأخذ هذا الثَّغْر ، ان قدَّر لنا فتح جبل طارق من أيدي الكُفر ، وهو المطِلُّ على هذه المَدَرة ، والفُرْصةُ منه إن شاء الله تعالى مُتَيسِّرة ، حتى يُفرِّق عِقْد الكفار ، ويفرج بهذه الجهة منهم مُجاورُوا هذه الأقطار ، فلولا إجلاُبهم من كل جانب ، وكونُهم سَدُّوا مسلك العبُور بما لجميعهم من الاجفان والمراكب ، لَما بالَيْنا بإصفاقِهم ولَحلَلْنا بعون الله عَقْدَ اتِّفاقِهم ، ولكن للموانع أحكام ، ولا رادَّ لما جرتْ به الأقلام ، وقدأمرْنا لذلك الثَّغر بما يزيد به المَدَد ، وتخيَّرنا له ولسائر

---

١ — هذه زخرفة لفظية وتسلية باردة وما ضاعت بلادُ الإسلام إلا بمثل هذا التهاون والاستخفاف .

تلك البلاد العُدَد والعَدَد ، وعُدنا لحضرتنا فاس لتستريح الجيوش من وَعْثاء السَفر ، ونرْتبِط الجياد ونَنتَخب العُدَد لوقت الظهور المنتظر ، ونكون على أُهْبة الجهاد، وعلى مَرْقَبة الفُرصة عند تمكنها في الاعاد، وعند عودنا من تلك المُحاوَلة ، نُيسِّر الركب الحجازي مُوَجها إلى هناكم رَواحِلَه، فاصدَرْنا اليكم هذا الخطاب ، إصدارَ الود الخالص والحب اللُّباب ، وعندنا لكم ما عند أَحنى الآباء ، واعتِقادُنا فيكم في ذاتِ الله لا يَخْشَى جدِيده من البلاء ، وما لكم من غَرَض بهذه الانحاء ، فمُوَفّى قصدُه على أكمل الاهواء ، مُوالىً تتميُمه على اجمل الآراء ، والبلاد باتّحاد الود متحدة ، والقلوبُ والأَيدي على ما فيه مرضاةُ الله عز وجل مُنعقِدة ، جعلَ الله ذلكم خالصا لرب العباد ، مذخورا ليوم التّناد ، مسطورا في الأَعمال الصالحة يوم المعاد ، بمنه وفضله وَهُو سبحانه يصِلُ إليكم سعدا تتفاخَر به سُعودُ الكواكب ، وتتضافَر على الانقياد له صدُور المواكب ، وتتَقاصَر عن نيل مَجْده مُتطاوِلاتُ المناكب والسلام الاتم يخصكم كثيراً اثيراً ورحمةُ الله وبركاته .

كتاب السلطان ابي سعيد المريني الاصغر الى الملك الناصر فرَج بن بَرْقوق

يعلمه باستعداده لمناصرته على العدو المهاجم

من عبد الله ووَليِّه عثمان امير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، ناشر بساط العدل في العالَمين ، المقتدي بآثار

آبائه الكرام ، المُقْتفِي سُنتَهم الحميـــدة في نصرة الاسلام ، المُعمِل نفسَه العزيزة في التهمُّم بما قلَّده الله من أُمور عباده ، وحياطةِ ثغوره وبلاده ، سيفِ الله المسلول على اعدائه ، المنتَشِر عدلُه على أقطار المعمور وانحائه ، ظلّ الله تعالى في أرضه ، القائم بسنته وفرضه ، عمــادِ الدنيا والدين علَم الأيمـة المهتدين : ابن مولانا السلطان المظفّر الخليفـــة الإمام ملك الملوك الأعلام ، فاتح البلدان والأَقطار ، ممهِّد الاقاليم والامصار ، جامع اشتات المحــامد ، مَلجأ الصادر والوارد ، الملِك الجوَاد ، الذي حلَّت محبتُه في الصدور محلّ الأَرواح في الأَجساد ، امير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ابي العباس ابن مولانا امير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ابي سالم ابن مولانا امير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ابي الحسن ابن مولانا امير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ابي سعيد ابن مولانا امير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ابي يوسف يعقوب بن عبد الحق، وصَل الله تعالى اسبابَ تأييـــده وعَضْده ، وقضى باتِّصال عُرْف تجديد سعده وأناله من جميل صُنْعه ما يتكفل بتيسير امره وبلوغ قصده.

الى محل اخينا الذي نُوثِر حقّ إخائه الكريم ، ونُثني على سلطانه السعيد ثناءَ الولي الحميم ، ونشكر ما له فينا من الحب السليم ، والود الثابت المقيم ، السلطان الجليل ، الماجد الأصيل ، الأعزّ الخطير المثيل، الشهير الامجد الأرفع ، الهمام الامنع ، السريّ الارضى ، المجاهد الامضى الاوحد الأسنَى ، المَكِين الاحمَى ، خديم الحرمين الشريفـين ، حائز

الفخرَين المُنيفين، ناصر الدنيا والدين، مُحيي العدل في العالمين، الاجدّ الأوَد المكين الأخلص الأفضل الأكمل ابي السعادات فرج ابن السلطان الجليل، الاعزّ المثيل، الخطير الأصيل، الأرفع الأمجد، الشهير الهمام الأوحد، الأسمى الاسْرَى الارضى، المجاهد الأمضى، خديم الحرمين الشريفين، حائز الفخرين المنيفين، الأفضل الأكمل المبرور المقدم المرحوم ابي سعيد بَرقوق ابن أَنص، وَصل الله لسلطانه المؤيّد جدّاً لا يُعجَم عُوده وعزّا لا يَميل عَمُوده، ونصرا يملأ قُطرَه بما يُغَصُّ به حَسُوده، وَعضْدا يأخذ بزمام أمله السني فيسُوقه ويقودُه.

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

أما بعد حمد الله على سُبوغ نَعمائه، وترادف لطفه وآلائه، الذي عرّفنا من ولائه الكريم ما سرّنا من اطّراد اعتنائه، وابهج النفوس والاسماع من صَفاء ولائه، ومُواصلة صَفائه، والصلاةِ والسلامِ الأكملين على سيدنا ومولانا محمد خاتِم رسله وانبيائه، ومُبلِّغ رسالاته وانبائه، صاحب المَقام المحمود، والحوض المورود، واللواء المعقود، فأَكْرِمْ بمقامه وحوضه ولوائه والرضى عن آله وصحبه وأوليائه، الذين هم للدين بُدور اهتدائه ونجوم اقتدائه، وصِلةِ الدعاء لمقامكم الكريم بدوام عزه واعتلائه واقتبال النصر المبالَغ في احتفاله واحتفائه وحياطة انحائه وارجائه وتأييد عزَماته وآرائه،

فانا كتبنا اليكم كتب الله لكم سعدا سافرا ، وعزما ظافرا ، من حضرتنا العلية بالمدينة البيضاء[1] كلأها الله تعالى وحرسها ونِعَمُ الله سبحانه لدينا واكِفَةُ السِّجال ، وولاؤه جل جلاله سابغ الاذيال ، وخلافته التي نرعى بعين البر جوانِبَها ، ونقتفي في كل مَنقَبةٍ كريمةٍ سِيَرها الحميدة ومَذاهبها ، والى هـذا وَصل سعْدَكُم ، ووالى عَضْدَكم ، وكتابُنا هذا يُقرِّر لكم من ودادنا ما شاع وذاع ، ويؤكد من إخلاصنا اليكم ما تتحدث به السمَّار فتُوعِيه جميعَ الاسماع ، وقد كان انتهى الينا حركَةُ عدو الله وعدو الاسلام ، الباغي بالاجتراء على عباده سبحانه بالبؤس والانتقام الآخذ فيهم بالعَيْث والفساد ، الساعي بجهده في تهديم الحصون وتخريب البلاد ، وتعرَّفنا انه كان يعلق امله الخائب بالوصول الى اطراف بلادكم المصرية ، وانتهاز الفرصة على حينِ غفْلةٍ من خلافتكم العلية ، والحمد لله الذي كفَى بفضله شرَّه ، ودفَع نقمته وضره ، وانصرف ناكصا على عَقِبِه ، خائبا من نيل أرَبِه ، ولقد كنا حين سمعنا بسوء رأيه الذي غلَبه الله عليه ، وما أضمر لخلق الله من الشر الذي يجدُ في اخراه ظلامَه يسعى بين يديه عزمنا على أن نمُدَّكم من عساكرنا المظفرة بما يضيق عنه الفضاء ونُجهِّزَ لجهتكم من اساطيلنا المنصورة ما يُحمد في امداده المُنَاصرةُ ويرتضى ، فالحمد لله على ان كفَى المؤمنين القتال ، واذهب عنهم الأَوْجال ، ويسَّر

---

[1] – هي فاس الجديد .

لهم الأعمال، وهيأ لخلافتكم السنيَّة والمسلمين، هناءً يتضمّن السلامة لكم ولهم على تعاقُب الأعوام والسّنين. وبحسَب ما لنا فيكم من الود الذي اسست المُصافَاةُ بنيانه، والحب الذي أوضح الإخـلاصُ برهانَه، وقعَ تخيُّرنا فيمن يتوجه من بابنا الكريم لتفصيل مُجمَلِه، وتقرير ما لدينا فيه على اتم وجه الاعتقاد واكمِلِه، على الشيخ الأجل الشريف المبارك الأصيل الأسنى الحظيّ الأعز الحاج المبرور الأمين الأحفل الأفضل الأكمل ابي عبدالله محمد ابن الشيخ الأجل الاغرّ الأسنى الأوْجه الأنْوَه الأرفع الأمجد الآثَر الأزْهى الشريف الأصيل المعظم المثيـل الأشهر الأخطر الامثل الأجمل الأفضل الاكمل المرضيّ المقدّس المرحوم ابي عبدالله بن ابي القاسم بن نَفِيس الحُسَيْني العِراقي، وَصل الله سعادتَه، واحمد على حضرتكم السنية وِفادَته، حسَب مَا يفي بشرح ما حمَّلناه نَقْلُه، ويكمل بايضاحه لديكم يقظتُه ونُبلُه، إن شاء الله تعالى وهو سبحانه وتعالى يديم سعادتَكم ويحفظ مجادَتكم، ويُسنِي من كل خـير ارادتكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بيعة صاحب مملكة بُرْنُو من أقطار السودان

للمنصور الذهبي. أنشأها له كاتب المنصور
عبد العزيز الفشتالي

الحمد لله الذي أعلى لكلمة الحق مَنارا يُسامِي في مطالعها النجوم، وازاحَ بها عن شمس الهداية المنيرة غياهبَ الغَباوة المُدلَهِمَّة وسحاب

الغَواية المركوم ، وحيَّ على الفلاح بها داعي التوفيق الذي نشر للنجاح كتابَه الموقوت واستنجز للسعادة أجلَها المعلوم ، وشرَّف هذا الوجود، والعالمَ الموجود ، بالخلافة النبوية ، والامامة الحسنة العلوية ، التي صُرِفت الوجوه الى قِبْلَتها المشروعة، واستبان الحق بتبلُّج الصباح في مُبايعتها والانقياد لدعوتها المسموعة ، ونسَخَ بدولتها الغراء دُوَلَ الحَيْف التي هي بسيْف النُبوَّة المُصْلَت مقطوعة وبلسان السنة مدفوعة ، وقوَّضَ بها مبانيَ الادعاء التي هي على غير أساس الشرع الصحيح مرفوعة ، وفرَّق بكلمتها المجموعة على التوحيد فِرَقَ التثليث التي هي على مُشاقَّة اللهِ ورسوله تابعة ومتبوعة ، وخلَع بظهورها على اعطاف الحنيفية السمحة رداءَ العز الفَضفاض ، واستل بتأييدها للدين المحمدي سيفَ الأنفَة والامتعاض واشار للأعادي من بأسها المُروع بلسان الحية النَّضناض ، وفجَّر للمؤمنين يَنبوعُ رحمتها الجاري على حَصَى عدلها الرَّضراض ، ومهَّد بسيوفها المنتضَاةِ الآفاقَ والأقطارَ تمهيدا أزالَ عن حكمه الاعتراض ، وجلّى بانوارها المتألقة سُدفَ الجهالة التي ادْلهمَّ جوُّها وغيَّم، واسعد الوجود بِيُمْنِها الذي لبِث في أكناف مجدها وخيَّم ، وقضَى لها بتوارُثِ الأرض ومَن عليها ان شاء الله الى عيسى ابن مريم .

والصلاةِ والسلام على مولانا محمد الذي تعاضَدت البراهينُ القاطعة ، على صدق رسالتِه البارعة، ونهج للدين القويم طريقةَ الحق المُثلَى ومادته الشارعة ، وسوَّغ لمن آمَن به مناهلَ الهدى النَميرة الزلال وموارده

العذبة ومشارِعــه ، نبيّ الرحمة ، وشفيع الأمة ، وعلى آله واصحابه الكرام ايمة الهدى ومَصابيح الظلام .

والدعاءِ لمولانا الأمام ، العلوي الهُمام ، أمير المؤمنين ، ابن أمير المؤمنين ، نَجْل سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، وسليل الوَصيّ والسبطَيْن الأكْرمِين .

وبعد فانه لمَّا أَذِنَ الله في ليل الجهالة ان يَنْجاب ، وفي شمس الحق الوّهاجة ان يرتفع عنها الحجاب ، وفي العز الخلقِ الجِلْباب ، أن يعود الى الشباب ، وفي النجاح والاستقامة أن يُفتَح لهما الباب ، وفي الأمارة ان تُسند لِلسنة والكتاب وتتعلَّق من الشرع باسباب ، تدارك الله سبحانه الوجود واعز العالم الموجود واستطارت الأنوار المُضيئَة للأغوار والنُّجود ، بطلوع شمس الخلافة النبوية ، والامامة الهاشمية العــلوية ، ففاضت على أَديم البسيطة انوارها ، وارتفع الى حيث السُّها والفرْقدَيْن منــارها ، وتبلَّج بالاصباح نهارها ولاحت في سماء المجد بُدورها واقمارُها ، وكادت تنهَبُ نجومَ السماء اتباعُها وانصارها ، وانتشرت في الآفـاق والاقطار على البعد والقرب آثارُها ، وهزّت عِطْف الزمان انتشاءً مناقبُها واخبارُها وفاض ببركتها على أكناف المعمور يَمُّها الزاهر وتيّارُها ، خلافة ينتمي إلى النبوة عُنصرُها وتُستنبَط من رسالة الوحي أسطُرُهـا ، ويُنــاط بعروتها الوثقى خِنْصِرُها ، وامامة عَليٌّ وليُّها والله نصِيرُها والسِّبْط بدرُها

الذي حيَّاه مِنبَرُها وسريرُها .

والحمدلله الذي اصطفى من هذه الدَّوْحة النبوية الشمَّاء ، والشجرة الطيبة الهاشمية التي اصلُها ثابت وفَرْعُها في السماء ، إمــاماً القى الله له في القلوب حبا جميلا ، وموْلىً جعله الله على مَرضاته سبحانه علامة ودليلا وخليفة استرعاه بحسن الرعي لخلقه وعباده كَفِيلا ، وانتضَى من بأسه وبسَالته لحماية حِمَى الشريعة حُساماً صَقيلا ، مولانا امير المؤمنين وخليفة الله في الأَرضين ، وسليل خاتم النبيين ، ووارث الانبياء والمرسلين ، المفترَضة طاعتُه على الخلق اجمعين ، والممنُون بامامته المقدَّسة على العالَمين ، بحر النَّدَى والباس ، وعصمة الله للنَّاس . أمير المؤمنين ، المنصور بالله مولانا أبا العباس صلواتُ الله عليه وعلى آله الخلفاء الراشدين والايمة الطيبين الطاهرين ، وطيَّبَ بأنفاس المغفرة لُحودَهم اجمعين . امام تهتزّ لذكره اعطافُ المنابر ، وتتقلّد من شريف دعوته ابهَى من نفيس الجواهر ، وتستضيء البـلاد بإكْليل شرفه الزاهر ، وتسكُن العباد تحتَ ظل رحمته الوارف الوافر ، ابقى الله ايامَه الغُرَّ بقاءً يصحب النصر دوامَه ، وخلَّد له ولأعقابه هذا الأمر الكريم الى يوم القيامة .

ولما طلعت ، ايده الله على هذه الاصقاع الزَّنْجيَّة طلائعُ امامتـه النبوية وخلافته ، ولاحت في سمائها شهُبُ مناقبه المُنيفة الدالة على فخامة شرفه وإنَافتِه ، وتُليَت لمجده الآياتُ البينات التي تشهد له بتُراث الرسالة ،

وتقضى له على الإسلام وعلى الانام بحكم الوَلاء والكَفالة ، واوضح الله سبحانه للناس من اعتقاد وجوب طاعته والاقتداء بامامته ، والانقياد لدعوته ، وتقليد بيعته ما جاء به كتابه الحكيم ، ووردت سنة نبيّه الكريم كما قال عليه السلام : لا تزال الخلافةُ في قريش ما بقيَ منهم اثنان ، وكما ورد في صحيح الخبر ان الخـلافة في قُرَيش والقضاءَ في الأنصار وفي الحبشة الأذان ، ويدلُّ على هذا تعاضدُ الخبر والعيـان ، فلا نَاكرَ ان ليس في المعمور على هذا الشرط غيرُه ايّده الله من ثان ، فنَهض بدليل الشرع أنه امام الجماعة حقا المستوفي شروطَها ، والوارثُ للخلافة النبوية والحريص على بيضة الإسلام ان يَحوطَها ، وإن القائم بهذا الأمر على الإطلاق غيره دَعِيّ ، ومُحاوِلَه دون اذنه المشروع بِدْعِيّ ، فتعين لذلك ان الرجوع الى الحـق فريضة ، واستبان بما تقرر وعلم ان امارة لا تلاقي في الشروع محلها المشروع منبوذَةٌ مرفوضة ، وعُروَتها لذلك مفصُومة ومنقوضة .

فانتدَب لهذه الآثار ، وصحيح الأخبار ، وصرَف الى رضا الله العناية ووقَف من الشرائع المشروعة حيثُ مركزُ الراية ، ومنتهى الغاية ، الرئيسُ ابو العلاء ادريس اكرمه الله انتدابَ مَنْ وَقفت به مَطيَّةُ التوفيق ، على حضرة الإخلاص والتصديق ، واخـذت بزمامه السعادةُ الى حيث الفوزُ برضا الله ورضا رسوله حقيق ، والتـأييدُ صاحب ورفيق ، وروضُ الآمال أنِيق وراحُ الراحة والاطمئنان عَتيق الى تقلُّد بيعة امام الجماعة أمير المؤمنين ، المنصور بالله زاده الله تقديسا وتشريفا ، التي تُؤَسَّسُ ان شاء الله على تقوى

من الله ورضوان ، وتشهَدُ عقدَها الكريم ملائكةُ الرحمان ، وآثرَ اسعدَه الله أن يؤدي فرضها المعدود من فروض الاعيان ، وحكمَها الذي توَّجه به خطابُ الشرع العام الى القاصي والدان ، وينشُرَ سنتَها المشروعة في صُقْعِه وما يليه من الأَصقاع والبِقاع بالسُّودان ، تقلّداً يستضيء ان شاء الله بانواره ، ويستشرف به العزُّ المكين على مَناره ، ويُخمِد به للجهل جِذْوةَ ناره وتنتظم به في اتباع الحق زُمْرَةُ انصاره ويجتلي به صورةَ انسانه ، ويستوجب من الله عوارف صنعه واحسانِه ويُرهِف به للعدو على العزَمات حدَّ سيفه وسِنانه ، ويقرَع به لرضا الله بابَ القبول ، ويتضاعف له ببركته العمل المقبول ، ويستنشِق بمشهد عقْده الكريم نوَاسِم النبوة ، ويعُود له به الزمان للشباب والفتوة ، ويرفع به منارَ الامارة على قواعد الشرع الوثيقة ، ويعدل به في كل الاحوال عن المجاز الى الحقيقة ، وتتسنّى له به وهْيَ المقصَد الاسنَى والخاتمةُ الحسنى الأُسوةُ الحسَنةُ بإمامَيْ بنِي العباس السفّاح والمنصور ، ويُحيي سنتَها التي نقلَها ثِقاتُ الاعلام والصُّدور ، في مُبايَعتهما الامام الخليفة المهدي الاكبر سليل سيد المرسلين ، وجدّ مولانا أمير المؤمنين الذي رأى أمامُ دار الهجرة انه بتُراث الخلافة أولَى واحقّ ، وفي منصب الامامة على شرطها اعرَق ، وبسريرها ومنبرها أَلْيَق .

فتأكّد للمنتدب أيّده الله بهذه الآثار الشريفة ، والمناقِب المنيفة ، العزمُ والقصد ، وأُنجِز له فيما اراده صادقُ الوعد ، وساعد نيَّتَه الصالحة فيه السعد ، فبايعه أعلى الله يدَه على الأمن والأمانة ، والعفاف والديانة ، والعدل

الذي يُشَيِّدُ للمجد أركانَه ، مبايعةً شايَعه على عقْدها الكريم ، أكرَمهُ اللهُ ، أتباعُه ، وجُموعُه وأشياعُه ، بحُكْم الوفاق والاتفاق ، والمواثيق الشديدة الوثاق ، وبجميع الأَيْمان الصادقة الإيمان ، اعطَوْا بها صَفْقَة أيديهم ، ورفَع بها العَقِيرةَ مناديهم عارفين ان يد الله فيها فَوْقَ أيديهم ، وأمضوْها على السمع والطاعة ، والانتظام في سِلْك الجماعة ، امضاءً يدينون به في السر والجهر ، والعُسر واليُسر ، والرخـــاء والشدة ، والأزمان المشتَدّة ، والتزُموا شروطَها طوْعا واستوعَبُوها جنساً ونَوْعاً بنيات منهم خالصةٍ صادقة ، وعِدَةٍ من الله بالخير لهم سابقة ، وسعادةٍ بالحسنى لاحقة ، ابرَمُوا عقدَها ، واحكموا وعدَها وعهدَها ، على حكم الكتاب والسنة والجماعة ، والاخذ بسُنّتها اعقاباً عن اعقاب ، وأحقابا اثْرَ احقـــاب ، الى يوم القيامة واقتراب الساعة ، لا يلحق عقــدَها الكريمَ فَسْخ ، ولا يعقُبه بحول الله نَسْخ ، ولا يتطرّق إليه نقضٌ ولا نكْث ولا يشُوبُه بشوائب الشبُهات بحْث ، واجمعَ على هذا اسعده الله بالمواثيق المستفيضة والايمان اللازمة المُغلَّظة هو واتباعه اجمـــاعاً شرعيا ، وحتمّوه على انفسهم حتْما مَقْضياً واعتقدوه اعتقاداً أبدياً ، وعرَضوا على التزامه بمشهَد عقده المبارك أفراداً وازواجاً ، وُحدانا وأفواجا ، وأشهَدوا على الوفاء به بأيمـــانهم الصادقة البُرور ، ومواثيقهم المُثلجَة للصدور ، قائلين بالله الذي لا إله إلا هو الملك القدّوس العليم بالخفِيّات ، والخبير بالآجال الوَفِيّـات ، وبجميـع الرسل الكرام والانبياء ، وملائكة الرحمان في الأرض والسماء ، وعلى

انهم إن حادوا عن هذا السبيل ، وانقادوا لدعاء داعي التغيير والتّبْديل ، أو انحرفوا عن هذا المنهاج وسنته ، فهُم بُرَآءُ من حول الله وقوته ، ومن دينه وعصمته ، ومستوجبين لعذابه وغضَبه وسُخطه ونِقمتِه ، وبُعداءُ من رحمته ، ومن شفاعة نبيه الكريم يوم القيامة لأمّته ، وانهم خالِعُون لربقة الإسلام ، وخارجون عن سنة الرسول عليه السلام ، أعلَنوا بهذا إعلانا تعضُدُه النجوى ، وأدّوْه بشروطه الجارية على مذاهب الفتوى ، وأحكامِه اللازمة لكلمة التقوى ، استرضاءً لله وللخلافة النبوية ، والامامة العلوية ، ورياضةً للنفوس على بيعتها المباركة الميمونة النّقيبة ، واستيفاءً لشروطها واقسامها الواجبة والمستحبة والمندوبة ، مستسلمين الى الله بالقلوب الخاشِعة ، ومتضرعين الى بابه الكريم بالأدعية النافعة ، في ان يُعَرِّفهم خيرَ هذا العقد الكريم ، والعهد الصميم بدءاً وختاماً ، وان يمنحهم بركته التي تصحبهم حالا ودواما ، لا ربّ غيره ولا خير إلا خيره .

اشهد على نفسه بما فيه وعلى رعيته الرئيس ابو العلاء ادريس اسعده الله واكرمه وبتاريخ المحرم الحرام من عام تسعين وتسعمائه من الهجرة النبوية .

كتاب المنصور الذّهَبي الى الشيخين البَدْر القَرافي والزّين البَكْري

في إعلامهما ببعض الفتوح وتشوُّفه للاندلس

من عبد ربه المجاهد في سبيله احمد المنصور بالله أمير المؤمنين الحسني

الى الفاضل الذي اعتجرَ بالتقوى وهو زَيْنُ العابدين ، وتحلَّى بحلى المعارف الربانية وتلك حلى العارفين ، والسالك الذي برَّز في الطريقة ، وسلك على المجاز الواضح الى الحقيقة ، ففاتَ شأْوَ السابقين ، والعارف الذي تجرد عن رُعونة الاهواء النفسانية فكان سلوكه على التجريد الى حضرة الواصلين الشيخ العالم الحجة الوافي ، السيد بدر الدين القَرافي ، والشيخ العارف الواصل ، السريّ الكامل ، سُلالة العلماء ، سِبْط الفضلاء ، ابي عبد الله زين العابدين ابن الشيخ السامي المقام ، قُطب المشائخ الاعلام ، فخر علماء الإسلام ، الشهير البركة في الانام ، ابي عبد الله محمد بن ابي الحسن الصِّدِّيقي ، ابقاكما الله وارواحُكما تتعطَّر برَياحين الأُنس ، في حضرة القدس وتشمُّ النفحاتِ الهابَّةَ من رياض المشاهدة الى مدارج الأنس ومَعارِج النَّفس ، وسلام عليكما ورحمة الله تعالى وبركاته :

وبعد حمد الله مُفيض أنوار عناية احمد على صاحبه الصدّيق ، مُظهِر كنوز المعارف الربانية جيلاً بعد جيل من بيتٍ عَتيق ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي اختار لمرافقته صاحبَه في الغار والعَريش والطريق والرضا عن آله ايمة الخلْق ، وسيوف الحق ، واصحابه الذين فاضت انوار هدايتهم على الغرب والشرق ، وببركتهم انتَسق لنا الفتح انتِساقَ الاسلاك ، وبفضلهم يعلو سعدُنا على الكفر علوَّ القُطب على دائرة الافلاك - فكتبنا هذا اليكم من حضرتنا السعيدة مراكش حاطها الله وصُنْعُ الله لها مُفعَمُ السِّجال ، وَاسِعُ المجال ، وعزْمتُها الماضية تبعثُ

الى العِدَى رُسلَ الاوْجال . والايام بعز صولتها ، ويُمْن دولتهـا ، بهذه المغارب باسِمةُ الثغور ، مُوذِنَةٌ باتصال أمرِها العزيز بحول الله الى أن تُطوَى مُلاءَةُ الدهور .

هذا وانه اتصل بعلي مقامنا كتابُكما الذي صدَحتْ على افنـان البلاغة سواجعه ، وعذُبت في موارد المحبة الصدّيقية منـاهِلُه ومشارعه ولطُفت في كل معنى من المعاني افانِينُه ومَنازِعه ، وتألّفت على الاجادة في كل مقصد من المقاصد مواصِلُه العذبة ومَقاطِعه ، واينعت بازهار العنـاية الربانية اباطِحُه الفيحُ وأجارِعه ، ومعه المنظومات التي سحَّت بالحِكَم دِيَمُها ، ورَسا في البلاغة ، قَدمُها ، وربَا في مَنْبِت المواهب الربانية يراعُها الفصيح وقلمها ، وحلّ من نفوسنا موقعها العجيب محلا مِن دُونه الثريا في مطلَعها والبدر ليلةَ تمامه اعجاباً بها وتنويها بُمهدِيها ، وابتهاجاً بالخوارق التي اطلق الله على لسان مُبديها ، والى هذا فلْيحِط علمكما بان مقامنا تَنفَق فيه على الدوام ان شاء الله نفائسُ بضائعكم ، وتنمُو فيه مع الايام سعُود مطالعكم ، وتسمو فيه على كل مقـام مقاماتُكم ، وتستوضح فيه على المحبـة الصميمة أماراتكم الواضحة وعلامَاتكم ، فعلى هذا تنعَقِدُ منكم الخناصِر ، وتشتَدُّ الأَوَاخي والأواصر ، بعز الله ومنه .

ثم مما نستطرد لكم ذكرَه على جهة البُشرى ، واهداء المسرَّة الكبرى إعلامَكم أن عدو الدين طاغيةَ قَشْتَالة الذي هو اليوم العدو الكبير للإسلام

وعميدُ مِلَل التثليث وعبدَة الاصنام لما أَنِس من تلقاء جانبنا نارَ العزم تلتهب منا التهابا ، وبحرَ الاحتفال تضطرب امواجُه الزاخرة بكل عَدَد وعُدَّة اضطرابا ، وهِمَمنا قد همَّت بتجديد الاسطول ، والاستكثار من المراكب المتكفلة للجهاد ان شاء الله بقضاء كل دَيْن مطول ، وعَلِم ان الحديث اليه يُساق ، والى ارضه بالخسف والتدمير بحول الله يهفو كلُّ لِواء خفّاق رام خذَله الله مكافاتنا على ذلك ، بما أمّل أن يفُتَّ به في عضدنا الأقوى وعزمنا الذي بعناية الله يزدادُ ويقوَى فرَمى بمخذول من ابناء اخينا عبدِ الله كان رُبِّيَ لديه ، وطوَّحت به الطوائحُ منذ ثمانية عشر عـــاما ، إليْه ، الى مَلِيلِيةَ احدى الثغور المصاقِبة لغرب ممالكنا الشريفة التي هي الى كفالة ولَدنا وولي عهدنا ، كافِل الأمة من بعدنا ، الامير الاجل الأرضى ، صارم العزم المنتضَى ، وحسام الدين الأمضى ، ابي عبد الله محمد الشيخ المأمون بالله وصل الله لراياته التأييدَ والظهور ، والعزّ الذي يستخدم الايامَ والدهور ، فالتفَّ عليه من اغترَّ بأَباطيله الوَاهية البناء ، من اوْباش العامة والغَوْغاء ، ومَن قُضي له من اجناد تلك الناحية بالشقاء جموعٌ تُــكاثِرُ الرَّمْل ، وتفُوتُ الحصا والنَّمْل ، لاح بها للشقي خُلَّبُ بارِق اكذبتْه أُمنيتُه اذ صدَقتْه مَنِيَّته ، فصمَّم نحوَه ولدُنا اعزه الله بجنود الله التي اليه ، وبعساكر تلك الممالك التي القينا زمامَ تدبيرها بين يديه فما راع الشقيَّ الا انقضاضُه عليـــه من الجو انقضاضَ الأجدَل ، وتصميمُه اليـه بعزائم تدكُّ الطودَ وتفْلِقُ الصخر والجَنْدَل فاستولى عليـــه بحمد الله للحين ، وعلى جنوده الاشقياء في يومٍ اغرَّ مُحجَّل وساعةٍ انزل الله فيها على الخوارج المارِقين ،

العذابَ المعجَّل ، فاستأصلتْهم الشِّفار ، وحصَدت هشيمَهم المُصَوِّحَ أَسِنَّةُ النار ، وقُبِضَ على الشقي في يوم كان شِفاءً للصدور ، ومنتزهاً لحملة السيوف وربّات الخدور ، واحرزَ الله تعالى فخر هذا الفتح العظيم ، والمنِّ الجسيم ، لوَلدنا اعزه الله عز وجل في خاصّة اجناده ، ونهض وحدَه باعبائه ونحن على سرير ملكنا وادِعون مطمئنون ، واجنادُنا في اوطارنا لاهُون ومفْتَنُّون ، فلم يَحتجْ الى إنجاده ، من قِبَلنا ولا امداده ، والعاقبةُ للمتقين ، والحمد لله حمدَ الشاكرين .

وعرّفناكم لتأخذوا بحظكم من السرور بهذه البُشرى التي سرَّت الاسلام وساءتْ بحمد الله عبَدةَ الاوثان والاصنام ، وتعلَمُوا مع ذلك ما عليه الاحوال اليومَ بحول الله لدينا من خفْق راياتِ العزم ، وشحْذِ آراءِ الحزم ، وإعمال عوامل الجزْم ، الى مُجازَاة عدو الدين ان شاء الله على فعلته التي عادت عليه أسفاً ولهفا ، واعادةِ ما كان اسلف من ذلك إن شاء الله بالمكيال الاوفى ، وقدمنا اليكم التعريف لتمدونا إن شاء الله بأدعيتكم الصالحة في اوقات الاجابة ، وتحرِصُوا على التماسها هنالك وبالحرمين الشريفين من كل ذي خضوع وانابة ، أنْ يؤيدنا الله على عدو الدين بفضله ، ويُنجزَ لنا وعدَه الصادق في اظهار دين الحق على الدين كله ، ويسهلَ علينا بفضله ومعونتِه اسبابَ فتح الاندلس ، وتجديد رُسوم الدين بها واحياءَ أطلاله الدُّرُس ، حتى ينطلقَ لسانُ الدين في ارضها بكلمة الله التي طالما سكتَ عنها نِداؤُه وخَرِس ، وشَرِق بريقِه

فغُصّ وخنَس ، فبِيَده الحولُ والقوة ، وعنايتُه العناية المرجوّة .

ثم نُوصيكم بحُسْن الوقوفِ مع اصحابنا فيما يُشترى من الكتب العلمية برسم خزانتنا الكريمة الامامية العلية ، ثم الاتحاف بديوان الشيخ والدكم التماساً لجميل بركاتِه ، وتمسُّكاً بما سَبق من الاجازة العامة في سائر منظوماته وموضوعاته ومَرْوياته ، وهذا موجِبُه اليكم ، والسلامُ الأتم مُعَاد عليكم ورحمة الله وبركاته .

توقيعه على كتاب جُؤْذر

لما انتصر جُؤْذَر مولى المنصور الذهبي على اسحاق سُكيَة صاحبِ السودان فرّ هذا أمامه واعتصم ببلده كَاغُو فحاصره جؤذر فطلب الصلح على خراج عظيم يؤديه للمنصور كلّ سنة فكتب جؤذر بذلك للمنصور يستأمِرُه فيه فغضِب المنصور ووقّع على كتاب جؤذر « أتُمِدّونني بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم، الآية. » ثم أرسل القائدَ محمودا باشا وعزَل به جؤذرا وكان الفتح على يده .

كتابٌ للسلطان مولاي الحسن العَلوي

الى قُضاة مراكش من انشاء الكاتب ادريس بن محمد العَمْرَوي

وبعد فقد بلغنا من أخبار مُتَعاضِدة ، وطُرق عن التحامل مُتباعِدة ،

أن خُطَّةَ القضاء والإفتاء صارت مَلْعَبَةً ومتجرا ، لا يعرف أصحابُها فيها سآمةً ولا ضجَرا ، وأن الرُّشا فيها تُقبضُ سرّا وعلانيَة ، والأحـــكام تصدر بنيَّة وبلا نِيَّة ، قد عُدِلَ فيها عن منهاج العَدْل ، من غير اكتراث بتأنيب ولا عَذْل ، والحقوق نَزلتْ بَمعرض الضَّيَاع ، والمراتب المعَظَّمة بهذِهِ البِقَاع ، صارت كسرَاب بِقَـــاع ،[1] وأن بعض القضاة حمَله ما حمَله ، الى التطاوُل للدعاوى البعيدة منه واستجلاب القضايا المصروفة عنه ، وتوْجيه أعوانه للاتيان بالُخصماء من البلاد التي قُضاتها لهم الاستقلال ، ولم يَصدَّه عن الترامي لذلك ما لا يستقلّ به من الأثقال ، مع العلم بأن من صُرِفت عنه قضية ، فقد صرفت عنه بلية ، لو لم يكن الغرض الدنيوي الذي أغراه ، والشرَهُ الذي استحوذ عليه وأغواه ، حتى ظهرت على القضاة أمارات الغنى والرفاهية ، ودهتهم من الميل للزخارف كل داهيـة ، وتبختروا في الحلل والنَّمارق ، وذهلوا عن الأثر المـــأثور « مَن وَلِيَ القضاء ولم يفتقر فهو سارق » كما بلغنـــا أن طائفة من العدول أُذِنَ لهم في الشهادة افتياتاً من غير اعتبار للشروط التي شرطناها ، ولا وقوفٍ مع الحدود التي بيناها وحددناها ، واتُّخِذ منهم ومن الأعوان والوكلاء أشراكٌ للطمع ، وجسور بناها التهور والهلع ، يُمرُّ عليها ما يُلْمَزُ بأجرة الخطاب وحق العلم[2] وتُعَدُّ للاستئثار بها حالتي الحرب والسلم ، هذا مع أنا بالغنا

---

١ – القاع الأرض المستوية . ٢ – يعني تصديق القاضي للرسم وعلامته .

في اختياركم لتطهير الصحيفة ، وابعـــاد ساحة الشريعة عن الأمور الشَّنيعة المُخيفة ، واختبرنا وخَبَرْنا وانتقَيْنا وأبقَيْنـــا ، ولكن صدق الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم « الناسُ كإبلٍ مائةٍ لا تكاد تجدُ فيها راحلة . »

انِّي لأفتَحُ عيني حين أفتحُها على كثير ولكن لا أرى أحدا

فاذا كان أهل العلم تصدر منهم هذه الفِعال ، فأي شيء تركوه للجهال ، واذا كان منصب الشريعة تُحاز به البراطيل[1] وتبدو من جانبه الرفيع هذه الأباطيل ، فأي مَلام يتوجه على عـــامة الناس ، على اختلاف الأنواع والأجناس .

مَن غُصَّ داوَى بشرب الماءِ غُصَّتَه فكيف يصنَع من قد غُصَّ بالماء

كيف ولم تزل تُتْلَى عليكم آياتُ كتاب الله ، وأحاديثُ رسول الله ، أأنتم عنها ساهون أم أنتم عن التذكرة لاهون ، أفلا تتـدبَّرون قولَ الله : « ولا تأكلوا أموالَكم بينكم بالباطل وتُدْلوا بهـــا الى الحكَّام لتأكُلوا فَريقاً من أموال الناس بالِاثْم وأنتم تعلَمُون » وقولَه ﷺ لعَن الله الراشي والمرتشِيَ والرَّائِش أي الذي يمشي بينهم ... هـذا واسألوا عن سِيرَة من تقدم من قضاة هذه الحضرة المراكشية كالفقيه السيِّد محمـد عاشور ، والفقيه السيِّد الطالب بن حَمدون ، فقد كانوا من الدين والخـير بمكَانة ،

---

١ – البراطيل صغار الأشياء والمراد بها هنا الدراهم سميت بها لصغرها .

وأعطَوْا الُخطَّة حظَّها من العَفاف والصِّيانة ، وخرجوا منها بيض الصحائف حُمْر الوُجوه ، فأعرفوا فضلهم ، واقتفوا سبيلهم ، وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ، واعلموا أننا بحول الله لا نزال نبحث عن أحوالكمُ بالتنقيب والتنقير ، ونعاملكم بالتحذير قبل التعزير ، وباللّين ثم الجد ، وبالصَّفْح ثم الحد ، لان الله كلَّفنا بكُم ، وسائِلُنا عنكم وأمور الشريعة عندنا أهمُّ من كل مهم وآكدَ من كل أكيد ، وما على هذا من مزيد ، ان أُريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

توقيعات له

كان رحمه الله كما يُحكى عن المنصور الموحدي حسَنَ التوقيع . فمِمَّا وقَّع به على كتابِ قوْم بالَغُوا في الشكْوى اليه بعبد الله بن موسى وهو مِمن احسَنَ اليه ايامَ كوْنه بِسُوسَ قبل وِلَايته « لَا يَستَوِي مَن انفقَ مِنكُم مِن قَبْلِ الفَتْحِ وقَاتَل »

وكتب اليه الطَّلَبة يَستَأذِنُونه في اقامة نُزْهَتِهم قبْلَ الإبَّان وهُو بفَاس عسى ان يحْضُرَها فوقَّع لهم « حتَّى إِذَا أَخذَتِ الأرْضُ زُخْرُفَها وازَّيَّنَتْ وظَنَّ أَهلُها أَنهم قَادرُونَ علَيْهَا أَتاهَا أَمرُنَا »

ورَفَع اليه أهلُ فاس اعتِذَارَهم عمَّا كان بها مِن الفِتْنَة قَائِلِين إنَّ ذَلك مِن فِعْل السُّفَهاء ، فوقَّع « السَّفِيهُ إِذَا لَمْ يُنْهَ فهُوَ مَأمُور »

وكَتَبَ اليه بعضُ مَشائِخ القبائل وقد أوْقَع بِهم « أَتُهْلِكُنَا بما فَعلَ السُّفَهاءُ مِنَّا » فوقَّع له « وسَكَنْتُم في مَساكِنِ الذي ظَلموا أنفُسَهم »

(ب) الاخوانيات

رسالة للقاضي عياض الى الفتح ابن خاقان

حمّله فيها تحيةً للرئيس ابي عبد الرحمان بن طاهر

عِمادي ابَا نصر ، مُثَنَّى الوزارة ووحيدَ العصر ، هل لك في منة تفوت الحصْر ، تخِفُّ محملا وتُبلِّغ املاً ، وتُشكَر قولا وعملا ، شكراً تترنَّم به الحداةُ ثَقيلاً ورَملاً ، إذا بلغتَ الحضرة العليــــة مُستَلما ، ولقيتَ الطاهرَ ابن طاهر فخرَ الوزارة مُسلِّماً ، وحلَلتَ من فِنائه الأرحب حرماً ، ولَمستَ بُمصافحته رُكْنَ المجد يندَى كرَماً فقِفْ شوقي بعرَفـات تلك المعــارف ، وانسكْ شكري بمشاعر تلك العوارف ، وأطِفْ إكباري بكعبة ذاك الجلال سَبْعاً ، وبوِّىءْ لوُدّي في مَقرٍّ ذلك الكمال رَبْعاً ، وأَبلِغ عني تلك الفضائل سلاما ، يلْتَثِم بصريح الحب التِئاما ، ويُحسن عني بظَهْر الغَيْب مَقاما ، ويسير بأَرَج الحمد إنجادا وإتهاما .

رسالة لابي الحسن بن مروان الرباطي الكاتب

الى ابن الرَّبيب المؤرخ وقد استعار منه نسخةً من تاريخ غريب

يا أخي سدَّد الله آراءَك ، وجعَل عقلك أمامك لا وراءَك ، ما يلزَمُني

من كونك مُضَيِّعاً ان اكون كذلك ، والنسخةُ التي رُمْتَ اعارتَها هي مؤنسي إذا أوحشني النـاس ، وكاتِمُ سرّي إذا خانوني فما أُعِيرُها إلا بشيء أعلمُ انك تتأذّى بفقده اذا فُقِد جزء من النسخة وانا الذي أقول :

أنسُ أخي الفضل كتاب انيق أو صاحبٌ يُعنَى بُود وثيق
فان تُعِرْه دونَ رَهن به تخْسَرْه أو تخسَرْ وِدادَ الصديق
وربّمـا تخسَرُ هـذا وذا فاسْمَع رَعاك الله نُصحَ الشفيق

رسالة لابن هانيء السَّبْتي اجاب بها ابا القاسم الشريف
وكان بعث له بقصيدة هَمْزِيّة فرَدَّ عليه بقصيدة مثلِها وهذا النثر

هذا بُنَيّ ، وَصل الله سبحانه لي ولك علُوَّ المقدار ، وأجرى وَفْق أو فَوْق ارادتك وارادتي لك جارياتِ الاقـدار ، مَا سنَح به الذهن الكليل واللسان الفَلِيل ، في مراجعة قصيدتك الغرّاء ، الجـالبة السرّاء الآخِذة بمجامع القلوب ، المُوفِّية بجوامع المطلوب ، الحسنة المهْيَع والاسلوب ، المتحلية بالُحلَى السَّنية ، العريقة المنتَسب في العُلى الحسنية ، الجالية لِصَدأ القلوب رَانَ عليها الكسل ، وخانَها المُسْعِدان السُّؤْل والأمل ، فمتى حامت المعاني حوْلَها ، ولو اقامت حوْلَها[1] ، شكت وَيْلَها وعوْلَهـا ،

١ – أي عامها .

وحُرِمَت من فريضة الفَضِيلة عَوْلها [1]، وعهْدِي بهـا والزمانُ زمانٌ، وأحكامها الماضية امانيٌّ مقضية وأمانٍ، تتوارد آلافُها، ويجمَع اجماعُهـا وخلافهـا، ويُساعِدها من الألفاظ كلُّ سهل مُمتنِع، مفترق مجتمع، مستأنِس غريب، بعيد الغَوْر قريب، فاضِح الحُلى، واضح العُلا، وضَّاح الغُرّة والجبين، رافِع عَمُود الصبح المبين، أُيِّد من الفصاحة بأَياد، فلم يَحْفِل بصاحِبَي طَيِّىءٍ وإياد، وكُسِي نَصاعَة البلاغة، فلم يعبأ بهمَّام وابن المرَاغة، شِفاء المحزُون، وعِلم السّر المخزون، ما بين مَنشُوره والموزون.

والآن لا مُلهِج ولا مُبهِج، ولا مُرشِد ولا مُنهِـج، عُكِست القضايا فلم تُنتِج، فتَبلَّد القلب الذكي، ولم يرشَح القـلم الزكي وعمَّ الإفحام، وغمَّ الاحجام، وتمكَّن الإكداء والإجبـال، وكُوِّرت الشمس وسُيِّرت الجبال، وعلَت سآمة، وغلَبت نـدامة، وارتفعت مَلامة، وقامت لِنَوْعي الأدب قِيـامة، حتَّى اذا ورد ذلك المُهْرَق، وفَرْعُ غصنِه المورِق، تغنَّى به الحَمام الأووَق، واحاط بعِداد عُداته الغَصصُ والشرَق، وأَمِن من الغَصْب والسَّرَق، وأقبـل الأمن وذهب لاقباله الفَرق، نُفِخَ في صُور أهل المنظوم والمنثور، بُعِثَ ما في القبور، وحُصِّل ما في الصدور، وتَراءتْ لِلأدب صُوَر، وعُمِّرت للبـلاغة

---

[1] – العول في الميراث زيادة السهام على الفريضة فيدخل عليها النقصان بحسب تلك الزيادة.

كُوَر ، وهَمَتْ للَيراعة دِرَر ، ونُظِمَتْ للبَراعة دُرَر ، وعندَها تبيَّن انك واحدُ حَلْبة البيان ، والسابقُ في ذلك المَيْدان يومَ الرِّهان ، فكان لك القِدَم ، وأقرَّ لك معَ التأخر السابقُ الأقدَم ، فوَحقِّ فصاحةِ الفاظٍ أجدتَها حين أوردتها وأسلتَها حين أرسلتَها ، وأزنتها حين وزنتها ، وبَراعةِ مَعانٍ سلَكْتَها حين ملكْتها ، وأرْوَيْتها حين رَوَّيْتَها ، وأوْرَيتها وأصْلَتَّها حين فصَّلتها ، ووَصَلْتَها ونظِام جعلتَه بجَسد البيان قَلبا ، ولِمِعْصَمه قُلْبا ، وهصَرْتَ حدائقه غلْبا وارتكبتَ رَوِيَّه صَعْبا ، ونِثار اتبعتَه له خديماً ، وصيَّرْتَه لِمدير كأسِهِ نديماً ، ولِحفْظ ذِمامه المُدامي أو مُدامِه الذَّمامي مُديماً ، لقد فتَنتْني حين أتَتْني ، وسَبتْني حين صَبْتني ، فذهبت خِفتَّها بوَقاري ، ولم يَرْعها بعدُ شيبُ عِذاري ، بل دعَتْ للتصابي فقلتُ مرحباً وحللتُ لفتنتها الُحبا ، ولم أحفِل بشيب ، وألفيتُ ما ردَّ نصابي نُصَيْبٌ ، وان كنَّا فرسَيْ رِهان ، وسابِقَيْ حَلْبة مَيْدان ، غيرَ أن الجِلْدةَ بَيْضاء ، والمرجُو الاغضاءُ بل الإرْضاء .

بُنَي ، كيف رأيتَ للبيان هذا الطَّوْع ، والخروجَ فيه من نوع الى نوع ، أين صفوانُ بنُ ادريس ، ومحلُّ دعواه بين رِحْلة وتَعْرِيس، كم بين ثُغَاء بقَر الفَلاة وزَئير لَيْثِ الفَرِيس ، كما أَنِّي أعلم قَطعا وأقطَع عِلما ، وأحكم قضَاء وأمضِي حُكما ، انه لو نظَر الى قصيدتك الرائقة، وفريدتك

الحالِيَة[1] الفَائِقة ، المعارَضة بها قَصيدتُه ، المنتَسخة بها فريدَتُه ، لذهب عَرْضاً وطولا ، ثم اعتقد لك اليد الطُّولى ، واقرَّ فارتفَع النزَاع ، وذهبت له تلك العلامات والأطماع ، ونَسِيَ كلمته اللُّؤْلؤية ، ورَجــع عن دعواه الأدَبية ، واستغفر ربَّه من الأُلْهِية .

بُنَي ، وهذا من ذلك ، ومن الجري في تلك المسالك ، والتبسُّط في تلك المآخذ والمتَارك ، أينزع غيري هذا المنزع أم المرءُ بنفسه وابنه مُولَع ، حيا الله الأدَب وبنيه وأعادَ علينا من أيامه وسِنيه ، ما أعلى منَازعه ، وأكبرَ مُنازعه ، واجلَّ مَآخذه ، واجهلَ تاركه واعلمَ آخِذَه ، وارقَّ طباعه ، واحقَّ أشياعه وأتبـاعه ، وأبعـد طريقه ، وأسعدَ فريقَه ، وأقوَم نَهجه ، واوثَق نسْجه ، وأفصح عُكَاظه ، وأصدقَ معانِيَــه والفاَظه ، وأحمدَ نظامه ونِثارَه ، وأغنى شعارهَ ودِثاره ، فعائِبُه مطرُود ، وعائِبهُ مصْفُود ، وجاهِله محصُود ، وعالِمــهُ محسُود ، غيرَ ان الإحسان فيه قليل ، ولطريق الاصابة فيه عَلمٌ ودليل ، مَن ظفِر بها وَصل ، وعلى الغاية القُصوى منه حصَل ، ومن نكَب عن الطريق ، لم يُعدَّ من ذلك الفريق ، فليهنِك أيها الابن الذكي ، البَرّ الزكي ، الحبيب الحفِيّ ، الصفي الوفي ، انك حامل رايته ، وواصِلُ غايتــهِ ، ليس أوّلُوه وآخِرُوه لك بمنكِرين ، ولا تجدُ أكثرَهم شاكِرين ، ولولا ان يطول الكتــاب ،

١ – الحالية المحلاة غير العاطلة .

وينحرفَ الشعراء والكتّاب ، لفاضتْ ينابيعُ هــذا الفصْل فَيْضاً ، وخرجتْ الى نوعٍ آخرَ من البــلاغة أيضاً ، قرَّت عيونُ أودّائك ، ومُلئَت غيظــاً صدورُ أعدائك ، ورَقيتَ درَج الآمال ، ووُقيت عينَ الكمال ، وحُفِظ منصبُك العالي بفضل ربك الكبير المتعـالي ، والسلام الاتمّ الانمّ ، الأكمل الاعمّ ، يخصُّك به مَن طال في مــدحه إرقالُك واغْذاذُك ، وراض روضَ حمْدِه وابلُك وطَلُّك ورَذاذُك ، وغــدت مصالِحُ سعْيِه في سعْي مَصالحك وسينفعك بحول الله وقوتِه وفضله ومنتِه مَعاذُك ، ووسَمْتَ نفسَك بتلميذِه فسمتَ نفسُه بانه استاذُك ، ابنُ هانِىء ورحمةُ الله تعالى وبركاتُه .

رسالة لابي جعفر الجنّان المكناسي بعث بها لابن الخطيب

وقد فاتحه بنظيرتها محرّكاً قريحته

يا خاطِبَ الآداب مهلاً فقد ردَّك عن خِطْبتها ابنُ الخطيب

هل غيرُه في الأرض كُفءٌ لها وشرْطُها الكُفاةَ قولٌ مصيب

أصبح للشرْط بهــا مُعرِساً فاستفْتِ في الفسْخ فهل من مُجيب

أيها السيد الذي يُتنافَس في لقائه ويُتغالى ، ويُصادَم بولائه صرفُ الزمان ويُعالى ، وتُستنتج نتائجُ الشرف بمقدّمات عِرْفــانه ، وتُقتنَصُ شوارِدُ العلوم برواية كلامِه فكيف بمُداناة عِيــانه ، جلوْتَ عليَّ من

بنات فكرك عقَائِلَ نَواهِد ، واقمتَ بها على معارِفك الجمَّة دلائـل وشواهـد ، واقتنصتَ بشوَارد بديهتك من المعـالي أوابدَ شَوارد ، وفجَّرْتَ من بلاغتك وبَراعتك حياضاً عذْبة الموارد ، ثم كلّفتْني من اجراء ظَالِعي في مَيْدَان ظَلِيعها[1] ، مُقابلةَ الشمس النيرة بالسِّراج عند طلوعها ، فأخلدتُ إخلادَ مَهِيض الجناح وفررتُ فِرارَ الأعزل عن شَاكِي السلاح ، وعلمتُ أنني إن أخذت نفسي بالمقابلة ، وأدلَيْتُ دَلْوَ قريحتي للمُساجلة ، كنتُ كمن كلَّف الأيامَ رجوعَ أمسها ، أو طلب ممَّن علتْه السماء مُحاولةَ لمسِها ، وإن رَضيتُ من القريحة بسجيَّتها وأظهرتُ القدرَ الذي كنتُ امتحتُ من رَكِيَّتها ، أصبحتُ مَسْخرةً للرائين والسامعين ، ونَبَتْ عن اسمي دواوينهم كما تنبُو عن الأشيَبِ عُيونُ العِين ، ثم إن امرَكَ يا سيدي ، لا يُحَلُّ وَثِيقُ مُبْرَمِه ، ولا يَحِلُّ نسخُ مُحكَمه ، فامتثلتُ امتثالَ من لم يجدْ في نفسه حرَجا من قضائك ورجوتُ حسنَ تجاوُزك واغضائك ، ابقاك الله قُطْباً لِفَلَك المكارم والمآثر وفصًّا لخاتم المحامد والمفاخر والسلام .

•

[1] – الظالع الضعيف المشي والضليع القوى الشديد ، ويقال لا يبلغ الظالع شأو الضليع .

رسالة للقاضي ابي عبد الله الفشتالي الى ابن الخطيب

جواباً عن مخاطبة مَدْحٍ وثناءٍ بعث بها إليه

وافتْ يجُرُّ الزَّهوُ فَضْلَةَ بُردِها ... حسناءُ قد أضحت نسيجةَ وحدِها
لله أيُّ قصيدة أهديتَ لوْ ... يُهدَى المعارضُ نحوَ غاية قصدِها
لابن الخطيب بها محاسنُ جمة ... يلقَى الخطيبُ فهَاهةً في عدِّها
سرّ البلاغة منه أودِعَ حافظاً ... قد صانَه حتى فشَا من عندها
في غيْر مَا عقدٍ نَفثْت بِسحرها ... فلِذَا أتى سلْسا مُنظَّمُ عِقْدها
لم ادرِ ما فيها رقمتَ معنوناً ... من طِرْسها أو مُعلَما من بُنْدها
حتى دفعتُ بها لأبعد غايةٍ ... باعاً تَقاصر في البلوغ لِحدِّها
حُرَّان من نظْم ونثْر إن من ... يَلقاهما يرجعْ بذِلَّة عَبدها
أولى يداً بيضاء مُولِيها فما ... لي قدرة حتى اقوم بحمدها
ورفضتُ تكذيب المنى متشيعا ... لِعَليِّ مرءاها بصادِقِ وعْدها
فبذلتُ شعري رافعاً من قدرها ... وهززت عِطْفي رافلاً في بُردها

خذْها اعزَّ الله جنابك ، وادَال للأُنس على الوحشة اغترابَك ، كنَغْبَة الطائر المُتحفِّز ، ونَهبة السائل المُستوفِز ، ومَقَة اللحظ ، قَلِقَة

اللَّفْظ ؛ قد جمعت من التزامِها وانْقِحامِها بين بُطءِ فِنْد[1] ، وصُلُود زَنْد ، ونوّعتْ فِعلَى إقدامِها وإحجامِها الى قاصرٍ ومُتَعدّ . وليتَني إذ جادت سحابةُ ذلك الخاطر الماطِر الوَدْق ، وانجاب العَشا عن قريحة فكرتي بتقاضي الجواب انجياب الطَّوْق ، أيقنتُ اني قد سُدَّ عليَّ باب القول وأُرتِج ، وقلت هذه السالبة الكلية ، لا تُنتِج ، فنبذتُ طاعةَ الداعية من تِلكم الإمْرَة ، ولم أُفهْ اذا أعوزَت الحلْوَة بالمُرَّة . لكنّي قلتُ وُجدُ المكثر كجُهْد المُقِلّ ، والواجب يكْفي الامتثالُ فيه بالأقلّ ، فبعثتُ بها على عِلَّاتِها وابلغتُها عذرها في أن كَنَتْ عن شوقها بلُغاتها ، وهي لا تعدَمُ من سيدي اغضاءَ كريم وإرضاءَ مُليم ، والله عز وجل يصِلُ بالتانيس الحبْل ، ويرُدُّ الألفة ويجمع الشمل والسلام الكريم يخُصُّ تلك السيادة ورحمة الله وبركاته .

رسالة لعبد العزيز الفشتالي بعث بها الى المقّري

صاحب نفح الطيب جواباً عن كتاب كتبه له قبيل تشْريقِه

يا نَسمةً عطَست بها انفُ الصَّبا	فتضمَّخت بعبيرها قُنَنُ الرُّبا
هبّي على ساحاتِ احمد واشرَحي	شوقي الى لُقياه شرْحا مُطنَبا
وصِفي له بالُمنْحنَى من اضلُعي	قلْباً على جمْر الغَضا مُتقلِّبا

[1] — فند هو اسم مولى لعائشة بنت سعد بن أبي وقاص يضرب به المثل في البطء .

بَانَ الأحبةُ عنه ، حيٌّ قد ثَوى منهم ، وآخرُ قد نأى وتغيَّبا
فعسَاك تُسعِد يا زمانُ بقُربهم فأقول أهــلاً باللقاء ومرحبا

السيادة التي سوَّاها الله مِن طينة الشرف والحسب ، وغرَس دَوْحتها الطيبة بمعدن العلم الزاكي المَحْتِد والنسب ، سيادة العالم الذي تمشي تحت علَم فتياه العلماء الأعلام ، وتخضع لفصاحتـــه وبلاغته صَيارِفَةُ النثر والنظام ، وحملة الاقــلام ، كلَّما خطَّ أو كتب . واذا استطار بفكره الوقَّاد سواجِعَ السَّجع انثالت عليـــه من كل أوْكارها ونسَلت من كل حدَب ، وحكَت بانسجامها السَّيل والقَطر في صَبب ، الفقيه العالم العلَم ، والمحصل الذي ساجَلت العلماءُ لِتُدرك في مجال الإدراك شأوَه فلَمْ ، سيدنا الفقيه الحافظ حامل لواء الفتيا ، ومالك المملكة في المنقول والمعقول من غير شرط ولا ثُنْيا ، أبو العباس احمد بن محمد المقري ابقاه الله تعالى للعلم يفْتضُّ أبكارَه ، ويجني من روضه اليانع ثماره . سلام عليكم ورحمة الله تعـــالى وبركاته كتبَه المحب الشاكر عن ودّ راسخ العــهاد ، ثابتِ الاوتاد ، مزهوّ الأغوَار والأنجاد ، ولا جديد إلا الشوق الذي تحنُّ الى لقياكم ركائبه وَترْتاح ، وتَحُوم على موْرِد الانس بكم حَومَ ذات الجناح على العذْب القَراح ، جمع الله تعالى الارواح المؤتلِفَة على بساط السرور وأسِرَّة الهنا ، واتاحَ للنفوس من حسن مُحاضرتكم قَطْف المُشتهَى وهو غضُّ الجنَى .

وقـــد اتصلَ بالمحب الوَدُود الرَّقيمُ الذي راقت من سَواد النَّقش

وبياض الطِّرس شِيَاتُه ، وأرانا مُعْجِزَ أحمدَ فبهرَت آياتُه ، وخبا سَقْط الزَّنْد لما أشرقَتْ من سماء فكركم آياته ، فاطرَبنا بتغريد طيُور همزَاته على أغصان ألِفاته ، وعوَّدْنا بالسَّبْع المثاني بَناناً أجادت نَثْر زَهراتِه على صفَحاته ، ثم مررنا بتضاعيفه بسُوق الرقيق ، فرمنا السلوكَ على منحاها فعَمِي علينا الطريق ، وقلنا واهاً على سُوقِ ابنِ نُباتة وكسادِ رقيقها ، واستلابِ البهجة عن نفيس دُرَرها وأنيقِها ، لاكسُوق نفَق فيها سوقُ الغزل ، وعلا كَعْبُ الرامح والأعزَل ، وتظافَر على سحر النفوس والالباب هاروتُ الجدوَمارُوتُ الهزْل ، وقد القينا السِّلاح وجنَحنا للسلم وتهيأْنا للسباحة فوقفنا بساحل اليمّ ، وسلَّمنا لمن استوت به سفِينةُ البلاغة على الجوديِّ ، فأبنا والحمد لله على السلامة بالفهَاهة والعِيّ ، وقُلنا ما لنا وللانشاء ، فهو فضلُ الله يؤتيه من يشاء .

وعذراً أيها الشيخ عن البَيْت الذي عطَست به أنفُ الصبا فقذفت به البديهة من الفَم ، وشرِقتَ به صدرُ قناة القلَم ، كما شرِقَت صدرُ القناة من الدَّم ، واَمَّا ما تحمَّل الرسول من كلام ، في صورة مَلام لا بل مُدام ، أُترِعَ به من سُلاف المحبة كأسٌ وجَام ، فلا وربِّك ما هي إلا نفحةٌ نفحَت ، لا سَمُوم لفَحت ، هززْنا به جِذْعَ ادبكم كي يتساقَط علينا رطْبا جَنيّا ، ويهمِي وَدْقه على الرَّبع المحيل من أفكارنا وَسْمِياً ووَلِيّا ، فجاد وأرْوى ، وأجاد فيما روَى ، وأحيا من القرائح ميْتا كان حديثاً يُروَى ، وطِرْسا بين أنامل الأيام يُنشر ويُطوى ، أحيا الله تعالى قلوبنا

بمعرفته ونوَاسِم رحمته ، وعرَج باروا حنا عند المهات الى المحل الأخصّ بالمؤمن من حضرته .

وأهدي السلام ، المُزْري بمِسْك الختام ، على الفقيهين الأمجـــدين ، الصدرين الأنجدين الفذين التَّوْأمين ، الفاضلين المُجيدين ، فارِسَي البراعة واليراعة ، ورئيسي الجمـــاعة في هذه الصناعة ، رَضِيعَيْ لِبانِ الأدب وواسطتَي عِقْده ، ومُجيلِي قِدْحه المُعَلَّى ومُورِيَي زَنْده ، المتَّعين بشميم عَراره ورَنْده ، الكارعيْن بالبحر الفيَّاض من هزْله وجِـــدِّه ، الآتيين بالجنس والفصل من رسْمه وحدّه ، الكاتب البارع ابي الحسن سيدي علي ابن احمد الشامي ، والكاتب البليغ ابي عبدالله سيدي محمد بن علي الوجدي ، واُقرِ لهما الودَّ المستحكم المعَاقِد ، الصافي المنَاهِل العذبَ الموارد ، واني قائمٌ بورْد الثَّناء عليكم وعليهما لدَى المقـــام العلي الامامي الناصري دام سلطانُه ، وتمهدت أطواره وأوطانُه . وننهي اليكم ان الفقيه المحب الاستاذ سيدي محمد بن يوسف طلْقُ اللسان بالشكر صادح على أيْك الثناء عن تلكم السيادة بما اوليتموه به من جزيل الإحسان ، وقابلتموه به عند الورود والصدر من البشر والكرامة وجميل الامتنان ، والسلامُ التامُ معَادٌ عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

رسالة للاديب محمد ابن ابراهيم الفاسي الى الشهاب محمود الخفاجي

جواباً عن كتاب بعثَ به إليه

بعد تقبيل ثُريا ذلك الثّرى ، الذي عبق في الشام عنْبرا ، وقلّد جِيدَ الزمان دُررا ، لا زال منبَع البيان ، ومنتجع الأعيان ، ولا برِحَ جوهرُ حصبائه يُفضِّله العيان على قلائد العِقيان ، هــذا وَصل إليّ وَصل الله اليك أسبابَ العُلا ، وألبَسك رائقَ الحلى ، كتابُك الخطير في رُقعة من محاسن لفظك الرائق الجلباب ، المُزري برَوْنق رَيّق الشباب ، وبَهجةٍ من بدائع خطّك المستوقف للنــاظر ، المخجل بحُسْنه الوَشْيَ الفـاخر ، والروضَ الناضر فأجْنَاني ثمرَ البِرّ يانعـــا ، وجلا علي وَجْـهَ الود ابيضَ ناصعا .

وأرَاني كيفَ انقيادُ القوافي في زِمام البيان سمعاً وَطوْعا

وفتَح لِلْمُخاطبة بابا طالما كنتُ له هيّابا ، ورفَع حجابا ترك القَلْب وَجّابا ما زلتُ أُغازِلُها أمَلا ، فلا أطِيقُ لها عمـلا ، وألاحِظُها أمَدا ، أذوبُ دونه كمدا .

وفي تعَب من يحسُد الشمسَ نُورَها ويزعُم ان يأتي لها بِضَرِيب

لا جرَم انه اقتضاني خالصَ ود وصحيحَ عهد ، لم يلتفت مني الى

مَعْذِرة ولم يكلْني الى ما في الوُسع من المَقْدرة ، وقد يعودُ على علمك بحرُ القريحة ثَمَدا ، وحُسامُ الذهن مِعْضدا ، فتكلفتُها بحكم هـذا الغرام تحت حصر ونازِح بصَر ، فان سمحتَ بالاغضاء ، وسامحتَ في الاقتضاء ، سلمتُ لك اليد البيضاء وظهرتُ لشكرك بالفضاء ، وأما العـذر الذي توخيتُ ولا عدمت شرحه وحميتُ بقوة الكلام سَرْحه ، فاني غنيٌّ عن تكلُّفات إيضاحه ، ومدّ أوْضاحه ، فالذي يثبُت في النفوس ، من الود المَصُون المحرُوس ، لا يُخشَى عليه من تسلُّط الطُّموس والدُّروس ، ولا أقول ان ودي لك كالتِّبر إذ لا يصفُو ما لم يَشُبْهُ لهيبُ الجمر ، ولا كالراح ، حيث يفتقر في الرقَّة الى المسَاء والصَّباح ، بل اقول ان ودي لك ابيتَ اللعن ، كالفُرات العذْب ، يشفِي غليل القلب ويُطفِي لهيبَ الصبّ ، يحلُّ بالارض الميتة فيُحْيِيها ، ويمرُّ بالروضة الذابلة فيُتوِّجها بالازهار ويُحلِّيها ، وأنتَ أعزك الله لا تثْريب عليك إذ كلٌّ يعمل على شاكِلَتهِ ، ويجرِي في أُموره على مقتضى مَرْتبته ، فان حُنوَّ السيد ، وانت ذاك ، يُستكثر قليله ، واخلاص العَبْـد ، وهو أنا يُستحقَر كما علمتَ جلِيله ، والحب أغلَب ومعرفة المرء نفسه أصوَب .

وان تفضلتَ بالاستفسار عن احوال العبْـد فان الحال في خَيْر ، والمـآل يعلمه الله تعالى ، وبالجُمْلة فسَهمُ المصيبة ان سدَّده الدهر ، فعلى مثلِه وقَع ، والتألُّم بمثل هذه الحالة قد ارتفع :

ولم أرَ مثل الصبر ، أمّا مذاقه فحُلْوٌ ، وأمّا وجْهُه فجميل

وكذلك كلُّ من دعا الصبر لما شاء أجاب ، وأراه من نشْره الأُفق المُنْجاب ، وأقامه بين مَبَرَّات وَأَلطاف ، وأعطاه مما أحب جَنِيَّ قِطاف ولله در القائل :

يعيشُ المرءُ ما استغنَى بخير   ويبقَى العُودُ ما بَقِي اللِّحاءُ

وهو الدهر لا يُرَدُّ عن مراده ، ولا يُصادَر في إصداره وإيرَادِه :

فيومٌ علينا ويومٌ لنا   ويوم نُساء ويوم نُسَرُّ

على ان طُول الغَيْبَــة ليس لشيء عَلِمَ اللهُ آثرته على لُقياكم إذْ استَبدِلُه طَوْعاً لكنَّه ارتكابٌ للأَخفّ من الضررين ، واختيار للأَهون من الشرَّين :

عسَى غلطاً يَثْني الزمانُ عِنانَه   بدَوْر أُمور والأمورُ تدُور
فتُدرَكُ آمالٌ وتُقضَى مآرب   وتَحدُث من بعد الأمور أُمور

فلذلك قَنِعت من البحر الوَشل ، وسرَحتُ في رياض المُنَى بين عسى ولعل ، فقد قيل إذا دارَ الفلَك ، فعليك أو فَلَك ، ولله في خلقه أمر لا تُدرك العقولُ حكمتَه « وهو الذي يُنزِّلُ الغيثَ من بعد ما قَنَطُوا وينشر رحمته » وما اجتليتُه في كتابك الخطير وروض خطابك المطير ، استدعى شيئاً من نظم العبْد ونثره ، والتنويه بذلك من خامِل ذكره ، فلا عدمتُ منك مولى على الإحسان مُثابِراً ، وحكيماً لكَسْر

إكْسِير الخاطر جابراً ، مع تشتُّت الحال لبُعْد مَزارك ، ونأْيِ دَارِي عن دارك ، وأُقسِم اني صمَّمتُ على التغافل عن الجواب وهو الأوْلى بالصواب ، إذ ليس بلَبِيبٍ من يَقِيسُ الشِّبْر بالبَاع والجبـانَ بالشجاع ، وكيف لا وكلٌّ من تكلف فوق طاقتِه افتضَح لساعتـه ، لكن عـدَمُ الامتثال مَحذور ، والمُلْجَأ الى ما لا يُطاق مَعذُور ، فتكلفتُ ما يُعرضُ عليك من المُسَمَّطات سوى القصائد المُشار اليها بذكر بعضها فانهـا متقدمةَ على ورود مُشَرِّفَتِكم ومثلك من سَدّ الخلـل وتجاوز عن الزلل ، والله يُبقِيك ، ومن كل سُوء يَقِيك والسلام .

(ج) (المتفرقات)

رسالة للقاضي أبي موسى بن عمران

المتوفى سنة ٥٧٨ الى وَلَـد له بفاس قد ناهَز الحُلم

الى ولدي فلان ، هداه الله وصانَه ، وجمَّله بالعلم والتقوى وزانَه ، كتبتهُ اليكم عن اشتياق كثير ، وبَمشيئة الله تعالى تَتيَسَّر الأمور ، ويتكاثف السُّرور ، وإذا وجدْتُكم على ما أُحِبُّه من أدوَات الحفظ والأداء ، ولِزَام آداب العقلاء ، جازيتكم بما يُرضيكم ، وبما يزيد على اقصى تمنِّيكم ، وقد اجمعت الأيمَّة على ان الراحة ، لا تُنال بالرَّاحـة ، وان العلم ، لا يُنال براحـة الجسم ، فادرُس ترؤُس ، واحفَظ تُحفَظ ، واقْرَأْ تَرْقَ ،

ومهما رَكَنتَ الى الدَّعة ، كنتَ في أهل الضَّعة ، وما رأيتَ النـــاس مُجتمعين على حَمْده فاجتَلِبْه ، وما رأيتهم مجتمعين على ذَمّه فاجتنِبه ، والأعدَلُ الأقسَط ، ان تسلُك السبيلَ الأوْسَط :

وما المرءُ إلا حيثُ يجعلُ نفسَه ... ففي صالح الأعمال نفسَك فاجْعَل

رسالة ابي جعفر بن عطية الى عبد المؤمن يستعطفه بها

عطفاً علينا أمــيرَ المؤمنين فقد ... بانَ العزاءُ لِفَرْط الهم والحــزَن
قــد اغرقَتْنا ذنوب كلُّها لُججٌ ... ورحمة منكم أنجى من السُّفُــن
وصادفَتْنا سِهامُ البَيْن عن عَرضٍ ... وَعطْفَةٌ منكُم أوْقى من الُجــنن
هيهـاتَ للخطب ان تسطو حوادثُه ... بِمن أجارته رُحمــاكم من المِحَن
مَن جـاء عندكم يسعَى على ثقـة ... بِنصره لم يخَــفْ بطْشاً من الزمن
فالثوبُ يَطهُر بعد الغسلِ من دَرَن ... والطَّرفُ يُرهَص بعدالرَّكْض في سنَن
انتم بــذلتُم حياةَ الخلق كلِّهم ... مِن دُون مَنّ بهـا كلّا ولا ضنَن
ونحن من بعض من احيَتْ مكارِمُكم ... كلتا الحيَاتَيْن مِن رُوح ومِن بَدن
وصِبْيةٍ كفِراخ الوُرْق من صِغَر ... لم يألفُوا النَّوْحَ في فَرْع ولا فَنَن
قد أوجــدتْهم أيادٍ منك سالِفة ... والكلُّ لولاك لم يُوجَد ولم يكُن

تالله لو احاطت بي كلُّ خطيئة ، ولم تنفكَّ نفسي عن الخيْرات بطِيئة ،

حتى سخرتُ بمن في الوُجود وانِفْتُ لآدَم من السجود ، وقلتُ ان الله لم يُوحِ ، في الفُلْك الى نُوح ، وأبرَمتُ لاحتطاب نار الخليل حبْلا ، وبرَيْتُ لِقُدارِ ثمُودَ نبْلا[1] ، وحطَطتُ عن يونس شجَرةَ اليَقْطِين ، وأوقدتُ مع هامانَ على الطين ، وقبضتُ قبضةً من أثَر الرسول فنبَذتُها ، وافتَرَيتُ على العذراء البتُول فقذَفْتُها ، وكتبتُ صحيفة القَطِيعَةِ بدَار النَّدْوَة ، وظاهرتُ الأحزَاب بالقُصْوى من العُدْوَة ، وابغَضتُ كلَّ قُرَشي ، واحببتُ لأجل وَحْشيّ[2] كلَّ حبَشي ، وقلتُ بأن بيعَة السَّقِيفة ، لا تُوجِبُ إمامَة خَليفة ، وشحذتُ شفْرَةَ غلام المُغيرة بن شُعْبة ، واعتلَقْتُ من حِصَار الدار وقتْل أشمَطِهَا[3] بِشُعْبَة ، وقلتُ تقَاتَلوا رغبةً في الأبيض والأصفر ، وسفَكوا الدماءَ على الثَّريد الأعْفَر ، وغادرتُ الوجهَ من الهَامَة خَضيبا[4] ، وناولتُ من قَرعَ سنَّ الحسيْن قَضِيبا ، ثم كنتُ بحُفْرَةِ المعصُوم لائِذاً ، وبقَبْرِ المهديّ رضي الله عنه عائذا ، لقد آن لِمقالَتي ان تُسمَع ، وأن تُغفَر لي هذه الخَطِيئاتُ أجمع ، مع اني مُقْترِف وبالذنب مُعْترِف :

فعفواً أميرَ المؤمنين فمَنْ لنَا ... بِردِّ قُلوب هدَّها الخفقَانُ

والسلام على المَقام الكريم ورحمةُ الله وبركاته .

---

١ – قدار هو اسم عاقر ناقة صالح .

٢ – وحشي هو قاتل حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد وكان مولى حبشيا لجبير بن مطعم

٣ – يريد به عثمان (ض)

٤ – يشير الى اغتيال علي كرم الله وجهه .

رسالة أبي الخطاب بن دِحْيَة

الى وَالِي بجَايَة يسأله تسْريح خديم له أُخِذَ في غزاة البَحْر
وقد ارتكَب فيها غريب اللغة على عادته (*)

الشيخ الفقيه الأديب الجحْجَاح[١] الهرْمَاس[٢] أبو فلان ، جحْمَظ[٣] الله قَعْثَبانَ[٤] شَفْتَرَتِه[٥] .

هذا الغِطْريس[٦] في اليَمّ[٧] أخـذ رجلا لا يملك حَذْرَفُوتا[٨] فيرى الزِّبْرِقَان[٩] فيخاله حُوَّارَى[١٠] ويرى الجُعَل[١١] فيحسبه زَعْبجاً[١٢] وله[١٣] قُرحة أمْحِشَت[١٤] من الحر ، وتعطل كَفْرُها[١٥] فابعَثْ الى هـذا العَثِريّ[١٦] من يَخضِدُ[١٧] شوكته والسلام .

(*) أنظر ترجمته وبحث العلوم اللغوية في عصر الموحدين في الجزء الأول .

١ - السيد ٢ - الأسد ٣ - لف وشد ٤ - القعثبـان الكثير من كل شيء ٥ - الشفترة التفرق والتكسر - فالمعنى على الدعاء له بجمع متفرق أمره ٦ - المتكبر الظالم ٧ - البحر ٨ - أي شيئاً ٩ - القمر ١٠ - الحوارى الدقيق الأبيض ويراد هنا الرغيف المصنوع منه ، ١١ - ضرب من الخنافس معروف ١٢ - الزعبج الزيتون ١٣ - الضمير يعود على الرجل ، ١٤ - أحرقت وقشرت ١٥ - أي سترها وبرؤها ١٦ - هو الذي لا هم له في دنيا ولا آخرة ١٧ - يقطع .

رسالة الى عبد الواحد المراكشي

من صديق له صبيّ لم يبلغ الاحتلام ، يخبره ببعض الفتوح

كُتِبَ من منزل سُوس وقد تبلَّج فجرُ الفتح فأسفر ، وقال فريقُ الضلال وشيعَتُه أين المفر ، وقد ألقى النصر جِرانَه ، وأعزّ الله حزبه المؤيَّد وأعوانه ، وشرْحُ الحال على غاية الايجاز ، لأَجل الاستعجال في انهـــاء هذه البشائر والانحفاز ، أن الناكثين النابذين للعُرْوَة الوُثْقَى ، المتمسكين بالسبب الأشْقَى ، حاصرَهم الموحـــدون أنجدهم الله ، أشدَّ الحصار وقطعُوا عنهم موادَّ المعائش وزَرافاتِ الأنصار ، ولسانُ التأييد يتلو علينا بالعَشِيّ والإشراق ، (ما ينظر هؤلاءِ إلا صَيْحةً واحـــدةً مالها من فَواق) ولِحينِ ما أخـذ الموحدون أنجدَهم الله في حسْم دائهم العُضال ، وجرَّدوا لهم من عزَمَاتهم الصادقة ، ما هو أمضى من النِّصال ، طاحوا مُجدَّلِين بالحضيض ، ومـــلأَ جُثمانُهم الفضاء العريض ، وخيَّب الله ظنونهم الكاذِبَة وآمالَهم ، وصيَّرهم الى أُمِّهم الهاوية فكانت أولى لهم ، ذلك بأنَّهم اتَّبعُوا ما أسخط اللهُ وكرِهوا رضوانَه فأحبط أعمالهم وأمكن الله من رأسِ ضلالهم المدعوّ بأبي قَصبَة ، فقهَره الحزب المنصور وغلَبَه ، وحزَّ الحسام منه قُنَّةً ورقبَة ،

عَقْدُ تَوْبةٍ لِميمون الخطّابي[1]

يقول العبد الذي اعترَف بما اقترَف لمولاه، وأقرّ له بما أضاعه لا بما أطاعه على ما منحه من النّعم واوْلاه، الميمونُ بنُ علي الخطّابي، جبَر اللهُ بالتقوى كَسْرَه، وفكّ من حبائل الدنيا أسْرَه، لم ازل مدةَ أيام بل عدّةَ أعوام، اخالِلُ كل مُخلّ بديني، واستظِلُّ من إطالة البَطالة بكل ظلٍّ مُضِلّ يُرْديني، واخالِفُ كلَّ صالح مصلح، واحالف كلَّ طالح غير مُفْلح، واجرُّ اذيالَ المجُون على ارض الراحة، وأُطلِقُ عِنان مُهْرِ الغفلة في مَيدان النسيان فيُطيلُ جماحه ومَراحه، راكباً مَطايا التّسْويف دون إهمال، مستوطِئا فَرْشَ الكسل والانهماك في الشهوات والانْهمال، مستوطنا رَبْع التصابي بقلة الأعمال وكثرة الآمال، سالكا سبيل الهزْل وطريقَه، تاركا قبيل الجد وفَريقَه، لا أثني عِناني، الى ما يَعْنيني، ولا ازال أُعاني، ما يُعَنّيني، ولطائفُ الله عزّ وجل التي يضيق عن حمل اصغَرِها الامكنةُ الفسيحة، ولا يُطيقُ بلوغَ شُكْرها الالسِنةُ الفصيحة، ضاحِيةُ الورُود، ضافِية البرُود وقد طُنبّت عليّ قِبابُها وارواقُها، وخُلِعَت بعنُقي ثيابُها واطواقُها واطّردت بماء النعمة مَذانِبُها

---

١ – لبهلول المجنون حديث يشبه ان يكون هو الأصل لهذا العقد فانظره ان شئت في كتاب عقلاء المجانين لابن حبيب النيسابوري .

وانهارُها ، وتساوَى في القُدوم بالكَرم ليلُها ونهارُها ، وأنا مع ذلك لا ازيد إلا غفلةً عن القصد السُّنِّي وسهْواً ، ولا استزيد الا اشتغـالاً عن المقصود السَّني ولَهْوا ، الى أن أجرى الله عادةَ احسانه وجُوده ، وأرادت مُرادَاتُه السائقة السابقة اخراجَ العبد المذكور من عدَم الغفـلة الى ظهور الإلهام ووُجوده ، فسلَّط رعْد الخوف على سحائب سمائِه فكشفَها وجلّاها ، وحلّ بساحة أرضها سُكْر السلُو فسكَّرها من سواه وخلَّاها ، وقلَّد اجيادَ فكره بقلائد حمدِه وشكرِه وحلَّاها ، وسلَّ من سُوَيْـداء قلبه محبَّة غيره فنزَّهها عنه وسلَّاها فلاحَ إصباحُ النجاح وآذَن ليـلُ الغفلة بالصباح ، ونادى مُنـادي الوُصلة بمنار العُزلة حيَّ على الفلاح ، وصاح كالِئ صبح النُّجح بالسَّفر المُعرِّسين شُدُّوا المطِيَّ فقد سال نهرُ النهار ، ومال جُرُف الليل وانْهار ، وانفجر عمودُ الفجر بنوره الوَضَّاح ، فلَاح ، فافاق العبدُ المذكور من نوم الرُّكون ، الى السكُون والكَرى ، وشمَّر للسير ذُيولَه وضمَّر للسبق خيولَه إذ سمِعَ عنـد الصباح يَحمدُ القومُ السُّرى .

ثم كتبَ العبد المذكور عقْدا وعهِدَ مع المولى الجليل عهْـدا ، وهو على خوْف ووَجل يسأله ادراك ما أمَّله ، والوصول الى ما أمَّ له ، ويتبرَّأ من حوْله وقوته اليه ، ويتوكل في جميـع اموره عليه ، ويقف بِقَدم الندم بين يديه ، معترفاً بما كان له مقترفاً ، وراجياً ان يكون من بحر الاحسان لدار الامتنان مُغترِفا ، والعَقْد المذكور :

هذا ما اشترى المولى اللطيف الجليل، من العبد الضعيف الذليل، الميمون ابن علي، اشترى منه في صَفْقَةٍ واحدة دون اسْتِبْقاء ولا تَبْعيض، ولا استثناء بتصريح ولا تعريض، جميعَ المنزل المعروف بمنزل القلب والفؤاد، الذي مِن سكانه الاخلاصُ والمحبة والوداد، حدُّه من القِبْلة قبولُه الأوامر المطاعة، ومن الشرق لزومُ السمع والطاعة، ومن الجنوب الاقبالُ على ما عليه أهلُ السنة والجماعة، ومن الغرب دوامُ المراقبة في كل وقت وساعة، بكل ما يخصُّ هذا المبيعَ المذكور ويعمُّه، وينتهي اليه كل حد من حدوده ويضُمُّه، من داخل الحقوق وخارجها، ومداخل المنافع ومخارجها، وبكل ما له من الآلات التابعة له في التصرُّف، والحواس الجارية معه في حالَتيْ الاضاعة والتشرف، السالكة مسلكَه في التنكر والتعرف، من يدين ورجلين، ولسان وشفتين، وعينين واذُنين، اشتراءً صحيحاً تاماً، شائعاً في جميع المبيع المذكور وعاماً، ثبتت قواعِدُه، وظهرت بالتسليم الصحيح شواهِدُه، بلا شرط ولا ثُنْيا ولا خِيار، ولا بُقْيا مع حظ نفس ولا اختيار، بثمن رتَّبته العناية الربانية، ونسَخَتْه المشيئةُ الإلاهية، بين عاجل وآجل، فالعاجلُ العونُ على كل مندوب ومفترض، والصوْنُ عن كل غَرض وعرَض، والثناء على النعم الظاهرة والباطنة، واهداءُ الآلاء المتحركة والساكنة. والآجِلُ الفوزُ بالدار القدسية، والحضرة الأُنْسِية، التي فيها ما امتدّ به جناحُ التواتُر بالخبر الصادق وانتشر، ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطر

على قلب بشر ، من النعيم السَّرمَدِي ، والحبُور الدائم الأبدي .

سلَّم العبد المذكور هذا المَبِيع المذكور تسليما تبرَّأ فيه من المَلَكَة، ورفع به يدَ الاعتراض عما يفعل المولى الجليل فيما مَلَكَه ، وايقن انــه المتصرف فيــه في سره وجهره ، وعلم ان المُلْك المذكور تحت يــد عزّته وقهْره ، يُجري فيه أحكامه القاهرة ، ويُنفِّذ فيه قضاياه الباهرة ، ومقتضى قدرته الظاهرة ، وقد احاط المولى الجليل بهذا المبيع المذكور ، احاطــةَ ظُهور ، ولم يخفَ عليه شيء من قليله وكثيره ، وجليله وحقيره ، ومَبانيــه ومَساكِنه ، ومتحرِّكه وساكنه ، واطلع عليها اطلاع عليم قـدير ، « ألا يَعلَمُ مَن خلق وهُو اللطيفُ الخبير » .

ولما أسلم العبد المذكور المبيعَ المذكور وامضاه ، واستسْلم لمولاه فيما حكم به وقَضاه ، تفضَّل عليه مولاه وغمَره بجوده العميم واولاه ، وجعل له السُّكْنى بهذا المنزل المذكور مدةَ حياته ، والاقامةَ فيه الى حين مماته ، واتيانِ وَفاته ، اذ يستحيل على المولى الجليل الحلولُ في شيء ، أو السكونُ الى شيء ، وهو مُوجِد كلِّ شيء وخالق كل مَيّت وحيّ ، ومُريــد كل رُشْدٍ ومُقدِّرُ كل شيء[1] به قِيامُ جميعُ العبيد ، وعن قَدَرِه غناهم وفقرُهم لانه الفعَّالُ لمـا يُريد ، وهو مُيَسِّرُهم لليسرى فمنهم شقيّ وسعيد ، وله الغِنَى عن كل شيء وهو الغنيُّ الحميد .

١ – كذا ، ولعله غي ،

وقد أمر المولى الجليل بخدمة هذا المنزل المذكور خدمةَ التقرّب اليه ، وجعل له التصرّفَ فيه لقبول امره للفوز بما لديه ، وبهذا المنزل المذكور بسَاتينُ تسمَّى بَساتينَ الاخلاص ، وجنّات تُعرف بجنات حضرةِ القَلب المعروف بمحلّ الاستخلاص ، التزم العبد المذكور تسهيل أرضها من شوْك الشِّرْك والارتياب ، وتذليلها من حجَر العُجب والاضطراب ، في حالَتي الحضور والغياب ، وتَنْقيتها من أعشاب الحسد والحقْد والكِبْر ، وزوال ما فيها من عَوارض الغِشّ والخديعة والمكْر ، وان يقطع منها كلَّ عودٍ لا منفعة فيه بحديد الفكر ، مثلَ عُودِ الحِرْص والطمع ، ويغرسَ مكانَه شجرَ الزهد والورع ، ويُقلّم اغصان الميْل الى الأدران والاقذار ، وافنانَ الركون الى الأغيار والاكدار ، وقُضْبانَ السكون الى الشهوات والاوطار ، ويفتَح ابوابَ البَذل والايثار ، بمفاتِح الجود الحميد المساعي والآثار ، ويُطْلِق يَنابيعَ التوكُّل على مَصْرِف الاقدار ، وان يَخدُم ما توَعرَّ من سَواقِي مياهها الإخلاصيّة وحِيَاضِها ، ويَمشي بالمصلحة المصلحة لدَوْحاتها وغِيَاضِها ، ويفجّر بها مياه الصفاء من الأكدار ، المتَّصِلة بساقِيَة الوَفاء في الايراد والإصدار ، والمُلاصِقَة لِسَاقية ترْك الجفَاء في هذه الدار ، حتى يبدُوَ إن شاء الله صَلاحُها ، ويكثُر ببركة الله إصلاحُها ، وتَهبَّ بقبول القَبُول أرواحُها ، وتثمِرَ بجَنَى المُنى أدواحُها ، فتُنبِت قرَنْفُل التنقُّل ، وعُودَ التقبُّل ، وآسَ الأُنس

والسَّوْسان ، ويَاسمينَ اليأس من كل انسَان ، ونُعْمَانَ النعمة التي لا يصفها لسان .

وقد علِمَ العبد المذكور أنَّ بخارج هذا المنزل حرَس الله ايمانه ، وادام أمانَه ، جيْشاً يُغيرُ عليه في مَسائه وصباحه ، وينتهِزُ فيه الفُرْصةَ في غُدُوِّه ورَواحه ، ويقطعُ جادَّة السبيل بالمرور عليها الى حضرة الملك الجليل ومَلِكُ هذا الجيش المذكور النفسُ الكثيرةُ الأغراض ، الميَّالةُ الى ما يعرِضُ من الأعراض ، المعتكِفَةُ على المَشارِب المُهلِكة والإعراض ، وخادِمُ الملك المذكور الشهوةُ الموقوفة على خدْمته ، المعدودةُ في أعلى خزَنَتِه ، ووزيرُه المفاخرة ، وزِمَامُه المنافسة في زهرة الدنيا وحاجِبُه المكاثَرة ، وقَيِّمُ جيْشه المقدَّم ، وفارِسُه الاقدَم ، شجاعُ الغَضب ، الذي عنده يتولَّد الهلاك وبه يكون العطب . وطلبَ العبد المذكور من مولاه الامدادَ بعساكِرِ العَزْم ، وفوارِس الحزْم ، ورغبَ منه الاعانة بكتائب السَّداد والتوفيق ومَواكِبَ الرُّشد والتحقيق ، وارسالِ جيُوش الاصطبار ، وفوارس الانتصار في مَيادِين الاختبار ، والتدرّع بدُروع الأذكار ، وجَوَلان خيْل السعادة في ميادَين الاختيار ، والعَوْن بأعلام العِلم ، والسكُون في حِصْن الحِلم ، حتى يُذهِبَ حدَّةَ النفس ويُزِيلَ كيْدَها ويُميتَها في المجاهَدة بسيوف المُجادَلة ويقطع قوتَها وأيْدَها ، أو يمدَّ يدَ التسليم بقهرها واضطرارها ، وينطِقَ بلسان اعترافها واقرارها ، أنها اسقطت جملةَ دعوَاها واختيارها ، ودخلت تحت امتثال الاوامر

الربانية ودخـــل من باب اللطف في حَرمِ كَرمِ الإلاهية ، فمر الظهورُ بذلك نفسَه ، واظهر الحضُورُ انسَه ، حتى تتطهر النفس المذكورة من الاخلاق العَرَضية ، وتترَقّى عن الأغيار الأرْضية ، وتَظْهر عليهـــا الشمائل الحميدة والشِّيَمُ الرَضية ، وتُنادى : «يا أَيتُها النفسُ المُطمَئِنَّةُ ارجعِي الى ربك راضِيَةً مَرْضِيّة »

اشهَد على إشهـــاد البائع المذكور مَن اشْهَدَه به على نفْسِه عارفاً بِقَدْرِه ، في صِحَّتِه وطَوْعِه وجوَازِ أمرِه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

اهداء ابي القاسم الشريف ديوان شعره الى ابن الخطيب

الحمد لله الكبير المتعال ، فهو المسؤول ان يَعصِمنا من خطلِ القول وزلَلِ الاعمال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأرسال ، هـذه أوراق ضَمَّنتُها جمـــلةً من بنات فكري ، وقطعاً مما يَجيشُ به في بعض الاحيان صدري ، ولو حزَمتُ لأضربتُ عن كتْبهـــا كلَّ الاضراب ، ولزِمْتُ في دَفنِهـــا واخفائهـــا دِينَ الأعراب ، ولكني آثرتُ على المحو الإثبات ، وتمثَّلتُ بقولهم : ان أحسن ما أُوتِيَتْه العرَبُ الأبيات ، واذاَ هِيَ عُرِضَتْ على ذلك المجد ، وسأَلها كيف نجَتْ من الوَأد ، فقد اوَيْتُها من حرَمِكم الى ظل ظليل ، وأحللتُها من فِنائكم الى مُعَرَّسٍ ومَقيـــل ،

وأهديتها عِلْما بان كرمكم بالاغضاء عن عيُوبها كفيل ، فاغتَنِمْ قليــل الهدِيَّة مني ان (جُهْدَ المُقِلّ) غيرُ قليل ، فحسْبُها شرفا ان تبوّأت في جنابك كنفا وداراً ، وكفاها فخرا ومجدا ان عقدت بينها وبين فكرك عقْدا وجوارا .

كتاب الاستاذ ابن حكم السلوي الى المقّري الجدّ

وكان بعث له بمحرّر للبيع فسأله ابداله باحرام تونسي

الحمد لله الذي أمر عند كل مسْجد باخذ الزِّينَة ، وصلواتُه الطيبة ، وبركاته الصيّبة ، على مَن ختم به شريعتَه واكمل دينَه ، وعلى آله واصحابه الذين اتبعوه والذين يتّبعُونه ، وبعد فما تعلّق به الإعلام ، ان تُعَوِّضوا المحرّر بإحْرام ، لا يخفى على مِثلكم جِنْسُه ومُجَانِسُه ، ومن كلام العرب: كلُّ ثوب ولَابِسُه ، وان أرْبى على ثمن الاول ثمنُ الثاني ، فلستُ عن الزيادة والحمد لله بالوَانِي .

رسالة لأبي بكر بن شبرين

الى ابي الحكَم بن مسعود وهو شاهد بالمواريث يُداعبه فيها

أطال الله بقاءَ أخي وسيّدي لأهل الفرائض يُحْسِن الاحتيـالَ في مُداراتهم ، وللمنتقلين الى الدار الآخرة يأمرُ بالاحتيــاط في أمْواتهم ،

ودامت أقلامُه مشروعةً لِصَرْمِ الأجل المُنْسأ مُعَدَّة لتحليل هـذا الصنف المنشأ ، من الصَّلْصال والحمأ ، فمِن مَيِّت يُغسَل وآخرَ يُقبَر ، ومن أجل يُطوى وكفن يُنشر ... فكلما خربت ساحة ، نشأت في الحانوت راحة ، وكلما قامت في شِعْب مَناحة ، اتَّسعت للرزق مِساحة ، فيُباكر سيـدي الحانوتَ وقد احتسى مرقته وأسبل عَنْفقته ، ... فيلْحَظُ هـذا برفق ، وينظرُ الى هذا شزْراً ، ويأمر بشق الجيوب تارةً والبحث عن المنـاطق أخرى ، ثم يأخذ القلم أخذاً رفيقاً ، ويقول وقد خامره السرور : رحم الله فلانا لقد كان لنا صديقاً ، وربما واراه بالازعاج الحثيث ، وقال مستريح كما جاء في الحديث[1] ، وتختلفُ عنـد ذلك المراتب وتتبيَّن الأصدقاء والأجانب ، فينصرف هذا وحظه التهديد ، والنظر الحديد ، ثم يغشى دار الميْت ، ويسألُ عن الكَيْت والكَيْت ، ويقول عليَّ بما في البيت ، أين رِعاءُ الثاغية والراغية ، أين عتود الأملاك بالبادية ، وقد كانت لهذا الرُجل حال وأيُّ حال ، وذُكر في الأسماء الخمسة فقيل ذُو مال ، وعيونُ الأعوان ترْنُو من خلَـل ، وأعناقهم تشرئبُّ الى ما خلفَ الكِلَل ، وأرجلهم تدبُّ الى الأسْفاط دَبِيبَ الصَّقْر الى الحجل ، والموتى قـد وجبَت منهم الجنوب ، وحضر الموروث والمكسوب ، وقُيِّـد المطعوم والمشروب ، وعُدَّت الصِّحاح ، ووُزِن بالارطال ، وكيل بالأقـداح ،

١ – يشير الى حديث مستريح ومستراح منه وقد ورد في موت المؤمن والفاجر .

والشهود يُغلِظُون على الورثة في الأَلِيَّة ، ويُسيئونهم بالسباب في النشأة الأَولية . والروائحُ حينئذ تفغَم الارض طيبا وتهدى الى الأَرواح شذى يفعل في الأَبدان فعلا عجيباً ، والدَّلالُ يقول هذا مِفْتاح الباب، والسَّمْسَار يَصِيحُ قام النداء فما تنتظرون بالثِّيَاب ، والشاهد يصيح فتعلو صَيْحته والْمُشرِفُ يشرف فتسقُط سُبْحَتُه ، ... ثم يشْرَع في تقسيم الفَرض ، ولو أُكفئت السماوات على الأَرض ويقال لأَهل السهام أحسنوا فان الإحسان ثالث مراتب الإسلام ، وقد نصَّ ابنُ القاسم[1] على أخذ أجرة القَسَّام ، وسوَّغه أصْبَغُ[1] وسَحْنُون[1] ، ولم يختَلِف فيه مُطرِّفٌ وابنُ الماجِشُون[1] ، ولعل الخروج الى الانبساط يجرُّ عذراً ، ونسأل الله حمدا يوجِبُ المزيد من نعمائه وشكرا ، والله يَصِلُ عزّ أخي ومجدَه ، ويهَبُ له قوّةً تخصُّه بالفوز عنده ، ويَزيدُه بصيرةً يتبع بها الحقوق الى أقصاها ، وبصراً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ، ودام يعُدُّ الخراريب[2] والفلوس والأطمار[3] ، ويملأ الطّوامير بأقلامه البديعةِ الصَّنْعة ، ويَقْرِنُ الطوُّمار بِالطومار ،

---

١ – ابن القاسم والأعلام الأخرى كلها أسماء لفقهاء مالكية معروفون في عالم القضاء والفتوى ٢ – الخراريب من قبيل الفلوس . ٣ – الطومار الصحيفة .

المقامات

مَقامَة الافتخار
بين العشر الجوار ×
لعبد المهيمن الحضرمي

برزتُ يوماً لخارجِ بلد فاس الأشهر ، وانتهيتُ الى واديها المعروف بوادِي الجوهر ، فلم يكن غيرَ بعيد ، وإذا بمحفِل يرتجّ بالغيد ، وقد دار بينهن عِتاب ، بألفاظ تعجز عنها ألسِنَةُ الكتّاب ، بيضاء وسمرا ، في مُفاتَنة كبرى ، وكامِلة وقصيرة في مُعاطاة كثيرة ، وسمينة ورقيقة ، في معاتبة حقيقة ، وعربية وحضرية ، في مُجادَلة قوية ، وعجوز وصبية ، في مخاصمة بذية ، فبينما أنا أنظر في تلك الوجوه المُشرِقة والقدود المُروَنقة ، واذا بجارية يغلبُ ضياءُ وجهها ضياءَ الشمس ، فوقفت بين الصفوف وسلّمت ببنانها الخمس ، ثم تقدمت وقالت :

الحمد لله الذي جعل البيَاض طِرازَ كلّ جمال ، وشرّف أهله بالحياء والكمال وأعطاهم عِزّةً لا تبيد ، وصيّر السُّمْرَ لهم عَبيد ، ألا

× لم نظفر بنسخة صحيحة لهذه المقامة الا نسختين شديدتي التصحيف وقد بذلنا جهدنا في تصحيحها وسبكها بما يقربها من صنع كاتبها البليغ .

وإنّ على قلبي جمرة ، من مُعاتبتك يا ذاتَ السُّمْرة أَعِنـدَكِ يا سمراء ما عندي ، وليس قدُّك كقدي ولا خدُّك كخدي ، جَبيني ذو ابتهاج ، وذَوائِبي كقطع الزَّاج[1] ، ورشْحُ عرقي كمِسْكٍ اذْفر ، يرشح من تحتِ البُرْد والمِغْفَر ، وثَغْري أُقحْوَان ، وديباج وجهي أرْجُوَان ، وان أسبَلتُ شعري المَضْفور فظلامُ ليل على بياض كافُور ، ثم أنشدت :

قلْ للذي أزرَى بأهل البياض ما أنتَ إلا باطلُ الاعتراض
فوردُ خدي أبداً زاهرٌ في كل فصْل فوقَ خدي رياض
يا حاسِدي مُتْ كَمَداً انما تُجنَى المُنى من الخدود الغِضاض

ثم سلمتْ بالبَنان ، وأمسكت العِنان ، فتقدمت السمراءُ وحطَّت اللثام ،عن وجه شَهيٍّ الالْتِثام ، وأبلغت في السلام ، وأقبلت تواضُع على رُؤوسِ الأَقدام ، فوقفت كالغُلام وأفصحتْ في الكلام ، وقالت :

الحمدلله الذي خلق الانسان في أحسَن تقويم وجعله أفضل الحيوان ، وفرَّق بين الصور والالسنة والألوان ، وزيَّن الأبيض بشعر كالغَسَق ، وامتدَادِ الحاجِبَين وسوَاد الحدَق ، وأجَلَّ ما يقف له العاشقون اجلالا ، ويرتجلون فيه الأشعار ارتجالاً ، مِسْكَةُ الخَال ، وعَقْرَبُ الدّلال ثم

---

١ – الزاج عقار يصنع منه المداد .

التفتت الى البيضاء وقالت : يا أشبهَ شيءٍ بجُبْن الرُّوم ، أخرقْتِ حجاب الأُشْرُوم[١] ، ما زال طعامُكِ قليلَ المِلْح ، وجفنك كثير الرَّشح ، ولبَنُك أذى ، وعسَلي أنا غِـــذا ، ولوني لونُ الخمر ، وطعْمي طعمُ التَّمْر ، ثم أنشدت :

الحمد لله ليس التِّبْرُ كالوَرق	قد أحسن الله في خلْقي وفي خُلُقي
فالجسم مني نُضار صِيغَ منظرُه	بمسكة فغدا طِيباً لمنتشِق
يا مَن يعيِّرُنا باللون إنَّ لكم	جهلا يقود الى الطُّغْيان والحُمُق
كم أسمرٍ قلبُه كافورة وله	من السَّعادة نجمٌ لاح في الأُفق

فلما فرغت من كلامها ، وما أبدعته من حسن نظامهـــا ، تبرقعَت بنقابها ، وسلمت على الصفَّيْن ، وقبَّلت أساريرَ الكفَّين ، وإذا بجـــارية تتخطىَّ الرِّقاب ، بعد أن حطَّت النقاب عن ديبـــاج صَقيل ، ورنَت بطرف كحيل ، ومالت بقدّ قويم ورِدْف ثقيل ، فسمعتها تقول : اليكم يا ذوي العقول ، فلعلَّكم تحكمون بيني وبين هذه القصيرة ، فانهـــا عَميَّةُ البصيرة ، تعيب الكمال ، وهي الطبقةُ الثانيـــة من الجمال ، ثم قالت في الثناء على ذي الجلال وأجادت في المقال :

الحمد لله فالِق الاصباح من بعد الغيوم ، لا اله إلا هو الحي القيُّوم،

---

١ ــ لعله يعني الفرج فان من أسمائه الشريم ولم نقف على الأشروم .

وصلى الله وسلم على محمد نبيه الذي ارتضاه لنفسه حبيباً وخليلا ، وأرسله لجميع خلقه نبيا ورسولا ، ثم قالت : أين هذه التي تعيبُ ما لا يُعاب ، وتدخِلُ نفسها في الأمور الصِّعاب ، لا تُحجب عينُ الشمس بالغِرْبال ، والثعلبُ لا يُقابل بالأشبال ، يا هذه خِطابُك إليّ من غير الواجب ، ألم تسمعي أن العين ولو عَلَتْ فوقها الحاجب ، فإلى كم يا زَريعةَ يأجوجَ ومأجوج ، يكون فرسُكِ معي للشرّ مَسْروج ، ثم صالت وما اعتدت فأنشدت :

نحن قوم لنا بهاءُ البُنود	ولدينا تفاخُرٌ بالقُدود
كلُّ زَيْن أزينُه بكمالي	وجمالي وغُنْج لحظي وجيدي
وإذا ما القِصارُ قُلِّدْنَ حلياً	صار كالدر في نُحور القُرود

فلما أتمت كلامها ، وأنهت نِظامَها ، اذا بالقصيرة قد أقبلت تجرُّ أذيالها وتُواتِرُ أقوالها ، فوَلوَلتْ وصاحت ، وأعلَنت بما في ضميرها وباحت ، ثم قعدت على أعلى مكان ، وتكلَّمت بأفصح لسان ، فقالت تخاطب الطويلة : يا شقيقةَ الزَّرافه ، إلى كَمْ تُطيلين هذه الخُرافة ، يا ناقة العشير[1] ، وقصبةَ النَّشير[2] ، ويا كامِلةِ الصَّاد[3] ، وقليلةَ القُصَّاد ، نحن

١ — العشير الزوج والمقصود تشبيهها بالناقة في الطول .

٢ — لعله يريد القصبة التي يرفع بها حبل الغسيل حين ينشر وبالنشير يعرف في لسان العامة .

٣ — الصاد داء يصيب الابل فتسيل انوفها فتسمو برؤوسها .

أهل المعاني الرِّقاق وفِتنةُ العشّاق ، وعلى منظرنا طـلاوَةٌ ، ورونقٌ وحلاوَة ، فأرَى لك من الرأي والتدبير أن تأخذي معي في التقصير ، فان الله تعالى خلقَ الكامل والمتوسِّطَ والقصير ، على أن القِصَر والكمال ، انما هو في الأفعال ، ثم قعـدتْ على أعلى مكان ، وتكلمت بأفصح لسان ، فقالت :

الحمد لله الملك الكبير ، الذي ليس له حاجبٌ ولا وزير ، وصلى الله وسلم على محمد نبيه وعلى آله ما هبَّ نسيم وفاحَ عبير . ثم أنشدت :

غِزْلانُ الأُنْسِ ذَوُو القِصر	وشِفاءُ النفس مـعَ البصر
فيعيشُ القلبُ بمنـظرنا	وتقرُّ العـين من النظر
وإذا ما الروضَ أتيتَ فلُذْ	بقِصار القَدِّ من الشجر
إيَّاكَ النخـلَ فانَّ لهـا	طُولاً يهديكَ إلى الغَرر

وبينما هما في طويل من الكلام وعريض ، يتنازعان أبياتَ القريض ، إذا بضجيج ، كضجيج الناس في الحجيج ، والناسُ قد تطاولتْ أعناقُهم ، وشخصت أحداقُهم وإذا أنا بقلاّع ، يسوق مركبا مَوْسُوقا بالسِّلاع ، فقلت ما هذه السفينة ، فقيل لي هذه الجارية السمينة ، فـدار المحفِل عليها كالحلقة ، فقلت سبحان من لا يملُّ من خِلْقة ، فحطت من القلق رداءها ، وغاظت بأعكَانها حُسَّادها وأعداءَها ، وقد تكلل العرق على جبينهـا

كدُرّ الحباب، وفتنت برَوض خدِّها ذوي الألباب ثم قالت :

الحمد الله باسط الرزق وسابغ النعم المنفرد في دَيْمُومِيَّته بالقِدم ، والصلاة على خِيرَته من خلقه سيِّدِ العرب والعجم، صلاةً تُنجي العبد يوم المُزْدَحم ، ثم اعتمدتْ بكفِّها على عِطفها ، ومالت كالبحر الزاخر ، فقدَّمت المقادم وأخَّرت المواخر وقالت : أين هذه المسفولةُ الصوت، الواقفةُ بين مَيْدان الحياة ومَيْدان الموت المنفوضة اللحم ، التي حُرِّم عليها كما حُرِّم على بني اسرائيل الشَّحم ، المُنَغَّصةُ العيش ، الكثيرة الطيش ، الضعيفة المِخاخ ، الشديدة الفخاخ ، النحيلة من غير عِلَّة ، الهزيلة من غير قِلة ، كُفِّي يا مَسقومة عني هذه الغرارة ، واعلمي أن على جسمي من الزينة نضارة ، أقتنص بها القلوبَ من غير حِيلة ولا إدارة ، ونهْدي وأعكاني ، يُغنياني عن الشُّورة[1] في أركاني ، ثم أنشدت :

الحمد لله في سرّ وفي علَن	حمداً يخلصني من ظُلمة المحن
قدنلتُ ما أشتهي في الدهر من أرب	في العقل والقلب مني ثم في البدن
ان البَهاء يزينُ الخلق منظرُه	كما تُزان حُلى الأشجار بالدِّمن
أرحتُ قلبيَ من همّ ومن سهَر	وساعد السعدُ بالأفراح في زمني
يا من تعوّذَ بالتوْبيخ كُفَّ فما	يُشَبَّه العَجْفُ في الأنعام بالسِّمَن

١ - الشورة زينة العروس وثيابها وحليها وما تصحبه معها من متاع لبيت الزوج.

وذهبت لتجلس ، فما استقرَّ بها القعُود ، الاَّ وَجارية وقفت كأنهـا كوكب السعود ، تبتهج باللطف والابتسام ، وتضطرب كما يضطرب الُحسام، وتبسمُ عن ثغر كاللَّثال ، ريقه كالعذب البارد الزُّلال ، ثم قالت : إليَّ إليَّ يا معشر العشاق فعَلى مثلي تُندَبُ الأطلال ويَجري الدمُ الُمرَاق ، وحمدت الله عز وجل بقولها :

الحمد لله الذي أَودع الحكمة في النفوس الرِّقـــاق ، باعثِ الَخلق وناشِرهم يوم التَّلاق ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المخصوص بالحوْض والشفاعة واللواء والبُراق ، ما حدَا حادٍ وساق الركبَ اليه مشتاق ، يا مَن حضَر في مجلسنا ، ولاذ بأنسِنا ، أسمعتَ مقالةَ هذه العاهَة ، وما ظهر منها من قلَّة النزاهة ، هذه التي تفتَحُ فمها مثلَ التِّمْساح ، وتبلَعُ القَرْع وتخرُجها صِحَاح ، وان قرُبَ منهـــا الرجل لَمقْصَدٍ أوْسُول ، غرقَ في بحر بَسُول ، قلبها بالعَلف هائم ، كما تفعلُ البهائم . ثم أبرقت وأرعدت ، وقالت فانشدت:

يا َعاهةً ليس لها من َخـــلاق	هواكِ قد أنساكِ يومَ التلاق
والحشَر والنشر وأهوالَه	وَخجْلةَ العبد وخوْفَ الَمساق
لو كان للقلب به فكرَةٌ	لكان للجِسْم ضَنىً واحتراق
نحنُ رِقاقٌ في النفوس ولا	يَرقٌّ قلبُ الصبِّ الَّا ورَاق

ثم قالت : وما حِيلَتُك أيتهـا العاهَةُ إذا جاوزتِ الأربعـــين ،

وأتتك العِلَلُ بجيش ظاهر غير كمين ، وقد تدلَّتْ منك الحواصل ، وهجرك الصديق المواصِل ، وتكمَّشت منك الحلاقم ، وتفرقت على أعضائك البلاغم ، وتعطَّلت منك القوائم ، فلا تتحركين إلا بعَجلة ودعائم ، وأنشدت :

إذا رقَّ الحسام قضى وأمْضَى	وخطَّ بحدِّه جيدَ النِّفاق
وان رَقّ الزُّجاجُ وَراق فيه	رَقيقُ الخمر لذَّ لكل راق
فتُبصِرُه نحيلاً في نحيل	ويعظُم فِعْلُه عند المذاق

ثم اني سمعتُ صوتاً يصيح ، ويقول بلسان فَصيح :

مهلاً رُوَيْداً يا جميعَ من حضر	حتى اقولَ بين بَدْوٍ وحَضَر
من هُنَّ رباتُ الخدود الناضِرة	ذاتُ الخيام أو نساءُ الحاضرة
نحن جوارٍ من بنات البادية	مَلامِحُ الحسْن علينا بادية
فان بدتْ منكنّ لي مَكَلِّمة	أنا التي أردُّها مَكلَّمة

ثم حطَّت اللثام ، عن وجه يشبه البدر ليلة التمام وقالت :

الحمد لله الذي أمرُه بين الكاف والنون ، الحاضر الناظر القاهر الذي بيده ملكوت كل شيء واليه تُرجعون ، وصلى الله على النبي الذي نوَّر الأفئدة فأبصرت البصائر وقرَّت العيون ، وأنشدت :

قــد مالَ الُحسْنُ الى العَرب — نحنُ الأقمــارُ بلا كَذب

فلنَا أَرَجٌ ولنـــا غَنَجٌ — ولنـا دَعجٌ بالسِّحْر حُبِي

ولنـــا كرَم ولنا هِمَم — ولنـــا ذِمم للمكْتئِب

ولِقَــاصِدِنا فينـــا أَرَب — فيما يرجـــوه من الأرب

قد شرُف مَحْتِدُنَا وكفى — أن الُمختـــارَ من العرب

صلِّ ما دمتَ عليه تفُزْ — يوْمَ الأهوال من الكَرب

ثم قالت : نحن ربّات القلوب ، ومُنتهى غاية كلِّ مطلوب ، جمالُنا أبدعُ جمال ولسانُنا أَفصح لسان ، فالعربيةُ بهذا البيان قَمَرٌ في شكل انسان . وسكتت فاذا بجارية حضرية ، ذاتِ جمـــال فائق وهمّة سنية ، نادتْها : كُفِّي عن الجدال ، ودَعِي هذا الاحتيال ، فان مَن بالُمعـــاطاة يلُوذ ، كمن يدخُل بجهله في زُقاق غير منفوذ ، إياكِ أن تذكري في هذا المحفل نسبا أو قبيل ، وان اردتِ أن تفتحي للحرب باباً فانا على السَبيل ، واعلمي أن رُعيان الجِمال ، لَا يفتخرُون بحسن ولا بجمال ، ثم قالت :

الحمد لله الذي فضّل على البادية الحاضرة ، وأعطانا الراحة في الدنيـا وأعاننـا على طريق الآخرة ، وخصّنا بأحسن المـلابس وأيمن المواطن ، وأمّن قلوبنا في الظاهر والباطن ، ووَشّحنا بالَحلى والُحلَل ، وأسكَننـــا في القصور والدور في ظل الُحجب والكِلل ، واشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له عـــدَّةً للقائه يوم تكون النفوس حاضرة ، والوجوهُ

الناضرة الى ربِّها ناظِرة ، وصلى الله على محمد وعلى آله وأصحابه واصهاره ، وأزواجه وحزبه وأنصاره ، وقالت : ما أُعطيَت الهمة السنية ، إلا للجارية الحضَرية ، خدِّي مُورَّد ، ونحرْي مُفنَّد ، ولا يَرى صدري العابدُ الزاهد إلا تنهَّد ، ثم أنشدت :

أَلَا انما الُحسنُ حسْنُ الحضَر ... علينا ومنّا وفينا ظَهر
فان كنتِ يا هذه نجمةً ... بأعلَى السماءِ فاني قمَر
بسِحْرِ الُجفون وغُنج العيون ... أُسُلُّ القلوب كسَلِّ الشعر
ومِن ليْل شَعْري ظلامُ المسا ... ومن وَجنتَيَّ الصبَاحُ الأغر

فلما أتمت الحضرية الأبيات ، وقد أفصحت في المبادىء والغايات ، اذا بهزة عظيمة في المحفل ، كادَ يرجع أعلاه منها أسفَل ، فأتت عجوزٌ قد اشتبكت مع صبية ، وبينهما مُعاطاة ومجادلة قوية ، والصبية تُنادِي وتقول : كثُر الحمق وقلّت العقول ، يا قومِ اعدِلُوا بيني وبين هذه العجوز ، بكلام يتعقَّل ويجوز ، فقالت العجوز : يا هذه الزَمِي الوقار ، وكُفِّي النِّقار ، فأنا أفصحُ منك وأعلم ، وأسبق وأقدَم ، ولا أَحقَّ بالتعظيم ، مِمن له الحق القديم ، ثم قالت :

الحمد لله راحِم الشيْب ، وساتِر العيْب ، وجامع الناس لِيَوْمٍ لا شكَّ فيه ولا ريب . أنا من ذواتِ العُهود والمواثق ، اجمعُ بين المعشوق والعاشق ، وأُزَوِّجُ العرائس ، وأقبل النفائس ، وأُشرِّف المجالس ، ولا

تجري السفينة إلا بمحاولة الرائس ، ألجم الرجل بالشكيمة ، وأردّه في الأركان يدور كالبهيمة ، على أني أقضي له المثارب والأوطار ويجدُ عندي كلّ سلعة لا توجد عند العطّار ، وأرفعُ المؤن والوظائف ، ولا أطالبه بشيء من التكالف ، وأقنعُ منه بالزّبيبة ، وأكون له تارةً محدّثة وتارةً طبيبة ، فانظري أيتها الصبية من يكون لك عون ، ولا تمشي على أثري فتغرقي كما غرق فرعون ، فاني أكثرُ منك بحثاً عن المناسِب ، ولي معرفة وذهن ثاقب ، وان شئتِ منـــاظرتي ومناضلتي ففكري في العواقِب ثم أنشدت :

أمنْتِ الدهر يا بنتَ الزّواني	وصار لك البها نُصْبَ العيان
فكم طفل قضى في خفض عيشٍ	وأخلف ظنّه بعـــد الأمان
اللهُ العرش عمّـــرني وأبقى	سعودي ثم ساعـــدني زماني
جررتُ الذيل في زمن افتخاري	ونزّهتُ الجفـــون بمهرجان
وانّي اليـــوم من ستين عاما	ولكني أعـــدّ من الحسان
فيومٌ في المجالس باتّعـــاظ	ويوم في المحـــافل والمغـــاني

(قال الكاتب) وكانت العجوز مخضوبةَ البنان ، مسوّكة الفم وليس لها أسنان ، مصبوغة الحاجب والسالف ، تندُب على ما فاتهـــا في الزمن السالف ، ثم أنشدت ، فأجادت فيما قصدت :

إذا جفَّ لَيْنُ التِّين يحلو مَذَاقُه ... وأحلَى مَذاقاً في الثمار العجَائِز

عجزتُ وليس القلب مني عاجزا ... واني لِمن قد رام حربي مُبارِز

فطَعْمي ذَكِيٌّ طيِّبُ النَّشْر عاطر ... وانسان عيني للمُحِبِّين غامِز

ثم قالت : وان أردت يا هذِه المجون والرَّقاعة، فأنا واللهِ ربَّةُ الصناعة وأستاذَةُ الجماعة ، وإذا بالصبية قد أتت تدرُج درْجَ القطا على الأقدام ، وتبدَّت فأقبلت اقبالَ العام ، ووَردت وُرودَ الغنى على أهل الإعدام ، وهي تزْعم بنفسها كما يزعم البطل المقدام ، إذا ساعدته الأيام، ترمق بلحظٍ نائمٍ وتفعل بأشفارها في قلوب العاشقين ما تفعلُه الصوارم ، ثم نادت : أيتها العجوز الشَّمْطا ، يا من كشفَت بعيبها عن نفسها الغِطا ، أَمَا قنِعتِ يا عجُوز ، يا نَشُوز ، أما كَفاك ، سدَّ الله بالشَّوْك فاك ، هيهاتَ هيهات يا عجوز ، يا بِنْت الدُّروز ، أن يكُونَ لكِ بعد الهرم طلَق ، أو يكون الجديد مثلَ الخلَق، أما رأيتِ شعْري الفاحم ، وثَغْري الباسم وغُصْني الناعم . ثم حطت النقاب ، فأخرجت الشمسَ من تحت السَّحاب، وقد سلمت على القوم فأفصحت ، وقالت فأوضحت :

الحمد لله الذي غرَس ريحانة الشباب ، في قلوب ذوي الالباب، ثم قالت ، وللعجوز أشارت : ويْحكِ لو كنت تبكين على ما مضى ، لكان لك أقرب الى الرضى وأنشدت :

نور الشباب له عزّ وسلطان ... وللسعادة أرجَاء وأوطان

وللمحاسِن أوْصافٌ تقومُ بها ... وللحقائق آياتٌ وبُرهان

روض الشباب تبدّت فيه أربعة | وَرْد وزَهْر ونِسْرين ورَيْحان
مَن قال ان زمان الشيب يشبهه | عهدُ الشباب فذاك القول بُهتان
يا اِتي العجوزُ انْدُبِي ما قد مضى أسفاً | ترحّلت عنكِ أوقات وأزمان
وأنتمُ يا أُهَيْلَ الُحسن كلّكم | بَيْني وبينكم في الحرب مَيْدان

فلما فرغت الصبية من النِّظام ، أقبلت الجواري والعجوز عليهن مِن أمام ، فقالت لها : بُورِكَ فيك من صبية ، وفي ألفاظك الزكية ، وسأقول بينكن مقالةَ انصاف يقتضيها الحقُّ وجميلُ الأوصاف ، أما البيضاء وذاتُ السُّمْرَة ، فتلك فَانِيدَة وهذه تَمرة ، وزِينَةُ الدنيا ذَهَبٌ ونُقْرة ، ثم قالت للكاملة والقصيرة ، مسألتكما عندي يسيرة ، اذا كانت الصورة الحسناء كاملة ، فهي من النعم الشاملة ، وعلى هذا فالقصيرةُ الذِّراع ، لا يمتدُّ لها في مجال الفخر بَاع ، فان القِصَر مذَلّة ، بسبب هذه العِلّة ، فتأدَّبي مع ذات الكمال ، فانها أبهى منك وأمتَعُ للرجال ، ولو كنتِ بالسويَّة معها في الجمال ، ثم قالت للسمينة والرقيقة ، تاللهِ لا أخفي عنكما من معاني الحسن حقيقة ، فالسمينةُ رِيَاض وجِنَان ، والرقيقة رَوْحٌ ورَيحان ، ثم قالت للبدوية والحضرية ، سأفصل بينكما بحكم الانصاف في هذه القضية ، أما القول الصحيح فكل واحدة منكما في زيِّها أملح مَلِيح ، فالعربيةُ تصلح للحضر والسفر ، والحضرية لا تصلح إلا للحضر ، وأما أنا والصبية ، فحجّتها واضحة وحجتي غيرُ جليّة ، لأنها أبرعُ مني في الجمال ، وأنفعُ للرجال ، وأما العجوز مثلي فقد هرمت بمضايقَة الآجال ، فما لأحد فيها مجال.
ثم انصرف القوم ، وارتفع العتاب واللوم .

المقامة الزهرية
في مدح المكارم البكرية لمحمد المكلاتي

حدثنا بِشْر بن سرُور ، عن سهْل بن مَيْسُور ، عن الضحَّاك بسنده عن بَسَّام ، قال : تراءت لي من الأماني الوُجوه الوَسام ، وأنا من نشاط الشبيبة وافرُ الحظوظ والأقسام ، لم يفتني من قواعد اللهو الا الحجّ ، فأقمتُ من قول القائل وظائف العَجّ والثجّ[1] ،

أُحْجُجْ الى الروض لتحظَى به وارْمِ جِمارَ الهمّ مُستنفِرا
مَن لم يطُف بالروض في زَهْره من قبل أن يَحلِق قد قَصَّرا

فلبَّيْتُ داعيه ، ، وأصغيت إليه بأذن واعية ، وأزمعتُ المَجاز ، الى المشاعر التي ليس بينها وبين اللذات حِجاز[2] ، وأعملتُ يَعْمَلات العزم ، وأدخلتُ على مُعتلّ التواني عوامِلَ الجزْم ، فتخيرتُ من السمَر أطيب أوقاته ، وأحرمتُ مع حجيج الأُنس من مِيقَاته ، وسِرت

---

١ – العج رفع الصوت بالتلبية والثج اسالة دم الهدى وذلك في الحج .
٢ – فاصل .

والنسيم معتلّ ، وخدُّ الثَّرى بمدامع الأنداءِ مُبْتَلّ ، فأتيت روضا قـد تولّاه الوَلِيّ ، ووسمه الوَسميّ[١] وأظلّتْه راياتُ الصباح ، وباكرت الصَّبا تقبيل نَوْره من قبـل أن ترشُف شمسُ الضحى ريقَ الغوادي من ثُغور الأقاح ، فأقمت منه

حيثُ الغدير وقد أجادت نقشه ... كفُّ النسيم ومرُّها في جَوْشَن

وغصون أدواح الرياض تهزُّها ... نَغمُ القُماري بالِغناءِ الُمحسَن

ما بـين ثَغْر للاقاح مُفَلَّج ... وجبين نهر بالنسيم مُغَضَّن

ووُجوهُ هاتيك الرياض سوافرٌ ... غيـدٌ تُزان في المياه بأعيُن

والأرض تُجلى في رياض أخضر ... والجوُّ يبرُز في قِنَاع أدْكَن

وما زلنا بين تلك المنازل نَرْمِي جِمـارَ الفوايد ، ونَرِدُ من ذلك أحلى المصادر وأعذب الموارد ، الى أن ارتقت الشمس درَجة العُـلى ، واستوتْ لَا إلى هَؤُلاءِ ولا إلى هَؤلا ، فترامَيْنـا على تلك الظلال ، مُستحسنين قولَ من قال :

وقانا لفْحـةَ الرمْضاء وَادٍ ... وَقاهُ مُضاعفُ الغَيْث العَميم

يصُدُّ الشمسَ أنّى قابلَتْنـا ... فيَحْجُبُهـا ويأذَنُ للنَّسيم

---

١ – الوسمي أول مطر الربيـع والولي المطر الذي يليه .

وأَسْقَانا على ظمأ زُلالاً ألذَّ من المُدامة للنّديم
تَرُوعُ حصاه حالِيَةَ الغواني فتَلْمَسُ جانبَ العِقْد النَّظيم

فإنّا لكذلك اذْ بَرق الجوُّ فسلَّ علينا نُصولَه المُذهّبة، وارتفعت للغمام فيها طيُط مطنّبة، وجعل السحاب يسُوق المواكب، وأخذ الربّاب[1] يُرتّب الكتايب، فتصبَّب عرَقا، ونادم الروض فغنّى وسقَى، فما أغمد سيف ذلك البرق، ولا انقشع ذلك الوَدْق، الا والمَساءُ قد طفَل، والروض في ثوب الأصيل قد رَفَل

ورب عشية فيها طفِقْنا نرُودُ الظلّ والماءَ القَراحا
وقد ضرب الضَّريبُ[2] بها قِباباً على البطحاء أبهجت البِطاحا
وكان جَنابُها المخضرُّ آساً فأصبح وهو مُبْيَضّ أقاحا
كأن الخِضْرَ[3] جرَّبها يَميناً ومدَّ عليها جبريلُ جنَاحا

فبتنا جيرانَ دَوْلاب يَهْدِل، وأغصان تنثني وتعتدل، وسترُ الظلام ينسدل، فانجلَى الأفق عن روضة غارَت منها الرياض، ينسابُ من مَجرَّتها ما يفعم الحِيَاض، وأنستنا ما طوى النهارُ عنا من المحاسن،

١ – السحاب الأبيض. ٢ – الثلج.
٣ – هو بكسر الضاد ويخفّف بالسكون نبي معروف رُوي انه جلس على ربوة بيضاء فاهتزت تحته خضراء.

وورَدْنا من بقية أُنسنا ماءَها غيرَ كَدِرٍ ولا آسِن

تَحسِبُ النجمَ في دُجى الليلِ زهرا في رُباهـا وتحسبُ الزهرَ نجما

فمتَّعْنا الطرفَ في الروضتين، وحصلنا من الأنس على جنَا الجنَّتين، حتى إذا عبثَ الابتسام بالوجوم، وفاضَ نهرُ المجرَّة على حصْباء النجوم، وكاد جرْف الليل يَنْهار، سمعنا من بين جلَبَة الطير والأزهار:

هاتِ المُدامَ إذا رأيتَ شبيهَها في الأفق يا فَرْداً بغير شبيه

فالصبحُ قد ذَبح الظلام بنَصْلِه فغدَتْ حمائمه تُخاصِم فيـه

قال الراوي فأوْجَسْتُ خيفةً في نفسي، واعْتَضْتُ الخيفة بـدل أُنسي، وقمت مذعوراً لفرط الدَّهش، والجوُّ بين الضياء والغبَش، «يُقلِّبُ اللهُ الليلَ والنهار، إنَّ في ذلك لَعِبْرةً لأولي الأبصار،» فتراءَتْ لي وُجوهُ الرياض تَثْعَبُ دما، كأنما اكتست الآفاق من حُمرته عَنْدَما، فتوهَّمته من بقايا الشفَق أسفر عنها ضوءُ الفلق، فاذا هُو يُنادي بلسان طليق: أنا أخو الرياض (الشَّقيق)، كم كسوتُه جمالا، وكَسبتهُ من وَرَق ورَقي مَالا، من وَجْهي تُعرف نَضْرةُ النعيم ومزاجُ كأسي من تَسْنيم، فدَعْ قَولَ عِياض[١]، ووَصفه إيايَ بين الرياض، وخَـلِّ من الألوان

---

١ – يشير الى بيتي القاضي عياض في الشقيق الآتيين بعد.

المُخْضَر ، واسمع ما قيل الُحسْنُ أحمر فالأزاهِيرُ عساكِرُ وأنا لها أعْلام ، فحَسْبي ما قَال علماء الشِّعْر الأَعلام :

وكأنَّ مُحْمَرَّ الشَّقِيـــقِ إذَا تصَوَّبَ أو تَصعَّدْ
أعْــلَامُ ياقُوتٍ نُشِرْ نَ عَلى رِمَاحٍ من زَبَرْجَدْ

فصاح به (النمَّام) ، أقصر فلي بحضرتكما إلمــام ، متى جمَّلتَ الرياضَ ، ومتى أغنَيْتَ الحِياض ، وأنَّى لوجهك النَّضْرة ، وقد أبــدى صفحةً ، ليس لها عرف ولا نَفْحة ، أما ذكرتَ سوادَ قلبك ، وقضاءَ ربك ، وقد جرح القاضي[1] شهادتَك ، وردَّ نِداءك واشادتَك :

انظُر الى الزَّرْع وخاماتِه تحكي وقد ماسَت أمام الرياح
كتيبَةً خضراءَ مهزُومــةً شقايِقُ النُّعمان فيهـا جِراح

نعم صِبْغُك مستحيل ، وأعلامك مُؤذِنَةٌ بالرحيل عن الرسم المُحيل ، فما النَّضْرةُ ، إلا لِلْخضْرَة ، أو ما علمت أن بها يُشبَّه العذار ، إذا استَدار ، ما أحسَن الرَّيحان في الجلّنــار فان قلتَ نَمَّام فما نمَّ إلا بأمرِه ، ولا باح إلا بسِرِّه

لِمْ كرِهَ النمَّامَ أهــلُ الهوى أساءَ إخواني وما أَحسنوا

---

١ – يريد به القاضي عياض وما في بيتيه من تشبيه الشقائق بالجراح .

ان كان نمَّامٌ فمَعْكُوسُه من غير تأديب لهم مَأْمَنُ

فناداه (البَان) ، وقد ظهر عليه وبَان ، أيها المفتخر بفيه ، المتحلِّي بما ليس فيه ، تسرِقُ السمعَ بأدْنى فَرس ، فشأنه كلُّه خُلَس ، أما علمتَ أن النمَّام في النار أما كفاكَ هذا العار ، بغيضُ الذات ، هادم اللـذَّات ، تطيَّرَ من اسمك الناس وما له في الثِّقَلِ من نَاس ،

أقول وطَرفُ النَّرجس الغضِّ شاخص إليَّ ولِلنَّمام حـولِيَ إلْمـام
أيا ربِّ حتى في الحـدائق أعيُنٌ علينا وحتى في الرياحـين نَمَّام

ما الُحسْن إلا للقَضِيب الممشوق ، والقدِّ المعشوق ، المكْتسِي فاخرَ الملبس ، الزاهي في الديباج الأطلس ، إليَّ تُنْسَبُ القدود الملاح ، وعلى قامتي يَعْذِلُ العاذل ويلحي اللَّاح .

تبسَّم زهرُ البان عن طِيبِ نشْره وأقبَل في حسن يجلُّ عن الوصف
هلُمُّوا اليه بَيْن قَصْف ولذَّة فان خُصُورَ البان تصْلُح للقَصْف

فأجابه (البَهار) البهَّار ، البادي فضلُه على فضل النهار :

نفَش غصنُ البان أذنَابـه وَقـاسَ وقتَ الصبح عُجْباً وفاح
وقال هل في الروض مثـلي فقد تُعزَى الى قدِّي قدودُ المِلاح
فَحدَّق النرجسُ يَهْزَآ بِـه وقال حقّاً قلتَ ذا أم مُزَاح

بل أنتَ بالطُّول تحامَقْتَ يا مقْصودَ عُجْب بالدَّعاوِي القِباحِ
فقال غصنُ البان من تِيهِـــه ما هذه الأعيُن إلاّ وِقَـــاح

أمَا راقَكَ الياقوتُ الأصفر ، وسَطَ الدر الأبيض على الزُمرُّد الأخضر ، يشهَدُ بمنافِعي البيِّنة ، في الفصول والأزمنة ، شمُّوا النرجس ولو يوماً في السنة ، فأنا غذاء الرُّوح ، لِمَن يغدُو عـــني ويروح ، لطِيفُ المِزاج ، أصلُح للعلاج ، وأزيل من الدِّماغ مَضَرَّةَ دُخان السِّراج ، وأخِفُّ على العشاق ، يومَ التَّلاق .

وإذا قضَيْتَ لنـــا بعَيْن مُراقِبٍ يا رَبِّ فلْتَكُ من عيون النرجس

فنهَض اليه (البَنفْسَج) وثار ، وتكلم بأَلْسُن كأنها أوائِلُ النهار ، وقال لا يظهر لك أمر ، ولا يسلَم لك فخر ، إلا على الوَرْد ، فمَا لأمرك عليه من رَدّ .

خجِلتْ خدودُ الورد من تفْضيله خجَلاً تَورُّدُهَـــا عليه شاهد
للنَّرجس الفضلُ المُبين وان أَبى آبٍ وحادَ عن الطريقة جاحِد

فضلٌ قديم ، يعرِفُه المُدام والنديم ، وأما أنا فبَهْجة لازَوَرْدِية ، ونَسْمة عَنبرِية ، رَيْحانة الجُيوب ، المحبَّبة للقلوب

يا مُهْدِياً لي بنفسجاً أرِجاً يَرْتاحُ صدري له وينشَرِح

بشّرني تصحيفه عـــاجلا   بأن ضِيقَ الأمر ينفَسِـحُ

فأقبل (الورد) في جُنوده ، ناشراً لراياتـــه وبُنوده ، مُحمَرَّ الوَجنات ، مُنكِراً على البنفسَج ما جاء به من التُّرَّهات .

ولقد رأيتُ الوردَ يلْطِمُ خدَّه   ويقولُ وهو على البنفسج يَحْنَق
لَا تَقْرَبُوه وان تضوَّع نشْرُه   من بينكم فهو العدُوُّ الأَزْرق

كيف يفخَر النرجس من بـــين الرياحين ، على نُخْبَة الملوك والسلاطـــين .

إن كنتَ تُنكِرُ ما ذكَرنا بعد ما   وضحَتْ عليك دلائل وشواهـــد
فانظر الى المُصفَرِّ لونـــاً منهما   وافهَم فمـــا يصفَرُّ إلا الحاسد

ألم تسمع ما قِيل ، مما سيُلْقِي عليكَ القولَ الثَّقيل .

مَن فضَّل النرجسَ فهو الذي   يَرْضَى بحُكْم الورد إذ يرأَسُ
أما تَرى الوردَ غدا قاعِداً   وقـــام في خِدْمته النَّرجِسُ

أنا مُشَرِّف الربيع ، ومُظْهِرُ ما له من البديع ، أُنعِشُ الأرواح ، فأنا عَرُوس الأفراح ، نوافِحُ ذَكِيَّة وروايح شَذِيّة ، أبديتُ ألوانـــاً لأهل الأَدبْ ، يقضُونَ لها بِالعجب ، فمِنِّي الأبيضُ والأسودُ الحالِك ، ومنِّي وراء ذلك ، أصفرُ فاقِـــع ، وما نِصْفُه قَاني ونِصْفُه ناصِع ،

وبالهِنْد مِنِّي شجَرٌ تُخْرِجُ ورداً عليه مكتوبٌ : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، فأنا للرياحينِ مَلِكُ ملوكِها ، ووسَط عُقودِها وسلوكِها .

فمَن ذا يُضاهِيني بوَصْف فَضِيلة وفضْلِي على كُلِّ الرياحين ظاهر
زماني على الأزمان بي مُتَشرِّف وفخري لمَن يبغِي التفاخُر قاهر

فرَام (المَنْثُور) ، أن يُراجِعَه بالمنظُوم والمنثُور ، ويذكرَ له من ذلك ما هو مأثور ، فأسكتَه ، وردَّ عليه وبكَّتَه ، وتحاملَ عليه ، ولم يُصغِ اليه ، فأما الأبيضُ فاسْتَسلم ، وأبى الدعاءَ على مَن ظلَم ، وكلٌّ من الاصفر والازرق باحَ بالشكوى ، الى عالمِ السّر والنَّجْوى ، فلم يزل يُسيلُ مَدامِعَه ، ويمدُّ الى الله أصابِعَه ، وعنده تجْتَمِعُ الخُصوم ، واليه تعالى ينتهي الظالم والمظلوم .

حاذِرْ أصابِعَ من ظلمتَ فانه يدعُو بقلْب في الدُّجا مكْسور
فالوَرْدُ مَا ألْقاهُ في جَمْر الغَضا إلّا الدُّعا بأصابِع المَنثُور

قالَ الراوي ، فبينا هُمَا في مُطَارحة وجَواب ، ومفاخرة وإعجاب ، إذْ أقْبَلتْ مُطوَّقَة الرياض ، ولها من الجوّ انصِبَاب وانقِضَاض .

ورْقَاءُ قد أخذت فُنونَ الشوق عن يَعْقُوبَ والالحانَ عن إسحَاق
وأنَا الذِي أملَى الهوَى من خاطري وهْيَ التي تُمْلِي من الأَوْرَاق

فباحت بشجنها ، وتكلّمت على فننها ، وقالت كلّ يحاول جهده ، ويقول بما عنده ، إليّ لا لكم الفخار ، وأنتم لنا أعشاش وأوكار ، وفروعكم لخطبائنا منابر ، ولقيانِنا ستائر ، أليس رؤوسكم لأقدامنا خاضعة ، ولنا كلّما نزلنا ساجدة وراكعة ، وإنّا على ما زعمتم بنا من الجوى وتباريحه ، آخذون في ذكر الله وتسبيحه ، شغلنا ذلك بالاسحار ، والعشيّ والإبكار ،

قال الراوي : فبينما أعجب مما سمعت ، وأهمّ بتقييد ما رويت ، إذ نشأت غمامة تصافح أهدابها الارض ، وتسدّ الآفاق على الطول والعرض ، يحدوها الرّعد ، ويستنجز منها الوعد .

وكأنّ صوت الرعد خلف سحابة حادٍ إذا ونت الركائب صاحا
أخفى مسالكها الظلام فأوقدت من برقها كي تهتدي مصباحا
جادت على التّلعات فاكتست الرّبى حللاً أقام لها الربيع وشاحا

فنثرت الأرض جواهر تغار منها البحور ، وتزدان بها من أجياد الأزهار اللّبّات والنّحور ، فاختفت بعد ما تجلّت ، وألقت على البطاح ما فيها وتخلّت ، ثم قالت يا ذوات الأطواق ، البائحات بالاشواق ، المفتخرات على الأدواح ، بالغدوّ والرّواح ، بكاؤكنّ كذب ، ونوحكنّ لعب ،

لوْ كان حقا ما ادَّعيْت من الجوى . يوماً لما طَرق الجُفون كَراكِ
أوْ كان روَّعك الفراقُ إذاً لمـا ضنت بماءِ جُفونِها عَيْناكِ

ما الفضلُ إلَّا لِمَن أحيا الارض بعد أن كاد زرْعُها يَهِيج ، فاهتزّت وَرَبت وأنْبَتت من كل زَوْج بَهيج ، فقَلائِدُها مُدبَّجة ، ورُؤُوس أشجارِها مُتوَّجة ، فلَوْلايَ لم يكن لَكُنَّ مَرْعى ولا مَسْرَحُ في الأرض ولا مَسْعَى . قالَ الراوي : فبَيْنا هي طَلْقُ اللسان ، وتعُد مالها من الحسن والإحسان ، إذ طَلَعتْ الغَزالة ، وهي في مَشْيِها مُخْتالة .

مرآة تبرٍ لم تشح بصياغة . كلاّ ولا جُلِيَت بكفّ الصَّيْقَل
حتى إذا بلغتْ الى حيثُ انتهت وقفتْ كوَقْفَة سائل عن مَنْزِل

وهي قايلة أعمالٌ كسَراب ، وعَارِضٌ مُنْجاب ، إذا طلعتْ عليه الشمسُ ذَاب ، ألم تسْمَعُوا بأني يُوحُ[١] ، أغدُو في مصالح العالَم وأروح ، فلولاي ما جرَت الانهار ، ولا تفتَّقت الأَزهار ، قال الراوي : فلما رأيتُ إفراط اللَّجاج ، والتمادي على الحِجَاج ، قلتُ الحق أبلَج ، والبُطْلُ لَجْلَج ، هلَّا أعطيتُم القوسَ باريها ، وأسكنتُم

---

١ – يوح علم جنس للشمس .

الدارَ بانيهــا ، فمِن كَلام مَن يَعْقِل . إذا فاضَ نهرُ الله بطَلَ نهرُ مَعْقِل[١] ، ألم تعْلَمُوا أنَّ جامِعَ هذه الفضائل وإمامَها ومالِكَها الذي أحكم انتِظَامها ، عالِمَ المُسْلِمين مُحْيِي سُنَّةَ الفضل في العالَمِين المــاجد الفاضِل ، السحاب الهاطِل ، السَّنِي ، السُّنِّي ، فخر المغرب الأكبرَ ، محمد بن أبي بَكْر صاحبُ الدِّلاء الكَريم الجواد ، الكثير الرَّماد ، كافى الله إنعامَه ، وجازَاه عن مقام الدين الذي أرَاد جِدَارُه أن ينقَضَّ فأقامَه ، فهو الممدوح بكل لسان ، والماجد الذي لم يختلِفْ في فضله اثنان ، والسخِيُّ الذي إذا ملأ الراحة خفَّ عليه التعب ، وإذا ذكر القدر الذي ارتفَع هان عليه الفكر الذي انتصب ، كَمْ ساجلت جودَه الغمائم ، فأمست على افتضاحها ثَنايا البروق وهي بَواسم ، متَى طرقتَ حِماه والليل قد سَجَى ، تجِدْ حَطَباً جزْلاً وناراً تأجَّجَا .

تَلُوح في غُرَّة الأَيام بهجَتُه كأنها مِلَّةُ الاسلام في المِلَل

فاعترفت الأَزهار بأنَّ شذَاها من نَسماتِه ، وأقرت الشمسُ بأنها من قَسِماته ، وسلَّم الغمام بأنه من صِلَاته ، وقــال الحمامُ لا أتغنَّى إلا بمدَائِحه ، ولا أرِدُ إلا مَوارِدَ منَائِحه ، قال الراوي : فلما وقـــع التسليم لمُعجِزَاته المحمدية ، ومنَاقِب أبيه البَكْرية ، قضيتُ المناسِك ، وودَّعتُ المسَالك ، وطُفْتُ تلك البقاع طوافَ الوَداع فلمــا أردتُ

١ — هو معقل بن يسار ينسب له نهر بالبصرة وهو الذي يضرب فيه هذا المثل .

الخروج ، والرجوع على خُضْرة تلك المروج ، نادتْني الأزهـــار من كمائِمها ، والثمار من أغصانِها ، سمعاً لهذا الماجد الذي صار إجماعـــا ، وأحببتَه أنت عيانا ونحن سماعا ، ونحن نُقْسِمُ عليك بموَاهبه التي كاثرت النجومَ عَدّا ، وطالت البحرَ مدّا ، إلا ما خدمتَ بهـــذه الفُكاهة جَنابَه الفسيح ، وأغنيتَ بها المساكينَ الذين يعملون له في كل بحر[1] من أشعار المَديح ، فقلتُ أجبتُ هـــذا القَسم الكريم ، وإنه لَقَسمٌ لو تعلمون عظيم ، فيا لَه من حجّ مبرور ، وعَمَل متقبّل مشكور ، فرَائِدُ الفوائد في سِلْكه منظومة ، وصحائف لذّاته بالمِسْك مختومة .

---

١ — هو تلميح الى قوله تعالى : أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر ...

مقامة الحجّام

لابن الطيّب العلمي

أخبرنا بعضُ الظرفاء ، من ذوي المروءة والوفاء ، ممن أعتمِدُ على نقله وروايتِه ، وأحكُم بصحة عقله ودِرَايته ، قال جلستُ يوماً ما مع جماعة من الاحباب ، على شيء من الشراب ، نتذاكر ما مرَّ في أيــام الشباب ، وبيننـــا شاب حسنُ الصُّورة ، عليه الملَاحــة مقصُورة ، واللطائفُ في شمائله محصُورة ، إلا أن شعرَ شاربه قد طال ، واستَرْسَل غايةَ الاستِرْسال ، فسألناه عن سبب طُوله ، وعَــدم قَصِّ طويلهِ ، فقــال أنا أخبركم بخبر يعجَب لذكره الحـاضرون ، ويطرَب لسماعه المنصِتون والناظرون ، كنتُ من شأني أتزَخْرَفُ في المكَاسب ، وأتخيَّرُ منها ما يناسب ، فصليت يوماً صلاةَ الاستخارة فوجدت نفسي مائلةً الى التجارة ، فقصدت مدينة سِنْجــار ، وفتحت بهــا حانوتا بِسُوق التجار ، ووضعتُ فيه من محاسن القُماش ، ما أستعين به على المعَاش ، وزينتُ الدكَّانــ ، بحسب الإمكان ، وكسوتُها بالاستار عــلى أربعة أركان ، وعاملتُ أهلَ الاسواق ، بمكارم الاخلاق ، واستعنتُ بالقُرْبة ، عن ليالي الغُرْبة ، فاتفق لي في بعض الأيام ، ضَرُورةٌ الى دخـــول

الحمام ، فوجدتُ في طريقي جماعة من النسوان ، بينهن فتاةٌ كأنهـا قَضِيبُ البان ، فلَمَحتُ من تحت الإزار مِعْصَمها ، وقد سطع صفاؤُه ، وأبصرت من تحت النقاب جِسْمَها ، وقد لمع ضياؤُه فوقفتُ وقـد جرى من الجفون دَمي ، وعجزتُ عن نقل قدمي ، ثم تبعتها من بعيد ، ولاحظتها الى أين تُرِيد ، فدخلت داراً يدل إتقانُ بابِها ، على سعادة أربابها ، فنظرتُ فـإذا بالقرب من ذلك المـكان ، خياط يخيط في دُكان ، وعنده من الصنَّاع والأَعْوَان ، ذَوُو أَذْقان ومُرْدان ، صِنْوَانٌ وغيرُ صِنْوان ، فقلت في نفسي مِن هذا الخيَّاط أستفهِم ، عمَّا عليَّ أُبهِم ، فرجعتُ الى دكَّاني ، ثانياً عِنَاني ، وأحضرت عدةً من التفاصيل وجئت بها حانوت الخيَّاط بقَصْد التفصيل ، فجالستُه ، وحاوَرتُه وآنستُه ، وفصَّلتُ ذلك القُماش ، وعجلت له من الاجرة ما يحصل به الانتِعـاش ، ففَرِح بحضوري ، واعتنَى بأموري ، ووجدت عنده معرفةً بالادب ، وشكا لي من ضِيق الحال والسَّغَب ، وأنشدني لنفسه من شعره المستعذَب :

أنا الخيَّاطُ لي رزق ولكن أرَى حالِي من الافلاس عِبْره
ذِراعي فيه من فَقْري مِقَصّ ورزقي خارج من عَيْن إبْره

فاستحسنت نظمَه ، وحملتُ همَّه ، وصارَ يتلقَّى كلامي بالقبول ، ويقف ممتثلا ما أقول ، فسألته عن صُنَّاعِ دكَّانه ، ودِيَار جيرَانـه ، فما زال يُشِير الى كل دار ويشرح حالها ، ويعرفني تفصيلها وإجمالها ،

حتى أفضَى الحديث الى الدار التي أختارُهـا ، وقصدي أن تتضح لي أخبارُها ، فقال هي دار خطيب البلد ، وهو رجل كثيرُ المـال قليل الوَلَد ، مشهور بالتوقِرَة الزائدة ، ولا له من الأولاد إلا إبنَةٌ واحدة ، وهي روُحه التي بين جنبيه ، والسواد الذي فيه نوُر عينيه ، وقـد منَعها الازواج ، وخطبهـا جماعة من البلد ، فلم يسمح لها بالزواج ، فقلتُ والله لقد شوقَتني اليها ، وحدثتني نفسي بخِطْبتها والعمل عليهـا ، فهل تعرِفُ امرأةً تُعرِّفني باسمها ، وتوصل خِطْبتي الى أمها ، فدلني على عجوز مشهورة في عَقْد النكاح ، تُعرَف بياُقوتَة الِملاح ، فلما لقيتها أوضحتُ لها الحال ، ووَعدتها ان تمَّت المسألة بتُحَف ومَال ، فسمعت كلامي ، وضمِنَت لي بلوغَ مَرامي ، وأنشدتْ :

أنا ياُقوتةُ المِلَاح وربّي ... في أموري هوَ الكفيل بقُوتِ
ان سلكتُ القِفَار جئتُ بوحش ... أو سلكت البحار جئت بحُوتِ
ويقود الصعابَ لُطفُ احتيالي ... بخُيُوطٍ تكون من عنكبوتِ
أَلْقِني في لَظَى فان غيَّرتني ... فتَيقَّنْ أَنْ لستُ باليَـاقُوتِ

ثم فارقتني وذَهبت ، واشتعلت نار وجـدي والتهَبت ، ومضى عليَّ شهر لا أدري أمرَها ، ولا أعرف مُستقَرَّها ، فذرَفت العيون ، وسهِرت الجفون ، وساءت الظنون ، وقلتُ :

غاب الرسول فلم يعُد بجوابِه ... ففهمتُ معنى الحال في تأخيره

فكأنه لم يلقَ أمرا طــائلا فأراد بالتــأخير سترَ أموره

ما ضره لو جـاءني بجَوابه فعلِمْتُ ما قد كان عند حضوره

إن كان خــيراً نلتُ منه بشارة او غيَره فكَّرتُ في تدبــيره

قال : وبعد ذلك حضرت ، وقد انفطَرت كبدي بما انتظرت ، فلاح من وجهها عدمُ القبول وخيبةُ المأمول ، وقالت : والله لقــد تحيلتُ وتوسلتُ ، فما ظفِرتُ ولا توصَّلتُ ، لم يُوافِق أبوهــا على زواجهـا ، ولا سمحت نفسه بإخراجها ، ولكنَّ والدتَها رثَتْ لحـالك ووافقت على ذلك ، فقلت لها لقد يئِستُ من حياتي ، ودنَت وَفاتي ، فساعِديني قبل فراق الدنيا بنظرة واحدة ، ولكِ ولأمها ، التكرمةُ الزائدة ، فليس لي غرض غير قُبْلة في جسمِها ، وأخرى في مِعصَمِها :

وبعد ذلك طابَ الموتُ فاغتنِمي اجري ولا تُهمِلي أمري أمُتْ كمَدا

وساعِديني على حال بُلِيتُ بهــا وعجِّلي فلعلي لا أعِيشُ غــدا

ثم تصعَّدت زفراتي ، وتجــدّدت حسَراتي ، وتزايد شَهِيقي ، وغصصتُ بدمعي لا بريقي ، فقـالت : أترَضى بذلك النزر القليـل ، قلت : نعم والله عــلى ما نقول وكيل ، فاستصحبتْ من الذهب ما أرضاها ، وركِبتْ سفينةَ النصح ، وقالت بسم الله مُجْراها ومُرْساها ، وذهبت وقدِ دهَت عيْناهـا ، فغابت عني قليلا ، ثم عــادت فرأيت

وجهها جميلا ، وقالت : لقد رثَت لك الوالدة ، وسمحت لك بنظرة واحدة ، بعد ان قلت لها لا بأس بنظرة العين ، ورغَّبتُها في أجر من يجمع بين المحبَّين ، فإياك ان تنقُض عهداً ، او تتعدَّى حدا ، وتقرر المعياد يومَ الجمعة وقتَ الصلاه ، ووالِدُهــا على المنبر في مُصَلَّاه ، فصُمْت ، وتصدقت ، وانتظرتَ ذلك الوقت ، الى ان دنــا الميعاد ، ودخل الوقت أو كاد ، فخرجت من داري ، وقد صفت اكداري ، وحسنتُ هيئتي ، وسرَّحْت لِحْيَتي ، واستعملتُ ما يناسب من الطِّيب ، وقصدت دار الخطيب ، فاجتزت بِحَجَّــام عنده مِرْآة ، ومِقَصَّات مُستحسَنات ، فناولني المرآة حتى رأيتُ وجهي فيهـا ، فوجدتُ شَعر شاربي قد طال ، وتعيَّن ان يُخفَّف ويزال ، فأمرتُه بقصِّه ، وان يأخذ منه بمِقَصِّه ، فامتثل أمري ، وقصَّ ما طال من شعْري ، فسألته عن اسمِه وأصلِه ، لعلي استدلُّ بذلك على فِعْله ، فقال : اسمي قَتْوَر ، وأصلي من خَيْبَر ، فقلت : اسم عَتيث ، وأصلٌ خَبيث ، فقصدت إعطاءَه درهمــا عن إجرته ، فسبقتْني يــدي الى كِيس الذهب ، لِما طُبِع عليه الانسان من عجَلَته ، ولما نظر اليه والى ما فيــه من الذهب ، طار عقله وذَهب فناولته منه دينارا ، لأكْفَى منه عارا ، فانكب على قَدمِي ، وبالغ في الثناء على كرمي ، وقــال مثلُك من يخدمه الانسان ، وهل جزاء الإحسان ، إلا الإحسان ، والله لقد

اغنيتني من كرمك ، ولا أعودُ أموت إلا تحت قدَمك ، فأثنيتُ عليه بالخير ، وأسرعتُ عنه في السير ، فأسرع حتى لقيني ولازمني ولاصقني ، وما تأخر عني ولا سبقني ، فقلت له انقطع عني ، ولا تتبعني ، وما الذي تريد مني ، فقال : معاذَ الله أن أُفارقَ من أحسن إليَّ ، وتفضل بهذا الدينار عليَّ ، والله ما أنا من أولاد الزِّنى ، ولا من أبناء الخَنا ، هذا والعجوزُ مُراقِبة وُصولي ومنتظرة لِدُخولي ، فاعترَضني جمعٌ من المساكين ، وقالوا تصدَّق علينا ان الله يجزي المتصدقين ، فناولتُه دينارا آخر وقلت صرِّفْه وفرِّقْه عليهم ، وتَولَّ إيصالَ ذلك بيدك اليهم ، فرماه الى الفقراء في الهوَاءِ ، وقال اقتسموا هذا بينكم على السَواء ، ثم هرولتُ فأدركني ، ودخلت من الباب ، فأراد أن يمسكني وقال : الى أين يا سيِّداه ، وقد دخل وقت الصلاة ، فلم أردَّ عليه الجواب ، بل أُدخِلتُ وأغلِقَتْ دونه الباب ، فما لبِثَ أن طرق الباب . وقال يا سيدي فاتك الصواب ، قد أُقيمَت الجمعة ، والأقوام الى الصلاة مُجتمِعة ، فقالت لي المرأة : دع غلامَك يذهب ، فقد تعدى وغلَب ، فقلت والله ما هو لي بغُلام ، ولا لي معه كلام ، فاخرُجي اليه ، والعَنِي وَالِدَيْه ، فخرجتْ اليه ، وأنكرت عليه ، فرمى عِمامتَه وبكى ، وقال الى الله المشتكى سيدي في هذه الدار أدخَلُوه ، وطمِعُوا في مَاله فقَتلوه ، وزاد في الاستغاثة واجتمع عليه الناس حلقتان

او ثلاثة ، ولم يزل يصرُخ ويستَغيث ، ويقول أَلَا مُنجِد أَلَا مُغِيث ، والعجوزُ راجفة ، والبنتُ واجِفة ، والأُمُّ خائفة ، والطوائف واقِفَة ، « أزِفَت الآزِفة ، ليس لها من دُونِ الله كاشِفة » وما زال يَصِيح يا سيدَاه ، يا موْلَاه ، خرج الناس من الصلاة ، فأتَك الثَّواب ، عدِمْتَ الصواب ، حصَلْتَ وراءَ الحِجاب ، ضُرِب بيني وبينك بِسُورٍ له باب ، فخرج الناس من الجمعة ، وعلى البابِ طوائف مُجْتَمِعة ، واتَّصل بالخطيب الخبر ، فبادر إلى داره وحضر ، فرأى الناسَ مجتمعين ، والى الحجَّام مستمعين ، فلما وقع نظره عليه ، أدناه اليه ، وقال له ما الحديث ، والى كَمْ تصرُخ وتستغيث ، فقال ان سيدي قد دخل الى هذه الدار ، ومعه كِيسٌ فيه الف دينار ، ثم لما أدخَلُوه ، طمِعُوا فيه فقتلوه ، وهو في هذه الدار ، فادخُل وعرِّفْني الأخبار .

قال الراوي : هذا ونحن نسمع الكلام ، ونتوقع الحِمَام ، فوجدت في الدار بئْراً ، فرميتُ نفسي فيها ، وأمرت النساء يسترونها بما يُخْفِيها ، فدخل الخطيب الى نسائه ، وعرَّف من قول الحجام ، وفوَّقَ اليهن سِهَام المَلَام ، فحَلَفْنَ له بما أرضاه ، وقُلْنَ حاشَ لله ، فخرج اليه بِغَيْظ شديد وقلبٍ دونه الحديد ، وقال يا غلام ، دع عنك هذا الكلام ، فما عندي من يُتَّهمُ بكلامك ، ولا من تَرْميه بسهامك ، فصَرح بأعلى صوتِه وقال : قتلوه وليتَني مِتُّ قبل موته ،

ولو كان حيا ما فاتته صلاةُ الجمعة ، ولكان حاضرا وأنا فيها معه ، واحزناه وأسفاه واسيِّداه وامَوْلاه ، غرُّوك فأدخلوك ، وطمِعُوا في مالك فقتلوك ، ائْذَنْ لي بالدخول ، فأنا أعرف ما أقول ، فأمره الخطيب بالدخول الى داره ، ومعه من الحاضرين من بعثه فضولُه على كشْف أخباره ، فدخل الدار في جمع كبير . فأوقعته المقادير على فم البِير ، فقال سيدي في هذا المكان ، ولا بد من النزول فيه ولو كان ما كان ، ثم نظَر في نواحي البيت واستدعى بإناءٍ فيه زَيْت ، وحلَّ عِمامَته وبَلَّ طرَفَها ، وأوقَدها لِمكِيدة عرَفَها ، وأَدْلَاها في ذلك البير ، وأدارها فأنارت أيَّ تنوير ، فرآني جالساً بمكاني وقد حلَّ بي من الويل ما كفاني ، فاستغاثَ كَذب المُماطل ، وجاءَ الحق وزَهقَ الباطل ، سيدي في هذا البير والانسان جارٍ تحتَ المقادير ، فأُخرِجتُ من ذلك المكان ، على أقبح حال وأسوأ شان ، فقال لي الخطيب ان أردتَ الخلاص فاصدُق ، فقلت ما دخلت إلا لأسرق ، فحُمِلتُ على تلك الحال الى الوالي فسجنَني وأخذ أموالي ، فبقيتُ في الحبس سَنةً ، في عِيشَة خَشِنَة ، ما رأيت فيها لذةً بيِّنة ، وعلمتُ أن مَن أحسن لكل رَديء الأصل ، شَقِي كما شَقِيت ، ولقي ما لَقِيت ، وكان مما نظمتُه في حَبْسي مخاطباً لِنَفْسي :

تجنَّبْ رَدِيَّ الأصلِ واحْذَرْه واجتهد على طَرْدِهِ فالخيرُ في شَرف النفس

وإيّاك ان تغترَّ منه بمَلْمَسٍ يَلِينُ وجنِّبْه اجتنابك للرِّجس
فانَّ الافاعي قاتِلٌ سمُّها لِمن تدانى إليها وهْيَ لَيِّنةُ المَسّ
ويكفيك في صدق الوصية ماجرى عليَّ وما لُقِّيتُ من ذلك النَّحس
تقصَّدته بالخـير كافَى بضدّه واوليته المعروف جازاه بالعكس
وكم ليلةٍ قضَّيتهـا في عساكر من البَقّ والنّاموس في ذلك الحبْس
أُقاسِي الأسى من ذلك المُدْبِر الذي رأى قصدَه نقلي الى ظُلمة الرَّمس
وَضيَّع اموالي وعِرْضي ومَقْصدي ولكن حمدْتُ الله إذ سلمَت نفسي

وكانت العادةُ جاريةً بعرض المحابيس على السلطان ، في كل شهر رمضان ، فاحضرتُ بعد سنة بين يديه ، وسألني عن الأمر الذي حُبِسْتُ عليه ، فقلت: لِي قضية اذكرها بين يديك ، واذا انهيتُهـا فالامر الى الله ثم اليك . فأَدْناني ، واستفهمني عن شأني ، فذكرتُ له الحكاية على الوجه الصحيح ، واوضحتُ له الحال فلم يحتَجْ الى تصحيح ، فعَجِبَ من حالي ، وامرَ بردِّ مالي ، وتبليغ آمالي ، وأمرَ الخطيب ان يزوجني من بنتـه المذكورة ، وقام بالصداق من عنده على احسن صُورة ، واحضَر ذلك المُدْبِر وسلَّمه اليَّ ، وحكَّمني فيه عند وقوفه بين يَديّ ، فذهبتُ به الى داري ، وصفَتْ بتلك المحبوبة أكداري ، فصلبتُه على الباب مَرْجُوما ، وابقيتُه سَبْعَ ليالٍ وثَمانِيةَ أيامٍ حُسُوماً ، وسمعتُ هاتفا يقول :

قضتْ نحبَها نفسُ هذا اللّعين وفي صَلْبِه نعمة مُطلقَة

فلا رَحِمَ الله تلك العظـــام ولا بَرِحَت بِلظى مُحرَقة

وما مرّ به احد إلا لَعنَه ، واستظْرَفه على الخشب واستحسنه ، وانشدت :

نِلتُ جَبْرِي بكسر قلبي وصَبْري وَرقِيبي رأيتُــه مشْنُوقـــا
رَامَ نفعا فضرّ من غـــير قصد (ومِنَ البِرّ مَا يكُون عقـــوقا)

وأقسمتُ لا قَصصْتُ شعرَ شاربي ، ولو استرسل الى تَرائِبي ، فهذا سبب طولها ، وقد رضيت بتطويلها ، ثم انشد :

اری الاحسان عند الحرّ ديناً وعند النَّذْل مَنْقَصةً وشَيْنا
كما النَّيْسَانِ في الأصداف دُرّ وفي بطن الافاعي صَار سُما[1]

●

١ – يريد بماء النيسان المطر الذي ينزل في شهر نيسان وهو أبريل ويقولون ان الأصداف البحرية تتفتح فيه وما وقع منه فيها صار درّاً كما أن الحيّات تتعرض له فما وقع منه في أفواهها صار سما .

المقَامَة الحِسَابيّة
لبعض أدباء فاس

(أخبر الراغب بن عبد الوارث) قال خرجت الى وادي فاس ، في إبَّان ربيع عَطر الأنفاس ، يومَ خميس مع أنيس ، ينسى الغَريض بتحبيره للقريض ، فانخنا بمنزل ، عن الجموع بمعزِل ، وإذا شيخ طالع، مع غلام بارع ، فجلسا بمرأىً منا ومَسْمع ، وصرَفا وجهَهما عن المجمع، وتنازعا الحديث ساعةً زمانية ، بلَغ الشيخُ فيها أمانيه ، ثم أخرج الغلامُ لَوْحا من رُدْنه ، مصنوعاً لعلم الحساب وما كان من فَنّه ، وجعل يرسُم في ذلك اللوح ، بإشارة من الشيخ ممتزجة برَوْح ، فقال لي صاحبي المؤنِس، ان امر هذا الشيخ لَمُلْبِس ، ولا بد من نقضِ غزْله ، وإبراز جِدِّه من هزْله ، فأنشد بصوت يُسمع الصُّم ، وتخرُّ له الجبال الشُّم ، ما قال ابنُ جُزَيٍّ في مثله ، وقد ابدعَ في قوْله :

يا نَاصِباً عِلْمَ الحساب حِبَـالَةً ... لِقِنَـاص ظَبْي ساحر الألباب

(×) هي ثلاث مقامات بخط واحد غير منسوبة توجد بمكتبتنا أثبتنا منهـا هنا اثنتين وتركنا الثالثة لتلاشي بعض كلماتها ويظهر أنها من القرن الثاني عشر .

ان كنتَ تُرزق بالحساب وصاله   فاللهُ يرزُقنا بغير حساب

فدار الشيخَ وانشد ، وردَّ بصوت أَشدّ :

ما صِدتُه بل صادَني بقِسيِّه   وبمدّ شَبْكَةِ صُدغِه الكُتّاب
ووقعتُ في فخّ له ، ذَا غِرَّةٍ   إذْ لم يكن صَيْدُ الظِّباءِ حسابي

ثم اخذته العزّةُ فتاه ، وأدارَ وجهه الى فتاه ، فانطلق الأنِيس ، يُنشد الفتى لِيميس :

يا (مُنيَتي) ومُنَاءي   (إرْفع حِجاب) التَّجَنِّي[1]
(جمعتَ) من كل صنف   من الجمال وفنّ
ولم يكن في (حِسابي)   أن تَصرِف الوجهَ عنّي
ثَنيْتُ قلبيَ لما   (كسَرْتَه) بتَمَنّ

فلم يبرح لقوله ، ولم يتزَحْزح عن محلّه ، فاعاد وشاد ، واحسن الانشاد :

يا (مُنيةً) لِي لم يكن   لي في (حساب) ان سَيسْنَحْ

---

١ – فيه تورية بالمنية ورفع الحجاب من كتب الحساب وفي الأبيات التي تليه تورية بالأعمال الحسابية .

(إرفعْ حجابَ) الهجر عن	صبّ الى اللُّقيــا ترنَّح
فاضت (جداولُ) دمعه	(وضربتَ)عنه (بالُمجنَّح)
ان كنتَ (جامِعَ) زُخْرُف	ممَّن وشى بالله (فاطْرَح)

فما كان باسرع من أن قادَه إبليس ، واتى به كما أُتِيَ بعرش بلقيس ، والشيخُ يتبع التلميذ ، كالذي اخذته النبيذ ، وقــد عبس ، وما نَبَس ، ولا فَاه[1] ، بما وافاه ، سوى أن قال « ساحِرَانِ تظاهرا » مُنيتُ منهما بمــا لم يكن في خــلدي جرى ، فحين أبرز بَرَد أسنانه ، وأصْلَت للكلام عضبَ لسانه ، عرفنا انه ابو سَلامه ، فاحسنَّا تحيته وسَلامـه ، وقُلنا لندفع لجاجه ، بك والله الحاجه ، يا ثمرَ غَرْسِنا وعطر عُرْسِنا ، قال أبعد ما بِي سخرتُما ، ولفتاي سحَرتما؟ فما زلنـا نعــالجُ قلقَه ، حتى فتحنا مُغلقه ، وقال مُباسِطاً للأنيس ، استفزِزْنا بصوتك المغنـاطِيس ، فانشدَه قولَ مَن قال ، واحسن في المقال :

وقالت فتاةُ المُنْحَنَى ذاتَ ليــلة	وقد سمحت من بعد صَدّ وإعراض
إذا ما مضى ممَّا تبقّى من الدُّجى	ثلاثةُ أسْباعٍ وتُسْعٌ من الماضي
اتيتك لا يدري بذاك رَقِيبُنا	اُجرُّ رداً مِرْطٍ على الأرض فضفاض

---

[1] – أي نطق.

فكان ذهابُ الليل عنــد مجيئهــا فكم كان بَاقِيه ومَاضِيــه يا قاض

فطرب طرَباً شديداً ، وانبسط انبساطا جديدا ، وقال اتعرفُ مغزاه ، والى كم ليله جَزَّاه ، فقال لَيس لي به يَدان ، ولستُ من فُرْسان هـذا الميدان فطوّقنا بفهمه ، ورَنّقنا بعلمه ، قال بشرط أن تكون من الالبّاء ، وان لا تعود الى التفريق بين الاحبّاء ، فقال وهو مُضمر الخلاف نعم ، « وما يسرُّني بها حُمرُ النَّعم » فقال انه تجزأ دُجاه وانتشر ، الى خمسمائة وستّةَ عشر ، اربعمائة واثنان وثلاثون لماضيه ، واربعةٌ وثمانون لِباقيه ، تُسُع الماضي ثمانيةٌ واربعون ، وثلاثةُ اسبَاع البــاقي ، ستةٌ وثلاثون ، ومجموع هذين هما الباقي ، فان بمضيَا بلغت رُوحُ الدُّجى التَّراقي ، فقال قد فهمنا ، وبما كثُرت هِمْنا وإنَّا لنَظْمَا ، لِورُودِه نَظما ، فقــال اسمعْ أوتِيت فَهْما ، « وقلْ ربِّ زِدْني عِلْما » :

لقد قسَّمتْ لِ (سَيْرِها) بِشبْهَ شَعْرها وبَاقِيه سُدسٌ غير قِسْمَته ماض
ثلاثةُ اسْبَاع لقــائل (ابلجٌ) و(ماجدٌ) ابدى تُسْعَ ماضٍ لِمرْتاض[1]
وذَانِ هُما الباقي فان بمضيَا قضى م الدُّجىَ وتجلَّى الصبحُ بادِيَ إيماض
لِنا طلعت وابنُ الغَزالةِ طالِــعٌ غزَالَتُك الشمَّاء انتَ بهــا راض

١ – هذا تلخيص للعمل في ذلك بحساب الجمل ، فنقط سيرها ٥١٦ ونقط أبلج ٣٦ ونقط ماجد ٤٨ .

وَهلك ما هو اخصر ، وهو للظمئان اقصر :

دجاها (يَسُرُّها) و(تبكي) لِفَـائتٍ
وبَاقِيه (عِيدٌ) فاقْضِ ما ذُو الحجا قَاضِ[1]

ولك ان تقول ، وهو اقرب للعقول، انه جزَّأَهُ الى ثلاثةٍ واربعين ، وجعل الماضي ستةً وثلاثين ، وان شئتَ المنظوم، فخذه غير مكظوم :

دُجاها (تَجِلِيّ) ما مضى منه(ابلجٌ) وبَاقِيه (بادٍ) فاقض ما ذو الحجا قاض[2]

ثم ادار حديثاً اشهى للنفوس ، من إدارة السُّقاة للكؤوس ، وقال هل بقي في السَّفط ، شيء من ذلك النَّمط ، فانشده قولَ القائلِ ، المشهور بين الأوائل :

غزَالٌ قد غزا قلبي بالحـاظٍ واحـــداق
له الثلثان من قلبي وثُلْثَا ثُلْثِه البـاقي
وثُلْثَا ثُلثِ ما يبقى وباقي [illegible] للساقي
وتبقَى اسهُمٌ سِت لِتقسم بـين عشَّاق

١ – نقط يسرها بحساب الجمل ٥١٦ ونقط تبكي ٤٣٢ ونقط عيد ٨٤ والعمل لا يخفى على الحاسب .

٢ -. نقط جلى ٤٣ ونقط أبلج ٣٦ ونقط باد ٧ .

فقال وقد ابتسم ، الى كم قلبُه اقتسم ، فقـــال ما لي به دِرَاية ، ولم اسمع فيه رِوَاية ، وان كشفت الغِطـــاء عن المبهم ، فلك اجرُ مَن علَّم وفهَّم ، « قالَ لَقد أوْتِيتَ سُؤْلك » ولكن الشَّرط أملك ، فانَّه قسَّمه الى واحد وثلاثين ، كما هو مقرَّرٌ في دواوِين ، وان أحببتَ شَقِيقَه ، على الحقيقة ، فاسمع مني ، واحفظ عني :

قضَّيتُ ثُلثي ليلِ هجرِك باكيا حتى غدا (المجهول) ناراً في جبـــل

وقضيتُ ثُلثي ثُلثِه في جُرْعتي حُرَقَ الهوى نهـــلاً وتاراتٍ عَلل

وابدَتْ ثلثي ما تبَقَّى منـــه في عَلِّي ، لَو انَّه كان تنفعني لَعـــلّ

وقصرتُ ثُلثَي ذلك الباقي على نظري لشبهك في السَّماءِ وقـد كمل

والثُّلثُ وهو الواحدُ الباقي بدا فيه شَقِيقُك قلتُ سبحان الأَجـلّ

وان اتقنتَ بابَ الجبر والمقابلة ، يلُحْ لك وجهُ الحقّ في مُقـابلة ، ولما آذنت الشمس بالغروب ، مال ابو سلامةَ للهرُوب ، فودَّعناه وَداعَ كارِه لِغيبته ، وانصرف تلميذه معه وهو تمام بُغيَته .

المقامة النطوانية

لــه

(اخبر الراغب بن عبد الوارث) قال : انتظمتُ في تِطوانَ برفقاء ، انتظامَ الاخوة الاشقّاء « صِنْوان وغير صِنوان » ونزلتُ معهم الى البحر ايامَ عيد النّحر ، ونحنُ في زَيِّ بني مَرْوان ، فوجدنا على طرفِه ، مِنْطيقاً مَلكَ بطُرَفه ، ولْداناً لَمْ يملكهم ذُو إيوان ، ذَوِي قُدود أَسِنّة ، وخُدودِ اجِنَّة وثُغور تفترُّ عن أُقْحُوان ، فاصخْتُ له أُذني استمع كلامه ، حتى تحقَّق عندي انه ابو سَلامة ، الذي لم يشتمِل على مثله دِيوان ، ولما انتشر الطعام لدَينا وَصفَّه طاهيه بين يدينا ، بعثنا اليه بخوَان ، وانتخبنا له ألطف رسُول ، وقلنا له قل هل لك سُول ، في منادمة هؤلاء الاخوان ، فبلَّغه هدِيَّتنا ، وادّى إليه وصِيتنا ، فقال لستُ لِرُفقائي بخوّان ، ولا أترك الرَّيحان ، لِأُمِّ غيلان واختارُ الضَّرَاغِم على الغِزلان ، وابدِّلُ السِّلم بالحرب العَوان ، فرجع الرسول خائباً ، بشاب معه آتِيا ، وقد علا على وجهه هوَان ، فلما اخبرنا بخبرِه المُستَطرَف أيَّ استطراف ، قُلنا للشابِّ وكان من النُّخب الظِّراف ، ان اتيتَنا به فلك كذا وكذا حُلوَان ، فذهب واسرع ، حتى اتاه يَهرَع ، وتخنَّث عليه

تخنُّثَ الغَوَان ، فما لَبِثَ ان وقع في فَخِّه ، وسقط على مُخّــه ، سُقُوطَ النَّشوان ، ولمــا جاء بالمصِيد ، قال هاَبيت القَصيد ، لبَّى دعوَتي دُون لعلَّ ولَوَان[1] ، فشكَرْنا له الصُّنع ، وحبَوْناه دُونَ مَنْع ، ما استَوْجبَ من الحلْوان ، ثم وثَب ودرَج ، وبَقِي في حَرج ، فانشدَ غيْرَ مُتَوان :

صادَني ظبيٌ بِدَلٍّ وغَنج وبِطرفٍ ذي احوِرَار ودَعَج
ان خطا يحسُده الخطِّي أو يتجَلَّى قلتَ من عَــدْنٍ خَرج
ان رنا يرنُو له القــلبُ الى ما دَعا لبَّيْك من دُونِ حرج
قادني نحوَ بــلاءٍ ورَمى بزِمَامي من يَديــه ودَرج

قال الراوي : فقلت مستدعيا كلامه ، سُحِرت والله ابا سلامة ، وحيل بين العير والنزوان[2] ، فقال ايهِ يا ابنَ عبــد الوارث ، حتى متَى تُعِينُ اخاك الحارث[3] ، في تبديد شمل السّلوان ، فقلتُ ليت شعري ألما فرقت اجمع ، ان دعوت الغلمان ، جاءوا اجمع ، فقال إي والله ولا عُدْوان ، فدعوناهم لِنَادِينا ، فأجابوا مُنادِينا ، من دون تراخٍ ولا توان ، فاماط التَّرَح ، ولبس المرح ، واستحال سخطه لرضوان ، ورأى شابامنهم يجرُّ

---

١ – هو مخفف من لو أن .

٢ – مثل يضرب لعدم استطاعة الشيء مع الرغبة فيه .

٣ – يعني به الحارث بن همام راوية مقامات الحريري .

رِداءَ مِرْطِه ، ويعضُّ سالفاً له اخرجه من قُرْطـه فاستحسنه وقال في الأوَان :

قد عضَّ سالفَ شعرهِ من بعد أنْ ابداه من قُرط تحيَّر ناظره
خيْطُ الظلام من الهلال بدا على قمَر وفي وَسَط الثُّريَّا آخِرُه

فاستحيى الفتى واطلق دلاله ، فكاد أن يفارق هِلاله ، فقال ايضاً وما تَوَان :

وكأنَّ سالِفَ شَعره في قُرْطه افعى تُطِلُّ من الهلال بِرَاس
ويرُدُّها نشرُ الشُّعاع بخَـده لما بـدا كالشمس والنبراس

ثم قال كأنكم اضمرتم غِيبة ، وخالجت قلوبكم ريبة باختيـاري الذُّكران على النِّسوان ، كلا والذي حَفَّ الجنةَ بالمكاره والنارَ بالشهوات، ما دَنَّست وجهَ علمي بما ليس لي بِمُوَات ، ولكن طبعني على حبِّ الحسَان مَن سَوَّان ، فما لاح ذُو جمال ، الا استدعاني واستمال ، ولَوَانِي وطوان وقد علقتُ بالنساء والولدان غيرَ ما مرّة ، وذقتُ من الهوى حلوَه ومُرّه، ثمراتٍ مختلفات الالوان ، وغـايةُ الامر إن ظفرتُ أن اطرب وامَرح ، وفي رياض المحاسن اسرَح ولا أغوى لِلشَّيطان ان أغوَان :

اذا ما ظفرتُ بوَصـل حبيب وزَار على غفـلةٍ لِلرَّقيب
تعفَّفتُ عنـه ولا مَانِـع سوى ان ربِّي علَيَّ رقيب

فقلنا يا مُجرِّب حبِّ الولدان والنساء (فَهْو به في كلِّ حُـكمٍ ذُو ائتسَاء) ايُّما افضلُ حبُّ المُرد أم الغوان ، فأنشد ، وارشد ، لفضِيلة النسوان:

حبُّ النساء شَاع في البَراري كما جرى المثَــلُ في الاقطار

وحُسنُهنَّ طــائلُ الاعمار وغــيرُ مُسْرِع الى بَوار

والشمسُ أثبتُ من الأقمار في سَيْرها في الفلك الدوار

لاكنَّهن داعي افتقــار بالصَّرْف للدرهم والدينــار

وقلَّما يَسْلَمْن من إكْثار

ثم قال ، وما استقال ، ولا تحرَّك منه عُضْوان :

حبُّ الذكور ذاعَ في الامصار كما فشَا الإيمــانُ في الأنصار

وحُسنهم اوفَقُ للنظّــار وغيرُ مُحتاج الى انتظار

والبدرُ لا حرَج فيه جــار والشمسُ بالعكس لدَى الأنظار

لاكنَّهم اجلبُ لاحتقــار الى ذَوي الاخطار والاقدار

وقلّما يسلون عن إكثار

ولما نشر علينا احاديثه الاصمعية المنبئةَ عمّا له من الألمعية ، وظاهرُ الامر على باطنه عنوان ، نشرنا عليه من التُّحف والملابس ، ما لم يكن لخاطره مُلابس ، حتى احتاج في طَيِّه لِعَوَّان ، فقال شكرَ الله احسانكم إليَّ ، وتفضَّل عليكم كما تفضلتم عليّ ، بتجدُّد النعم تجــدد الملوَان ، وليست الدنيا بفاخِرة ، الا اذا كانت مَطيَّــة للآخِرةَ ، « وانَّ الدارَ لآخِرَة لهيَ الحيَوان » وإنَّ من تمام الإكرام ، وليس فيــه إبرام ، ان

تتكفلوا لي بهذا الرّهوان[1] ، واشارَ إلى رَهوَان صائد ، فاكتريناه منـــه بالزّائد ، وقُلنا نحن له صُوّان وحيثُ تهيّأ المسير ، سار معنا حيث نسير ، حتى اذا دخلنا المدينة فقدنا الخوّان ولم نجد مَن يُخبرنا عن مَسالِكه ، والزمنا الشرعُ غَرْم الرّهوانِ لِمالِكهِ ، وطارتْ فعلتهُ بنَا في أرجاءِ تطوان .

١ ــ هو البرذون .



مَقَـامَـة

للوزيـر ابن إدريس

حدثنا الفتحُ بن سَلامة ، عن نصْر بن كرامة ، قال ألْحفني السعــدُ بُرده ، واتحفني بحلوِ عيشه وبَرْده ، وبوّأني مِن حِمَى الخلافة العــلوية العليَّة ظِلالا ، وأعلق كفِّي من خدمة الحضرة المولَوية العبدِ الرّحمانيـة حِبَالا في دوْلة عَلَوية اعلى العَلاءُ أعلامها ، وحمى الإلاه حِمَاها ، عقـد السعود على التناصر عقدها وذِمَامها واليمن قد واخاها ، فبلغت بطلعتها امنَها ومَرامها ، وتوصلت لِمناها ، وبنى الايمةُ من قُرَيش مجدها ومَقامها ، بين الوَرى وعُلاها ، حَموا الشريعةَ بالسيوف واوضحوا اعلاَمها ، وتنوّروا بسنَاها فكنتُ منتظما في سلك كتّابها ، ومعهوداً في خدمة اعتابِهــا وصحبت ركاب مولانا العــليّ العلوي ، وجيشه المنصور المولوي ، في احدى قدَماته من الحوز ، في سفَر اسفَر طالعُه عن وجه الظفر والفوز :

في عسْكَر مــلأ القلوب مهابةً   والارضَ خيْلا بالعَوارِفِ يفْهَق
للفَتْح والتمكين فيــه دلائلٌ   وعليــه أَلوْيةُ السعادة تخْفُق

نَهضَ لها أيده الله غُرَّة ذي الحجة مُتِمّ عــام (ناشِر)[1] والسَّعدُ

---

١ — نقطة بحساب الجمل ١٢٥١ .

لمعهود العِنـــاية ناشِر ، والرُّعب يهدم جنودَه ، والسعد ينشُر ألويته وبُنُوده ، والنصر تحت ظلال اعلامه وحفظُ الله من خلْفه وأمامه :

والدهرُ معتدِلُ الآناء مُقتَبِـــل والشمسُ حلَّت بِبُرجِ السَّعد والشرف

ومطارِفُ السُّندُس بالآفاق قد نُشِرت ، وجُيوش النَّوْر حُشِدت ألوانُها وحُشِرت ،

والارضُ تُجلَى عروساً في ملابِسها وشَّت حُلاها يدُ الانواء بالزَّهر

والنسيم قد عطَّر بنشرِه الأَنديَة ، وغازَل الاغصانَ فنازعهـــا المطَارِفَ والأَرْدِية ، وجرَّ ذيلَ دَلالِه في الآكام والأَوْدِية :

والرِّيح تَلطِم فيه أَردافَ الرُّبى مَرحاً وتَلْثُم اوْجُهَ الأزهار
ومنابِرُ الاغصان قد قامَت بهـــا خُطباءُ مُفْصِحةٌ من الأطيـــار

وأَلسُن الحـــال تَهْدي الى التفكُّر في مصنوعات الله وتُرشِد ، وكأنَّها تتمثَّل بقول أبي نواس وتُنشِد :

تأمَّلْ في نَباتِ الأرض وانظُرْ بَدائِعَ ما بهـــا صنَع المليكُ
عيُونٌ من لُجَيْن شاخِصَاتٌ على أَطْرافِهـــا الذّهبُ السَّبِيكُ
على قُضُب الزَّبَرْجَد شاهِداتٌ بأَنَّ الله ليس لـــه شريكُ

والناظِرُ الأديب المتأمل ، ينشِدُ قول المُجنِّس المَمَثِّل :

ان هذا الربيعَ شيءٌ عجيب   تضحَك الأرض من بُكاء السماء
ذَهبٌ حيثما ذَهبنا ودُرٌ   حيثُ دُرْنا وفِضَّة في الفضاء

والجيشُ المنصور بحرٌ مُتلاطِمُ الامواج ، يسيرُ فيملأُ الفضاء ويُغِصُّ الفِجاج، ويُقيم فيكون هالةً على بَدْرِ سُعود وشرَف ، وسُورَ حِفْظ لا يُعْرَفُ له طرَف ، قد رُصَّت صفوفُه ، وتعدَّدت أُلوفُه ، وتنوَّعت اجناسه وصُنوفه :

مِن كُلِّ ابيضَ قد تقلَّد ابيضاً   عضْباً واسمرَ قد تقلَّد اسمرا

والخيلُ تمرح في أعِنَّتها ، وتمضي في الخُيَلاء على سُنَّتها ، قد حليَت من الاسلحة بما راق وراع ، واعجزَ وصفه ألسُنَ اللُّسْن وأَسلَةَ اليَراع !

مُؤَصّلة من ذِي العقال ودَاحِسٍ   وآلِ الوَجيه والنَّعامة والخَيْفا

فمن أشهب لبِسَ النُّورَ رِداء ، وسابقَ البرْقَ عِداء :

فكأنَّه في حَلْيِه وسِلاحِه   صبحٌ تقلَّد حِلْيَةَ الجوْزاء

ومِن أدْهم خلع الليل عليه إهابَه ، واثبتَ بين عيْنيه شِهَابه :

فكأنما لطَم الصباحُ جبينَه   فاقْتَصَّ مِنْه فخاضَ في أحْشائه

واحمرَ فأمّا وصفُه فطَهَم عتيق ، واما لونُه فعقيق ، واصفَرَ كأنَّما

صِيغَ من ذَهب ، او خُلِق من لهب :

ألقى الاصيلُ عليه من نَضارته ... غِلالةً وَشت الظلما حَواشِيها

ومن ازرقَ قد تسربَل حُلَّةَ السماء وتحلى بالنجوم ، او رامَ اِستراقَ السمع فرمته بشُهْب الرُّجوم :

عطايا امير المؤمنين وبِرُّه ... باجناده والبِرُّ بالجند يحمد

مليك حليفاه التوكُّل والرضا ... واوصافُه علم وحلم وسُؤْدَد

يصاحِبُه أمنٌ ويُمن ورحمة ... ويَعْضُده فتْح ونصْر مجدد

فتى المجد امّا هديُه فموفّق ... رشيد وامّا رأيُه فمسدّد

به الدينُ سامٍ والشريعة غضَّة ... تروق ورُكنُ المجد عالٍ مشيّد

وان له في مَقْصد الحكم حِكمةً ... يَحُلُّ بها في الله طوراً ويَعقِد

فلا زال محمودَ المساعي مُؤيّدا ... يغُور ثَناه في البلاد ويُنْجِد

فسرْنا تحتَ ظلال العدل والأمن ، نستجلي كلَّ حين من غُرّته الميمونة طالِعَ الفتْح واليُمْن ، ونرفُل في أرْدِية المعالي الضافِية ، ونكْرَعُ في بحار الجودِ الصافية ، ونتمسَّك من النُّجح بالعهود الوافية ، ونرْتَع في روض الأمان والعافية :

وقد بدتْ لنا وجوه الهدى ... مُسْفِرَةً ولاحَ نُور الفَلاح

فلما خيَّمْنا بشاطىء وَادِي العبيد ، قابَلنا بوَجه الجبَّار العنيــد ، وأبدَى مِن مَدِّه آيةَ الإعجاز ، وقال بلسان حاله لا مَجازَ لا مجــاز ، واستعان مِنْ ثَلْج الجبال بالمُذَاب ، فارانا بحراً طامِيَ العُباب :

نهرٌ يُرِيك السهمَ سُرعَةَ جَرْيِه والبحرَ عُمْقــاً والشفيرَ سعِيرا
فلْيُسْلِمِ النفسَ المُرِيــدُ عبُورَه ان لم يكُن لطفُ الإله ظَهِيرا

فأحجَم عن عُبوره القـوم ، واستبْشَر بالزَّبُون العـارفُ بالسِّباحة والعَوْم ، وبات الناس في الآراء يترَدَّدون ، ولقصَص الناجين والغَرْقَى يُعدِّدون ، وقُصارى أُمْنيةِ كلِّ واحد عبُورُ ذلك الصراط ، والانتظامُ في سلك الناجين والانخِراط ، حتَّى أنشد بعضُهم واستحْسَن ، وتمَنَّى ما تمنَّى الحَسن[1] :

ألا ليتَ شِعْرِي هل أَبيتَنَّ ليلةً بسَهْبِ الشَّنِين أو بسَهْبِ بني وَرا
وهـل تعبُرَنْ نهرَ العبيد رَكائِبي وهل أترُكَنْ دَايَا وأدواءَها وَرا

فلما تبلَّج أدْهَمُ الليل عن أشْهَب الصباح ، وحَيْعَلَ الداعي بحيٍّ على الفلاح ، وتولَّت نجومُ الليل تقفُو إثْرَه ، وغدت سيوف ذُكاءَ تخْرِق سِترَه ، وأدَّى الناسُ النفــلَ والفرْض ، وأشرقت بنُور رَبِّها الارض :

---

١ – يريد به الحسن اليوسي الشهير .

ولاحت لنا شمسُ الغَداة كغَادةٍ بدا حاجبٌ منها وضنَّتْ بحاجب

صدر الأذنُ المولويُّ بالعُبور ، وقُدِّم له الصَّبُور فالصبور ، وجعلَ فاتحةَ ذلك نجلَه الأسعَد ، وفرْعه الأنجَب الأصعَد ، سيدَنا ومولانا مُحمَّد ، تفاؤُلاً لتَستحسن العاقبة وتُحمَد ، وكان قد تقدَّم الأمر المُطاع بإعداد المعَادي[1] للاعانة على عُبور ذلك العدو العَادي ، فلم يكُن إلّا أن عبَر الأولُ مكْتَفيا بالمُخْتَصر عن المُطوَّل ، وظهَر من لطف الله وسعادة مولانا ما عليه المعَوَّل ، وحمدَ الناسُ اللهَ على ما سهَّل من ذلك وخوَّل ، تتابع العُبور على الريح والأعوَاد ، معَ سلامة الأنفُس والأزوَاد ، وشاهد الناسُ لجيش مولانا المحْتمِي ، شِبْهَ ما ظهر من الكرامة لعبد الله بن الحضْرَمي ، ولا غرْوَ أن يُعطَى التابع حكمَ المتبوع ، ويظهَر للعيان حقيقةُ ما هو مرْوِي ومسموع ، ولله قومٌ يُسْعِدُهم ويُسْعِدُ بهم ، ويُظهِر عنايتَه على من تعلَّق بسببهم :

واذا السَّعادةُ لاحظَتك عيُونُها نَمْ فالمخَاوفُ كلُّهنَّ أمان
واصْطَد بها العَنقَاءَ فهي حِبَالة واقْتَد بهــا الجوْزَاء فهي عِنَان

ولمَّا خيَّمت الجموعُ بالعُدْوَة الاخرى ، ورأوا السلامةَ غنيمــةً

---

١ – هي القناطر الخشبية المتحركة .

وذُخرا ، وعايَن الناسُ ما تعوَّدُوه مـــع أمير المؤمنين من النجاة والسعود ، والفوز المشهور المشهود ، والتيسير المعلوم المعهود ، هنـــأ بالسلامة بعضُهم بعضاً ، وجعلوا ذلك بينهم سُنَّةً وفرضاً ، فــلا تلْقَى غيرَ حامد وشاكر ، ومُقِرّ بنِعَم الله ذاكِر ، واتَّسع لديهم المجال ، في الرَّوِيَّة والارتجـــال ، فمن ناظم وناثر ، ومُقصِّر ومُكاثِر ، ومن قائل :

أرى نَهْرَ العبيد غدا عَنيدا ... يُعامِلنا بجَوْر واشْتطاط
عبَرْناه على خَطَر وخَوْف ... على غيْر اختِيار واحْتياط
وذَلَّله الإلهُ لنـا فسِرْنـا ... من الرِّيح المُسخَّر في بِساط
يُهنِّيءُ بالعُبور البعضُ بعضـاً ... كأنَّا قد عَبرنا على الصراط

ومن مُتمثل في عُبور الوادي ، على المَعادي :

لئِن كُنَّا ركِبْناها ضَلالاً ... فيَا لله إنـــا تائبونا
فأخرِجنا على المرغوب منها ... (فانْ عُدنا فإنَّا ظالِمُونا)

ومن مُنشِد ، وإلى لُطفِ الله مُرشِد :

عبَرْتُ نهرَ العبيد قهْراً ... على بساط من الهـــواء

ولما حَمِد الناسُ الإيرادَ والإصدار ، واستقرَّت بهم بعد العُبور الدار ، شكَرُوا على فضلِ الله إمامَهم ، وجعلوا القبيلةَ التَّادِليَّة أمامهم ،

المحاضرات

خير العلم ما حوضر به

شجاعة ادريس الازهر

حدَّث داودُ بنُ القاسم بن عبد الله بن جعفر الأوْرَبي ، قال : شهدتُ مع ادريس بن ادريس بعض غزَواته للخوارج الصُّفْرِيَّة من البرْبَر ، فلقِيناهم وهم ثلاثةُ أضعافِنا ، فلما تقارب الجمعان ترَّجل ادريس فتوضَّأ وصلّى ركعتين ودعا الله تعالى ، ثم ركِبَ فرسه وتقدم للقتال ، فقاتلناهم قتالاً شديداً ، فكان ادريس يضرب في هذا الجانب مرة ، ثم يكُرُّ في الجانب الآخر ، فلم يزل كذلك حتى ارتفع النهار ، فرجع الى رَايتِهِ فوقف بإزائها والناس يقاتلون بين يديه ، فطفِقْتُ أنظر اليه وأُدِيم الالتفاتَ نحوَه ، وهو تحت ظلال البنود ، يحرض الناس ويشجعهم ، فأعجبني ما رأيت من شجاعته وقوة بأسه ، فالتفتَ نحوي فقال : يا داود مالي أراك تديم النظر إليَّ ، قلتُ أيها الامام انه أعجبني منك خِصالٌ لم أرها في غيرك . قال : وما هي يا داود . قلت أولها ما أراه من حسنك وجمالك وثبات قلبك ، ومن طَلَاقة وجْهِك وما خُصِصْتَ به من البِشْر عند لقاء عدوك ، قال : ذلك

بركةُ جدنا رسول الله صلى عليه وسلم ودعائِه لنـــا وصلاتِه علينا وإراثةُ أبينا عــليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وكرَّم وجهَه . قلت أيها الإمام أراك تبصُق بُصاقاً مجتمعاً وأنا أطلب الرِّيق في فَمِي فــلا أجِدهُ ، قال : يا داود ذلك لاجتماع عقلي وثبات جأشي وعدَمُ الرِّيق من فِيك لطيش لُبِّك وافتراق عقْلِك ، ولمــا خامرَك من الرُّعب . قال : فقلت أيها الإمام وأنا أيضاً أتعجب من كثرة تقلُّبك في سَرْجِك وقلة قَرارك في موضعك . قال ذلك مني زَعْمٌ للقتال وعزْمٌ وصرامة وهو احسن في الحرب فلا تظنَّه رُعْباً ، ثم أنشأ يقول :

أليسَ أبُونا هــاشِمٌ شدَّ أزْرَه ... وأوْصى بَنِيه بالطِّعان وبالضَّرْب

فلَسْنا نمُلُّ الحربَ حتى تمُلَّنا ... ولا نشْتكي ممَّا يؤول الى النَّصْب

ولكنَّنا أهـلُ الحفائِظ والنُّهى ... اذا طارَ أرواحُ الكُمَاة من الرُّعب

الحسَن الحجّام

كان بين الحسن بن محمد بن القاسم بن ادريس من ملوك الادارسة وبين عمِّه احمــــد بن القاسم حروب شديدة ومُنازَعات على الُحكْم ، فَحمَل الحسنُ ذاتَ يومٍ في قتال على فارس من جند عمه ، فطعَنه في المحَاجِم ، ثم فعــل ذلك بثانٍ وثالث ، كلُّ ذلك لا يطعنُهم إلا في

مَوْضِع المحاجم . فقال أحمدُ عمُّه : إنما ابن أخي حجَّام ، فَلزِمَه هذا اللقبُ ، وقال فيه الشاعر :

وسُمِّيتَ حجّاماً ولستَ بحاجِم ولكن لِطَعْن في مكَان المحاجِم

محاسن الزهد والورع

لما تُوفِّيَ والدُ الشيخ علي بن حِرْزهم ورِثَه هو واخوه ابو القاسم فاتفقا على قَسْم التَّرِكة بينهما بدون تدخل احد من الناس . وقام عليٌّ الى ورِدِه من الليل فجـال خاطرُه في التركة وجعل يفكِّر ما يأخذه منها لنفسه وما يترك لأخيه حتى لم يدرِ ما صلى . فلمـا أصبح بعَث لأخيه أبي القاسم ، وقـال له : أحضِر الشهود حتى أتصدَّقَ عليك بميرَاثي في أبي ، فقال له لا تفعل ، فقال له لئن لم تقبل لأتصدقَنَّ به على الجذْمى ، فلما رأى ذلك منه احضَر البيِّنَة وقبِله .

وكان عبد الرحمن بن عاشَ فقيهاً مُتورّعاً من اهل فاس ، باع فُندُقاً من بعض قَرابته وتصدَّق بثمنه ، فمـات المشتري فوَرِثَه منه فباعـه وتصدَّق بثمنه ايضاً ، ولم يشأ ان يقبِضَ عنده ما كان تصدق به .

وزَرع فدّاناً بباب عَجِيسة وحصَده ودرَسه ، وكان العام شديداً

فجاءه الناظر عليه ، فقال اخرُج الى زرعك حتى تكْتَالَه ، فقال غداً الجمعة لا اقدر على الخروج ، فقال له ان تركتَه نُهِب ، لأن الناس في حاجة شديدة والموضعُ قريب تُدرِك منه الجمعةَ ، فخَرج غُدْوةً واشتغَل في كَيْلِه ونَقْلِه وأتى المدينة فوجد الناسَ قد انصرفوا من الصلاة ، فتصدَّق بالطعام الذي وجد في ذلك الفدان وحبَّس الفدانَ على المساكين . وكان للشيخ ابي القاسم بن خَنُّوشة بُسْتان وأعطِيَ في فاكهته سَوْماً ، فقال للمشتري : اترُكْني هذه الليلة حتى أرى رأيي ، أما ان أنفِّذَ لك البيع او أرُدَّه . فلما كان من الغد جاء من أعطاه في البُسْتان ستين ديناراً او أكثر زيادةً على القيمة الأولى ، فبعث الشيخ أبو القاسم للمشتري الأول ، وقال له أعطِيتُ في البُستان زيادة ، فان أردتَ ان تُمسِك بُستَانك بالثمن الأول فافْعَل وان أردتَ ان تأخذَ الزيادة فهي لك لأني البارحةَ أنفَذْتُ لك البيع بقلبي بالسَّوْمِ الذي أعطيتَني فأخذ المشتري الزيادةَ التي زاد المشتري الثاني ولم يأخذ الشيخُ إلا الثمنَ الأول .

وكان الشيخ صالح بن حِرْزِهِم فقيهاً وَرِعاً وهو عمُّ الشيخ علي ابن حرزهم ، رحل الى المشرق فانقطع مدة بالشام ، وفي قَرْيةٍ ببَيْت المقدس قُدِّمَ للصلاة فَبقيَ هنالك حتى نزَل عليه يوماً أبو حامد الغزالي مع أصحابه وكان في المسجد عَريشُ عِنَب قد ظهر فيه الحِصْرِم ، فقال أصحاب أبي حامد اشتَهيْنا حِصْرِماً ، فقال لهم سلوا

إمامَ المسجد على مَن حُبِّس عِنَبُه ؟ فسألوا الشيخ صالحاً فقال لا أدري على من حُبِّس ولا تعرَّضتُ له ولا أكلتُ منه قط ، فأخبروا أبا حامد بما قال ، فقال هذا مغربي له أعوام في هذا المسجد لم يتعرَّض له قطّ وانتم من ساعة واحدة لم تملِكُوا نفوسَكم .

ودعا السلطان ابو الحسن المريني فُقهاءَ الحضرة الفاسية الى وَلِيمَة وما فيهم إلا ذُو صلاح ودِين ، فمنهم مَن قال إني صائم ، ومنهم من أكَل وقلَّل ، ومنهم من أكل الغَلَّات فقط ، ومنهم من شمَّر للأكل عن ساعدَيه ، ومنهم من قال : هاتُوا من طعام الأمير على وجْه البرَكة ، فإنِّي لا أقدر أن آكلَ الآن ، فسألهم الشيخ أبو ابراهيم الاعرج عن ذلك فقال الاولُ طعامُ شُبْهَة تستَّرتُ منه بالصوم وقال الثاني كنتُ آكل بمقدار ما اتصدَّق لانه مجهُول الأرباب والُمباشِر كالغاصِب وقال الثالث اعتمدتُ القولَ بان الغلاّتِ للغاصب اذ الخراجُ بالضمان وقال الرابع طعامٌ مُستَهْلك ترتَّبت القيمةُ في ذِمَّة مُسْتهلكه فحلَّ تناوُله وقدمكَّنني منه فحلَّ لي وقال الخامس طعام مُستحقّ للمساكين قَدْرتُ على استخلاصه فاستخلصته واوصلته اليهم ، وكان قد تصدَّق بما اخذ .

تحرّي القاضي ابن محسود للعَدالة

كان ابو محمد بن محسود الهوّاري من أهل الفضل والدّين وكان من أهل فاس قاضياً بها فنزل به ضيف فرَهن َغزْلَ امرأته في َسمن يأْتَدِمُ به الضيف فاذا ذلك السمنُ ُمرٌّ لا ُيطاق أكله فبينما ابن محسود في مجلسه اذ نظر السَّمانَ ُمقْبِلاً اليه مع خصمه فقام وأَمر من حضر أن يحكم بينهما فلما عاد الى مجلسه اخبرهم بان ذلك السمّان قد كان اعطاه سمنا ُمرّا وقال خشيتُ مِن اجل ذلك ان لا اسمع منه كما أسمعُ من خصمه فكرهتُ الحكم بينهما .

مُلَحُ أهل التصوف

بعث أبو زيد الَهزْميري الى أبي عمران الشولي وكان كثيرَ الصلاة إنَّه لم يبقَ بينك وبين الله حجابٌ الا الرُّكيْعات فَرَجع اليـــه أن الاتِّصالَ كان منها فلا كان الانفصالُ عنها .

ودخل أبو عبدالله المقَّري على عبد الرحمن بن عفَّان الُجزُولي وهو يجود بنفسه وكان رآه قبل ذلك ُمعافىً فسأله عن السبب فأخـــبره انه َخرج الى لِقَاء السلطان ابي الحسن المريني فسقَط عن دابَّته فتضعضعتْ أركانه فقال ما حملك ان تَتكلَّف هذا في ارتفـــاع سنِّك فقال حبُّ الرِّيَاسة آخرُ ما يَخرُج من قلوب الصدِّيقين. وُسُئِلَ ابنُ شاطِر المرّاكشي

عن معنى قولِ ابن الفارض :

فَلَمْ أَلْهُ بِاللَّاهُوتِ عن حُكْمِ مَظْهَرِي وَلَمْ أَنسَ بالنَّاسُوتِ مَوْضِعَ حِكْمتي

فقال : يقول ما انا بِالحَلَّاج ولا بِبَلْعام .

وكان ابنُ شاطر هذا ممن صحِب ابا زيد الهَزْمِيري وابنَ البنَّاء ورُزِق بمخالطة الاولياء حلاوةَ القبول فلا تكاد تجد من يستثقله وربما سئل عن نفسه فيقول وَليٌّ مَفْسود .

وأعطاه السلطان ابو عِنَان المريني الفَ دينار ليحج بها فمرَّ على تلمسان فصار يدفع منها شيئاً فشيئاً للمتفرِّجين بغدير الوريط شَرْقِيَّ عُبَّاد الى ان نفِدَت فلما ورَد ابو عنان تلمسان لِقيَه بسُوق العطَّارين من منشَر الجلد فقال له ابو عبد الله حَجٌّ مبرور فقال له اذا جهلتَ اصلَ المال فانظر مَصارِفَه ويأبى الله الا أن يُنفق الخبيثُ في مثله فضحك السلطان .

ودخل الأبلي وهو عالم تلمسان على تلميذه ابي القاسم الفخَّار السَّلوي وهو يعجن طِينَ الفخَّارة فقال له ما علامة قبول هذه المادَّة أكملَ صورة تَرِدُ عليها فقال أن تدفع عن نفسها ما هو من غير جِنْسها من حَجَر أو زِبْل أو غيره فأدركه وَجْدٌ عظيم حتى انه صاح وقام وقعد وبقي هُنيئةً مُطرِقاً برأسه مُفكِّراً ثم قال هكذا هي النفوس البشرية .

وكلٌّ ناطقة في الكون تطربُني

قِيلَ لأبي عليّ الحرّالي المراكشي كيف أصبحتَ فأنشد :

أصبحتُ ألطــفَ من مَرِّ النسّيم اذا
سرى على الرَّوْض ، كادَ الوَهْمُ يؤلِمُني

مِن كل معنىً لطيف أجتَلي قــدحاً
وكلّ ناطقــةٍ في الكَوْن تطرِبُني

وكان بعض تلامذته مُولَعاً بالشراب فعكف ليلةً على الشرب حتى سقَط على زجاجة فجرِح في وجهــه فلما أصبح صارَ الى الشيخ وأثَرُ الزُّجاجة ظاهِرٌ عليه فأنشدَه :

لا تسفِكَنَّ دمَ الزُّجاجة بعــدَها إنَّ الجروحَ كما عَلِمْتَ قِصاصُ

فخجل التلميذُ وكان ذلك سبَب تَوْبته .

وكان ابو عبدالله بن ابي بكر الدلائي يُنصتُ لِلسَّماع في آخر عمره ويتأثّر به فانتهى ذلك لابي العباس ابنِ القاضي فكتب له :

عهِدتُك ما تصبُو وفيــك شبِيبَةٌ فمالَك بعد الشَّيب اصبحتَ صابيا

فأجابه :

نعَم لاح بَرْقُ الحسْن فاختطف الحشا فلبَّيْتُه من بعدِ ما كنتُ آبيــا

هِمَّةُ عالم

كان الفقيه ابو العباس الحَبَّاك المكناسي خطيباً بالقَرَوِيِّين فعُزِلَ هو والفقيه القَوْرِي القاضي في يوم واحد ، ثم طُلِبَ بعد ذلك لخُطبة جامع الأندلُس فابى وقال إن كان عزلي بجُرْحة فلا يحلُّ لكم تقديمي وان كان عن غير جُرْحة فقَبُولي من قِلَّة الهمَّة .

عالم ابنُ دلاَّل

قال ابو البَركات ابنُ الحاجّ : كنتُ ببجايَة وقدِمَ علينا رجلٌ من فاس برَسْم الحج ، يُعرف بابن الحدَّاد ، فرَكِبَ الناس في الأخذ عنه والروايةِ لما يَحْمِلُه كلَّ صعْب وذَلُول مع أنه لم تكُن منزِلَتُه هناك في العلم ، فعجِبْتُ لذلك حتى قلتُ لبعض الطَّلبة : لقد أخذتموه بكِلْتَا اليدَيْن ولم أرَكُم مع من هو أعلى قدراً منه كذلك ، فقالوا لي لأنه قدم علينا ونحنُ لا نَعْرِفُه في زيّ حسن بخَادِم يخدُمه يظُنُّ من يراه ان أباه من أعيان أهل بلَدِه ، فسألناه أحيٌّ أبوه أم لا ؟ قال بل حيّ ، قلنا أهُو من أهل العلم ؟ قال لا هو دلَّال في سُوق الخَدم فلذلك آثَرْناه على من هو فَوْقه في العلم ، قال : فقلتُ لهم حقٌّ له أن ترتَفِع منزِلته ويعلُوَ صِيتُه لتخلُّقه وفضْلِه .

حُسْنُ الجواب

حضَر يحيى بنُ الزَّيْتُوني يومـاً بين يدي المعتمِد وعنده ابنُ زَيْدُون ، فكأنَّ هـذا استجْهَله وأراد أن يُخْجِله ، فقال له : أفاسٍ أنت يا أبا زكرياء ؟ يُوهِمُ أنه يسأله عـن بلَدِه ، وخبأ له فيهـا شيئاً ، ففهم ابنُ الزيتوني مُرادَه وأجـابه سريعا منْسُوبٌ اعزَّك الله فَلجَّ ابنُ زيدون في أَذاه فقال نِعْمَ الفتى ابُو زكرياء ففهِمَ ابنُ الزَّيتوني انه يريد يعمُّ الفَسْيُ اباز كرياء فصدمه بمثله ورَماه بشكله فقال له عَبْدُك اعزَّك الله يُريدُ عِندَك أي يعمني عندك — لا عند غيرك من الفُضلاء ولما اجابَه الجوابَ المذكور خجل ابو الوليد واستخفَّ الطرَبُ جميعَ مَن حضر . وحضر القاضي المَليلي وعبدُ المهيمن الحضرمي صاحب العلامة لِلسُّلطان أبي الحسن المريني مجلَس السلطان فجرَى ذكرُ الفقيه ابن عبد الرزاق فقال المليلي جمع من الفنون كذا حتى وضَع يدَه على عبد المهيمن وقال للسلطان مُخاطِبا : ويكتب لك احسنَ من ذَا فوضع عبدُ المهيمن يَده على المليلي وقال نعم يا مولاي ويقضي لك احسنَ من ذا .

وحدثَ المقَّري الكبير قال : نظرتُ يومـاً مع ابراهيم بن حكم الكِنَاني السَّلَويّ في تكْمِلة بدْر الدين ابن مالك لِشَرْح التسهيل لابيـه ففضَّلتُ عليه كلامَ ابيه ونازَعني ابنُ حكم فقلت :

عهودٌ من الآباء توارثَها الأبناء فما رأيتُ بأسرعَ من ان قال : بنوا مجدَها لكن بنوهم لها أبنى ، فبُهِتُّ من العجب .

ولما أوقع السلطان مولاي رشيد بأهـــل الدِّلاء كان ابو عبد الله المُرابِط منهم ممن اختصه لنفسه فكان يتردّد اليه مع العلماء على كراهية منه وفهِمَ السلطان ذلك منه فانشده في بعض الايام :

ومِنْ نكَد الدنيا على الحرّ أن يَرى عدُوّاً له ما من صداقتِه بُـــدّ

ففطنَ المُرابِط وقال على البديهة اصلَح الله الامير وإنّ من سعادة المرء ان يكون عدوّه عاقلا فاستحسَن السلطانُ والحـــاضرون بديهته وحسن جوابه .

بين عبد المؤمن ووزيره

خرج عبد المؤمن يوماً مع وزيره ابي جعفر بن عطية مُتَنزّهـــاً الى بعض بساتين مراكش فمرّا في طريقه بشارع من شوارع المدينـــة فاذا بطاق في دار عليه شُبّاكُ خشَب قد قابله منه وجهُ جارية كأنه الشمس الضاحية قد بادرت الطاقَ تنظُر اليه فنظر اليهـــا عبد المؤمن فأعجبَه حسنُها وحلّت من قلبه كلَّ محل فقال ارتجالا :

قدَّت فُؤادِي من الشبَّاكِ اذ نظرتْ

فقال ابو جعفر :

حَوْراءُ ترنُو الى العشَّاق بالْمُقَل

فقال عبد المؤمن :

كأنَّما لحظُها في قلب عاشِقها

فقال ابو جعفر :

سيْفُ المؤَيَّد عبدِ المؤمن بنِ علي

وقال ابو جعفر : دخلتُ على عبد المؤمن وهو في بستان له قد أينعَت ثِمارُه ، وتفتَّحت ازهارُه ، وتجاوبتْ على اغصانها اطيارُه ، وتكامل من كل جهةٍ حُسنُه وهو قاعد في قُبَّة مُشْرِفة على البُسْتان ، فسلمتُ وجلستُ وجعلت انظر يَمنةً ويَسْرةً متعجّباً مما أرى من حسن ذلك البستان فقال لي : يا ابا جعفر أراكَ كثيرَ النظر الى هذا البستان قلتُ : يُطِيلُ الله بقاءَ امير المؤمنين والله ان هذا لَمنظَرٌ حسَن فقال يا أبا جعفر المنظرُ الحسن هذا ؟ قلتُ نعم فسكَت عني فلمَّا كان بعد يومين او ثلاثةٍ أمرَ بعَرْض العسكر آخذِي أسلحتِهم وجلس في مكان مُطِلّ وجعلت العسكرُ تمرُّ عليه قبيلةً بعد قبيلةٍ وكتيبةً إثْرَ كتيبةٍ لا تمرُّ كتيبةٌ إلا والتي بعدَها أحسنُ منها جودةَ سلاح وفَراهةَ خَيْل وظُهورَ قُوَّة فلما رأى ذلك التفتَ إليّ وقال يا أبا جعفر هذا هو المنظر الحسن لا ثِمارُك وأشجارك .

اعاقبُه بالحلم

حضر ابو العباس الجرَّاوي الشاعرُ والطبيبُ سعيد الغُماري يوماً بباب السلطان يوسف بن عبد المؤمن فقال السلطان لبعض خدَمه انظر مَن بالباب من الأصحاب فخرج الخادم الى الباب ثم عاد اليه فقال احمد الجراوي وسعيد الغماري. فقال يوسف من عجائب الدنيا شاعرٌ من جَروان وطبيبٌ من غُمارة فبلَغ ذلك الجرَّاوي فقال « وضرَب لنا مَثلًا ونَسِي خَلْقَه » أعجبُ منهما والله خليفةٌ من كُومِيَة. فيقال ان السلطان لمَّا بلغَه ذلك قال أعاقِبُه بالحلم عنه والعفو ففيه تكذيبُه .

المنصور الموحدي والفيل

أتى قومٌ المنصور الموحدي بفيل من السُّودان هديةً فأمر لهم بصِلة ولم يقبَلْه منهم وقال نحن لا نريد ان نكون اصحابَ الفيل .

سوءُ الفـال

أهدَى يوسفُ بن تاشَفِين الى المعتمد بن عباد جارية مغنية قد نشأت بالعُدوة فخرج بها الى قصر الزَّهرَاء على نَهْر اشبيلية وقعَد على الرَّاح ، فغنَّته الجارية بهذه الأبيات :

حَمَلُوا قُلوبَ الأسْدِ بينَ ضُلوعِهم ولَوَوْا عمائِمَهم على الأقمار

وتقلّدوا يوم الوَغى هِنْدِيَّــةً أمضَى اذا انتُضِيَتْ من الأقدَار
إن خوّفوكَ لَقِيتَ كلَّ كَريهَةٍ أو أمَّنُوك حلَلْتَ دَار قرَار

فوقَع في نفسه أنها عرَّضتْ بساداتها فلم يملِك غضَبه ورَمي بها في النَّهر فهَلكت .

وَكان الكاتب أبو بكر محمد بن نَصْر الأوْسي مُختَصّا بالوزير ابي جعفر بن عطية فقال فيه :

أبا جعفرٍ نِلْتَ الذي نال جعفرٌ ولا زلتَ بالعَلْيــا تُسَرُّ وتُحْبَرُ
عليكَ لنا فضْلٌ وبِرٌّ ونِعْمــة ونحن علينـــا كلُّ مَدْحٍ يُحَبَّرُ

وكان ابو جعفر قد احسَّ من عبد المؤمن التغيُّرَ الذي افضى الى قتله . فلمَّا سمعَ هــذا من أبي بكر تغيَّر وجهُه لأن جعفر بن يحيى كان آخر أمره الصَّلْبَ فكأنَّه نعَى اليه نفسَه .

وقفٌ على الشعراء

قال ابنُ حبُوس دخلتُ مدينة شِلْب من بلاد الاندلس ولي يوم دخلتها ثلاثة أيام لم أطعَمْ فيها شيئاً ، فسألتُ عمن يُقصَد اليه فيهـا فدلني بعض اهلهـا على رجل يعرف بابن المِلْح ، فعمدت الى بعض

الوَّراقين فسَأَلته سَحَّاءَةً[١] ودَواة فاعطانِيها فكتبتُ أبياتاً امتدِحه بها وقصدتُ داره فاذا هو في الدِّهليز فسلمتُ عليه فرَّحب بي وردَّ عليَّ أحسنَ رد وتلقَّاني أحسنَ تلقّ وقال أحسِبُك غريباً ، قلتُ نعم فقال لي من أيِّ طبَقات الناس أنتَ ؟ فأخبرتُه أنِّي من أهـل الأدب من الشعراء ثم أنشدتُه الأبيات التي قلتُ ، فوقعتْ منه أحسنَ موقِع ، فأدخلَني الى منزله وقدَّم إليَّ الطعام وجعل يحدثني فما رأيتُ أحسنَ مُحاضرةً منه ، فلما آن الانصراف خرج ثم عاد ومعه عبْدانِ يحمِلان صُنْدوقاً حتى وضعه بين يدَيّ ، ففتحته فأخرج منه سبعمائة دينـار مُرابطيّة فدفَعها اليَّ وقال هذه لك ثم دفع الي صُرَّة فيها أربعون مثقالا وقال هذه من عندي فتعجبتُ من كلامه وأشكل عليَّ جدا وسألتُه من اين كانت هذه لي فقال لي سأحدِّثُك : اني اوقفتُ ارضاً من جمـلة مالي للشعراء غَلّتُهَا في كل سنة مائةُ دينار ومنذ سبْع سنين لم يأتني احـدٌ لتوالي الفِتن التي دهمت البلاد فاجتمع هـذا المال حتى سِيقَ لك واَّما هـذه فمن حرٍّ مالي يعني الاربعين ديناراً فدخلت عليـه جائعـاً فقيراً وخرجتُ عنه شَبْعان غنيّاً .

---

١ — السَّحاءة قصاصة من الورق كالسير في عرض رأس الخنصر تلف على الكتاب بعد طيه ويلصق رأسها .

بين اميرين

كتب الاميرُ سليمانُ الموحّدي الى الامير ابي الحسن يومَ جُمعة :

اليومُ يومُ الجمعة   يومُ سرور ودَعه
وشملُنـــا مُفترق   فهل ترى أن نَجمَعه

فاجابه بقوله :

اليـــومُ يومُ جمعة   وربُّنا قـــد رفَعَه
والشُّرْبُ فيه بِدعَةٌ   فهل ترى ان نَـــدعه

مُلَح نحوية

سُئل ابنُ البنَّاء العددي عن قوله تعالى « ان هـــذان لساحران » لِمَ لَمْ تَعْمل إنَّ في هذا فقال لما لم يُؤثِّر القولُ في المقول لم يؤثر العامل في المعمول فقيل له هذا لا ينهضُ جواباً فانه لا يلزمُ من بطلان قولهم بطلانُ عمل إن فقال ان هـــذا الجواب نَوّارةٌ لا تحتَمِل ان تُحكَّ بـــين الأكُف .

وحدّث أبو القاسم الشاطبي قال لي الشيخ القاضي أبو القاسم الحسني يوماً وقد جرى ذكر حتى التي للابتـــداء وأنَّ معناها التي يَقَعُ بعـــدها

الكلام سواءً كان ذلك متعلقا بما قبلها لم يتِمَّ دُونَه أولا بل لا يكون الأمر إلا كذلك ، قال وحدثني بعضُ الأصحاب أنه سمع رجلاً يصلي أشْفَاعَ رمضَان فقرأ من سورة الكهف الى قوله تعالى ثُمَّ اتَّبَع سبَباً ، فوَقف هناك وركَع وسجَد قال فظننتُ أنه نَسِيَ ما بعدُ ، ثمَّ ركعَ وسجدَ حتى يتذكَّرَ بعد ذلك ويُعِيد أولَ الكلام ، فلما قام من السجود ابتدأ القراءة بقوله حتى إذا بلَغَ ، فلما أتمَّ الصلاةَ قلتُ له في ذلك فقال أليسَتْ حتى للابتداء ؟ قال القاضي الشريف فيجِبُ أن يُفهم أن الاصطلاح في حتى وفي غيرها من حروف الابتداء ما ذُكِر .

وجلس العلامة محمد الصَّغير الوَرْزَازي ذاتَ يوم حين اقامته بمصر مع جماعة من العلماء والأعيان وقُدِّمَ اليهم طعام فأخرج كلٌّ واحد منهم مِلْعَقَةً معَه وأخذَ يأكُل بها فأخذ هو يأكُل بِيَده وتركَ الملعقَة ، فقالوا له ما هـذا يا شَيْخَ المغَاربة فأنشدَهُم متمثِّلا بقول ابن مالك في الألفية :

وفي اخْتِيَارٍ لا يَجِيءُ المنْفَصِل إذا تأَتَّى أَنْ يَجِيءَ المتَّصِلْ

وقيلَ ان هذه الحكاية وقعَتْ للمُرابِط الدِّلائي.

وجلس بعضُ الطلبة يوماً بين يدَي المنصور الذهبي فأنشَد هذَيْن البيتين :

زَمانِنـا كأْهلِه واهلُه كما تَرى
وسَيْرُهم كَسَيْره وسيْرُه الى وَرا

وخفَضَ زَمانِنا عند الإنشاد فقـال له المنصور كيفَ خفضْت الزَّمـان ، فقـال الطالبُ واللهِ لأَخفِضَنَّه كما خفَضني ، فـأعجَب ذلك المنصور .

ومات ابو العلامة الطُرْنباطِي النَّحْوي فكان فِي الْمُعَزِّين له رجلٌ عاميّ جلسَ فقال يا رَسولُ الله برفع رسول ، فقـال له الطرُنباطي لَحْنُكَ أشدُّ عَليَّ من موتِ ابي .

من محاسن التصحيف

قال ابنُ قَطْران المرّاكُشي كنتُ بالمدينة إذْ أقبَل رافِضيٌّ بفَحْمة في يدِه فكتَب على جِدار هناك :

مَن كان يعْلَمُ ان اللهَ خـالِقُه فلا يُحِبَّ أَبَا بكـر ولا عُمَرا

قال فسِرْتُ اليها وجعلتُ مكان يحِبَّ يَسُبَّ فرَجع فوَجده كما اصلحتُ فجعَل يلْتفِتُ يميناً وشِمـالاً كأنّه يطلب مَن فعل ذلك ولم يتّهِمْني ، فلما اعياه الأمر انصرف .

حديث اللظافة *

اصطحَب ابو اسحاق التلمساني ومالكُ بنُ المرَحّل في مَسِير فآوَاهما الليلُ الى مُشَجَّر فسألا عن صاحِبه فدُلَّا عليه فاستضَافاه فأضافَهما فبسَط قَطِيفةً بيضاء ثم عطَف عليها بخُبْز ولبَن وقال لهما استَعْمِلا من هذه اللَّظافَة حتى يحضُر عشَاؤُكما وانصرَف فتحاورَا في اسم اللظافة لأيِّ شيء هو منها حتى ناما فلم يرُعْ أبا اسحاق إلا مالكٌ يُوقِظُه ويقول قد وجدتُ اللظافَة ، قال كيف ؟ قال ابعدتُ في طلبها بما لم يمُرَّ قط على مسمع هذا البدَوي فضلاً عن ان يراه ثم رجعتُ القَهقرى حتى وقعتُ على قول النابغة :

بِمُخَضَّب رَخْصِ البنَان كأنَّه عنَمٌ يكَادُ من اللَّطافة يُعْقَد

فسنَح لبالي أنه وَجد اللطافةَ وعليها مكْتُوب بالخَطّ الرقيق (اللِّين) فجعل احدى النقطَتَين للطَّاء فصارت اللطافة اللظَافة واللِّين اللَّبَن وان كان قد صحَّف عَنم بِغَنم وظنَّ أن يعقد جُبن فقد قَوِيَ عنده الوهم ، فقال أبو اسحاق ما خرجتَ عن صَوبه فلما جاء سألاه فأخبرَ أنها اللبن واستشهد بالبيت كما قال مالك .

---

* أنظر بحث العلوم اللغوية في العصر المريني أثناء الكلام على الحركة العلمية .

نجابة الأولاد

أمرَ المأمون الموحدي بقتل أشياخ الموحدين وأشرافهم فقُتِلوا عن آخرهم ولم يُبقِ منهم على احد ولم يُراعِ والداً ولا ولداً حتى أنه أُتِي بولَد أُختِه وهو صبي صغير ابنُ ثلاثَ عشرةَ سنةً ، وكان قد حفِظَ القرآن فلما قُدِّم ليُقتَلَ قال له يا أمير المؤمنين أعْفُ عني لثلاث قال وما هي ؟ قال صِغَر سِنِّي وقُرْب رَحِمي منك وحِفظي للكتاب العزيز فأعجبَه قُوة جأشِ الغلام وإقدامُه على الكلام في مثل ذلك المقام ، ثم نظَر الى القاضي المكيدي كالمُستَشِير له ، فقال يا أمير المؤمنين « إنَّك ان تذَرْهم يُضِلُّوا عبادَك » الآية فقَتله .

وطُلِبَ الشيخ أبو اسحَق الغافقي لتأديب وَلدٍ لبعضِ رُؤَساءِ سبْتَة فقرأ معه كتاب الجُمَل للزَّجّاجي حتى اذا وَصَل لقوله في حُروفِ المُضارعة يَجْمَعُها قولُك « نَأَيْتُ » قال له ذلك الوَلدُ يا سيدي ينْبَغي أن تُقدَّمَ الهمزةُ على النُّون لما في ذلك من حُسن اللفظ والمناسبَة ، أما حسنُ اللفظ فنأَى معناه بَعُد وأَنى معناه قَرُب والتفاؤُل بالقُرب حسن ، وأما المُناسبَةُ فهي أن يكون لكل واحد من هذه الأحرف ضِعْفُ ما قَبْله ، فان الهمزة لمعنى واحد ؛ للمتكلِّم وحده ، والنون لِمَعنَيَين للمتكلم ومعه غيره أو المعظم نفسه ؛ فهو ضِعْفُ الهمزة ، والياء لأربع معان لِلغائب والغائِبَين والغائِبين والغَائِبات نحو يقومُ

ويقُومان ويقُومُون ويَقُمْن فهي ضِعْفُ النون ، وأما التاء فهي ضِعْفُ الياء لثمان معان للمخاطَب والمخاطَبة والمخاطَبين والمخاطَبتَين والمخاطِبين والمخاطَبات نحو تَقُوم يا زيد وتقُومِين يا هند وتقومان يا زيدان ويا هِندان وتَقُومون يا زيدون وتَقُمن يا هندات ُ وللغائبة والغائبتَين نحو هند تقوم والهندان تقومان ، فلما سمع الشيخ هذا منه قال له : مِثلُك لا ينبغي أن يشغَل غيرَه بل غيرُه هو الذي يشغَله ولم يعُد للقراءة معه .

وكان القاضي محمد ابنُ ابي القاسم ابن سُودَة إماماً بالقرويين وكان يُؤَخِّر صلاةَ الصبح تأخيراً مُفرِطاً رحمةً بالضعفاء ، فحدَث ان سأل بعضُ المارَّة صبياً مُبَكِّراً الى الكُتَّاب هل يُدرِكُ صلاةَ الصبح بالقرويين فقال واللهِ لا يُمشَى لها إلا بالمِظَلَّة ، كِناية عن انها لا تُصلَّى إلا بقُرب طلوع الشمس .

وقال ابنُ الطيِّب العلمي كنتُ ماراً يوماً في جماعة من الأصحاب ووافق ذلك فصلَ الشتاء فمررنا بين الرياض والقُضُب عاريةٌ من أوراقها فقلت لهم على سبيل الاختبار أيُّكم يخبرني عن الغُصْن لأي شيء يتَعرَّى في البرد ويكتسي في الحر وكان القياس خلافَ ذلك فانقطعوا إلا ما كان من صاحبنا أبي العباس سيدي احمد الشريف فانه قال وهو يومئذ حدَث صغيرُ السِّن جداً إنما يتعرَّى في الشتاء لأن النـاس أحوجُ الى

الشمس منهم الى الظل فلو اكتسى لكان حائلاً بينهم وبينها واكتسى في الصيف لأنهم أحوجُ الى الظل فلو تعرَّى لم يجدوا وقايةً من حر الشمس فهو يترك حقَّه في حق الناس ، قال وانت اذا تأملتَ قول الشاعر :

سألتُ الغصنَ لِمْ تعرَى شتاءً وفي وقتِ المصيف أراك كاسِ
فقال ليَ الربيعُ على قُدومٍ خلعْتُ على البشير به لِباسي

عرفتَ فضْل ما بين الجوابين وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وقد نظَم معنى الشريف الكاتب أبو عبد الله بنُ سليمان من رجال الأنيس :

سألتُ قضيبَ البان لِمْ أنتَ تكْتسِي مَصيفاً وتعْرَى في الشتاء من الورَقْ
فقال أخلِّي الشمس تُسخِنُ زائري لاْخلَع سهْمَ البرْد منه اذا مرَقْ
وألبَسُ ثوبي في المصِيف حنانةً لِيَأوِي الى ظلي ولوْلاه لاْحترَقْ

بديهة الجرّاوي

حدَّث صَفوانُ بن ادريس أن أبا العباس الجراوي كان في حانوت ورَّاق بتونس وهناك فتىً يميل اليه فتناول الفتى سْوسَنةً صفراءَ وأوماً بها الى خدَّيه مُشيراً وقال أين الشعراءُ تحريكاً للجرَّاوي فقال هذا ارتجالاً :

وعُلويٍّ الجمَالِ اذا تبدَّى أراكَ جَبينُه بــدراً أنارا
أشارَ بسَوْسَن يحْكيه عرْفاً ويحْكي لونَ عاشِقه اصفرارا

الأصيلُ في فاس

قال الشَّريشي أخبرَني ابنُ منصور قال خرجتُ بخارج فاس عشيةً مـــع فتى ورَّاق فنظر الى صُفْرَة الشمس واستنشَق بَرْدَ النسيم وأنشدني مرتجِلاً :

انظُر الى الشمس في الأصِيل كأنَّهـــا وجْنتَا عليـــل
ورَقَّ هـــذا النسيمُ حتى كأنَّمـــا يشْتَكي نُحـــولي

بين ابن عبدوس وابن الجهم

قال ابنُ عَبْدُوس الفاسي سِرْتُ يوماً الى عليّ بنِ الجهم فأنشَدني بيتَين في العِناق :

سقَى اللهُ ليلاً ضمَّني بعد هَجْعة وأدْنى فؤَادي من فؤَاد مُعذِّبي
فبِتْنا جميعـــاً لو تُراقُ زجاجةٌ من المـــاء فيما بَيْنَنا لم تَسرَّبَ

فاقْتدح زَندي لإيراد مثلِه فقلتُ :

لا وَالمنازِلِ من نَجْد وليلَتِنا بُعَيدُ اذْ جسدَانا بيننا جَسدُ

كرامَ فينا الكَرى مع لُطفِ مسْلَكِه نوْماً فما انفكَّ لا خدٌّ ولا عضُد
ما أنصَفُوني دَعوني فاستجبتُ لهم حتى اذا قرَّبُوني منهم بَعُدوا

الوَجْد مع الوُجْد

كان رجل يتعشّق قَيْنةً كانت ورِثتْ من مولاها مالا تُنفِق عليه منه فلما فرغ المال ملَّها فقال فيه عقيل بنُ عطِية ابنُ أخي الوزير ابن عطية :

لا تلْحَه إن مال عن حبِّها فلم يكُن ذَلك من وُدّ
لَّما رآها قد صفَا مالُها قال صفَا الوَجْد مع الوُجْد

حسن الاعتذار

صبَّح يحيى بنُ عبد المَنَّان السلطانَ أبا العباس المريني عند المساء فأنكَر عليه وظنه ثِملاً فقال:

صبَّحتُه عندَ المساء فقال لي ما ذا الكلامُ وظنَّ ذاك مُزاحا
فأجبتُ إنَّ ضِياءَ وجهك غرَّني حتى توَّهمتُ المساءَ صبَاحا

حسن التعليل

سأل السلطان أبو سعيد المريني كاتِبَه عبدَ المهيمن الحضرمي عن

تهادي المحبِّين التُّفاحَ دون الخوخ وكلاهما حسَنُ المنظَر ، طيِّبُ المخْبَر شديدُ الشَّبه بأخيه ، سديدٌ تَشبيهُ الوَجنات به لمتوَخيه . فقال مِن عندِ مولانا ، فقال أرى أنَّ ذلك لاشتمال التفَّاح على الحبّ الذي يُذكِّر بالحبِّ والهوَى ، والخوخ على النَّوى الذي يُذكِي اسمُه صُفْرةَ الجوَى .

من اللطائف في التشميت

عطَس السلطانُ أبو العباس المَرِيني وكان ابنُ عبد المنَّان حاضراً فقال :

يرْحَمُك الرحمانُ من عاطِسٍ   وليهْنِك الحمدُ على عطسَتِكْ
ويغفرُ اللهُ لنا كلِّنا   وليُسبِل السِّترَ على وجنَتِكْ

وعطَس السلطان مولاي سليمانُ وقاريءُ الحديث عنده يقولُ يرحَمُكَ اللهُ من قوله صلى الله عليه وسلم : اذا عطَس احدُكم فلْيقُلِ الحمد لله فاذا قال فليقُل له أُخوه او صاحبُه يرحَمُك الله، فقال الشيخ حمدون ابنُ الحاج وكان حاضراً :

عطَسْتَ وقاريء الحديث يقُول   (يرْحَمُكَ اللهُ) قولَ الرَّسُولْ
فكانَ الرسولُ المشمِّتَ إذْ   عطَسْتَ وذلك أعظَمُ سُولْ

شاعر بليد الطبع !

كان ابنُ عَمرو الشَّاوِي قديمَ الصحبة للمنصور وأخيه المعتصم واغترب مع الأخير في الجزائر مدةً مديدةً ولما أفضت الخلافة للمنصور سوَّغه مَغَارِمَ مَسفِيوةَ بحذافيرِها مُكافَأَةً على الهجرة إلّا أنَّه استثنى منها أعشَارَ الزَّيْت فكتَب له ابنُ عَمْرو بأبيات لِيَشْمَلها العطاء فأعطاها له أيضاً فكان يبيعُ منها بالآلاف من العَيْن وهذه الابيات :

أَبحْرَ النَّدى خيْرَ الملوك سَجيّةً ... وأفضَلَ سُلْطانٍ رَقَى فَوْقَ مِنْبَر
لقد سِرْتَ في الاسلام أحسنَ سِيرَةٍ ... وخُصِّصْتَ بالنَّصْر العزيزِ المُوَزَّر
أَموْلايَ لاحِظْني بِجُودِك إنـني ... فَقيرُ نَوالٍ من لَدُنْك مُوَفَّر
فهذا زَمانُ الزَّيْتِ قد جاء مُقْبِلاً ... ولِي رَغبَةٌ فيه بِغَير تَنكُّر
فمِنْها اشْتِعَالي في الدُّجا وتَطيُّبِي ... ودُهْنُ طَعامِي ثُمَّ مِنها تعطُّري
لأَنِّي بَلِيدُ الطَّبعِ أشتَاقُ رِيحَها ... فَفِي الزَّيتِ يامَولايَ مسكي وعَنبَري

المودَّةُ في القُرْبَى

كتبَ الشيخُ التاوُدِيُّ ابنُ سُودَة لِقَاضِي فَاسِ أَبي عبدِ الله الهوَّاري يَستَعْطِفُه في تَسْرِيح شَرِيفَين مِن السِّجن :

أَقاضِي الوَرى رِفقاً بآل محمـدٍ ... ورَاعِ رعاكَ اللهُ في حَقِّهم جَنْبا

وذا سابعُ الميلاد فافْكُكْ وَثاقَهم وكُنْ تالياً إلَّا المودَّة في القُرْبى[1]

فأجابه :

أيا عالِماً قد طبَّقَ الشرْقَ والغَرْبا وأبدَى لنا ما يَشْرَحُ الصدرَ والقَلْبا

وذاكَ بنُصح لي بنَظْم مُهــذَّبٍ وفِي طَيِّه عتْبٌ وأحبِبْ به عتْبــا

وها أناذَا في الحِين لَبَّيْتُ أمرَكُم وما أبتَغِي إلا المــودَّة في القُرْبى

إنَّك لبَحْر

قصد الشاعِرُ أبو بَحْر بنُ عبد الصمد مَرْوَانَ بنَ سَمَجُون الطَّنْجي زعيمَ المغرب وشيْخَه في وقته بقصيدة صنَعها فيه جاء فيها :

فِدًى للفقيه ابْنِ عبدِ المَلِك رجـــالٌ حلُومهُم تُستَزلّ

يرُومون إدْرَاك غـــايَاتِه وَهيْهاتَ بالقَول لا بالعمَــل

جرَى وجروْا في مَيادِينِــه فجاءَ بهــا سابقاً في مهَــل

إمامٌ اقـــامَ منَارَ الهُــدَى وعزَّ على أهــلِ تلك النِّحَل

وبيَّن للنـــاس فصْلاً فَفَصْلاً غَوامِضَ أسرار تلك المِلَــل

وضمَّ الى الرأي مَتْنَ الحديث وعِلْمَ الكلام وفَهْمَ الجدل

[1] ــ اي قوله تعالى : قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى .

فلما أنشده إياها استَحْسنها واهتزّ لهـا طرباً وقال له أبُو مَن ؟ فقال أبو بحر ، فقال إنك لبحر عند اسمك ووَصله بصِلَة سَنِيّة .

حِلْمُ المنصور الموحدي وعِلْمُه

قال ابنُ الخطيب : حدَّثني شيخي أبو الحسن بنُ الجَيَّاب عمَّن حدَّثه من أشياخه ، قال : عرَض أبو عبد الله ابنُ عيَّاش والكاتب ابن القالي على المنصور كتَابَين وهو في بعض الغَزَوات في كَلَبِ البَرْد وبين يديه كانُونُ جَمْر وكان ابنُ عيَّاش بارِعَ الخط وابن القَالِي ركِيكَه ويفضُله في البلاغة أو العكس ، الشكُّ منِّي ، فقال المنصور أيُّ كتابٍ لو كان بهذا الخط وأيُّ خطٍّ لو كان بهذا الكتاب ، فرَضِيَ ابنُ القالي وسخِطَ ابنُ عياش فانتزَع الكتاب من يد المنصور وطرَحه في النار وانصرف فتغيَّر وجْهُ المنصور وابتَدر أحدُ الأشياخ فقال : يا أمير المؤمنين طعَنْتم له في الوسيلة التي عرَّفَتْه ببابكم فعظُمت غَيرُته لمعرفته بقدر السبب الموِّصل اليكم فسُرِيَ عن المنصور وقال لأحد خُدَّامه : اذهب الى السَّبْي فاخترْ أجمَلَ نسائه الأبكار وائْت ابن عياش فقل له هذه تطفيء من خُلُقِك ، قال ابن عياش يخاطب ولدَه وقد حدَّث الحديث هي أمُّك يا محمد أو فلان ، وقال ابن خَميس : حدثني خالي أبو عبد الله ابن عَسْكَر أن الكاتب أبا عبد الله ابن عياش كتب يوماً كتاباً ليهوديّ فكتب فيه ويُحمَلُ على البرِّ

والكَرامة، فقال له المنصور : أتقول في كافر يُحمَل على البرّ والكَرامة؟ قال ابنُ عياش ففكَّرتُ ساعةً وقــد علِمْتُ أن الاعتراض يلزَمُني . فقلت : قال رسول الله صــلى الله عليه وسلم اذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرموه ، وهذا عامّ في الكافر وغيرِه ، فقـــال نعَمْ هذه الكرامةُ فالمَبَرّةُ من أين أخذتَها ، قال : فسكَتُّ ولم أجِــدْ جواباً قال فقرأ المنصور : أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم لا يَنْهَاكُم اللهُ عن الذين لم يُقاتِلوكُمْ في الدِّين ولم يُخْرِجوكُمْ من دِيَارِكم أن تَبَرُّوهم وتُقْسِطُوا اليهم إنّ الله يُحِبُّ المُقْسِطين فسُرِرْتُ بذلك وشكَرْتُه .

وروَى ابنُ رُشَيْد الفِهْري عن شيخه أبي بكر بن حَبِيش قال : أخبرَني أبــو بكر بنُ مُحرِز قال كان شيخُنا أبو عبد الله الحَجَري بقي لم يشهَد الجُمعةَ نحوَ أربعين سنة يمنَعُه من ذلك عُـــذْرٌ كما منَع مالكَ بنَ أنس رضي الله عنه وكان الناس يقولون انما يتركُها لِمَكان ذِكْر المُوحِّدين فيها ، فكان ذلك يبلُغُ أميرَ المؤمنين المنصور فيُغضِي عنه ويقول لعلّ له عُذرا .

ويُحكَى أن الشاعر المُجيد أبا بكر بن مُجْبَر أنشد يوسف بن عبد المؤمن قصيدة يهنئه فيها بفتح منها :

إنّ خيرَ الفُتوح ما جَاء عفواً مِثْلَما يخطُبُ الخطيبُ ارتجالا

وكان أبو العباس الجرّاوي الشاعرُ حاضراً فقطع عليه قوله وقال يا سيّدنا اهتدم بيتَ وضّاح :

خيرُ شرابٍ ما كان عفواً كأنّه خطبةُ ارتجال

فبدَر يعقوبُ المنصور وهو حينئذ وزيرُ أبيه وسنّه قريبُ العشرين وقال ان كان اهتدمه فقد استحقّه ، لنقله ايّاه من معنى خسيس الى معنىً شريف فسُرَّ أبوه بجوابه وعجِبَ الحاضرون .

مِن اكرام أبي العلاء الموحدي للعلماء

قال ابنُ رُشيد أخبرني شيخُنا أبو بكر بن حَبيش قال أخبرني سهلُ بنُ مالك قال : كان الطَّلَبةُ يحضُرون مجلسَ أبي العلاء فيتذاكرون بين يديه ويتكلم أمير المؤمنين فتكلَّم يوماً على السَّلَم الذي هو من أقسام البُيوع فسكَّنَ اللام قال سهل فأعدتُ السَّلَم وقلت : قال الفقهاءُ في السَّلَم ، والسَّلَمُ مِن حُكمِه كذا وكرَّرتُه مرات مُعْتَنِياً بفَتحَة اللَّام ، فنظَرتُ اليه يُحَدِّقُ إليَّ النَّظَر كالمُصْغي لِما أقُول فلم يُعِدها الى أن انقضَى المجلس فلما وصلتُ منزلي أدركَني بعضُ مماليكه ومعَه كسوةٌ من ثِيَابه وصُرّةٌ فيها خمسُمائة دينار ، وآخر بِفَرسٍ مُطَهَّم فقال : مولانا يقرأُ عليك السلامَ ويقول لك هذا من ثِيَابه ومن رِكَابه تُصلِّي فيها وتدعُو له وهذهِ بِرَسم النفقة .

هي الشمس

كانت الأميرةُ تَميمَة بنتُ يوسف بن تاشفين بارعةَ الحُسن، تامّةَ الأدب، فرآها يوماً كاتبٌ لها وكانت قد أمرَتْ بمُحاسَبتِه وبَرزَت لذلك، فبُهِتَ. ولمّا نظرت اليه عرَفَت ما دَهاه، وفطِنَت لِما عَراه، فأومأت الى نفسِها وأنشدته:

هِيَ الشمسُ مَسكَنُها في السماءِ ... فعَزِّ الفُؤادَ عزاءً جميلا

فلَن تسْتطِيعَ اليها الصُّعُودَ ... ولن تَستَطِيعَ اليك النُّزولا

حيوانات معلّمة

ذكر ابنُ حَمُّويَة السَّرَخسي في رحلته أن قوماً قصَدُوا المنصور الموحدي ومعهم حيَوانات مُعلَّمة، منها أسَدٌ وغُراب، أما الأسَدُ فيقصدُه من دون أهل المجلس ويَرْبِضُ بين يَديْه، وربَّما أومَأ بالسجود ومدَّ ذِراعَيْه، وأما الغُراب فكان يقول: النَّصرُ والتمكين لسيِّدنا أمير المؤمنين، وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

أَنِس الشِّبْلُ ابتِهاجاً بالأسَدْ ... ورَأى شِبْهَ أبيه فقصَدْ

أنطقَ الخالقُ مخلُوقَاتِه ... شهِدُوا والكلُّ بالحقّ شهِدْ

أنّك الخِيرَةُ من صَفوَتِه ... بعدَما طالَ على النَّاسِ الأمَدْ

فأعطاهم وكساهم .

أحبُّ سلا

أُسِرَ محمد بن سوّار الأشبوني الشاعر وجرت عليه مِحَن في الأسر ففداه ابنُ عشرة كريمُ سلا فمدحه بمدائح كثيرةٍ ومنها قوله :

أحبُّ سلا من أجل كونك من سلا فكلُّ سلاويٍّ إليَّ حبيب
لصيَّرتها مِصْراً ونَيْلُك نيلُها وكفُّك بَطْحاها وأنتَ خَصِيبُ [1]

نتيجة العلم

كان في غرفة المُوَقِّت بمئذنة القرويين ساعةٌ غريبة ، من صُنع المُعَدِّل أبي عبد الله الصنهاجي وقد وصفها أحدُ الشعراء بقوله :

روحٌ من الماء في جسم من الصُّفُر مُوَلَّد بلطيف الحِذق والنَّظر
اذا بكى دار في أحشائه فَلَكٌ خافي المَسير وان لم يَبْكِ لم يَدُر
وفي أعاليه حِسْبانٌ يُفَصِّلُه للناظرين بلا ذِهن ولا فِكَر
مُترجمٌ عن مواقيتٍ يُخبِّرنا بها فيُوجد فيها صادقَ الخبر

---

١ - فيه إشارة الى الخصيب بن عبد الحميد المرادي أمير مِصْر وممدوح أبي نوّاس.

تُقضَى به الخمسُ في وقت الوُجوب وانْ غطَّى على الشمس سِترُ الغَيم والمطر
مُحدِّد كلَّ مِيقَــاتٍ تَخيَّرَه ذوُوا التــأمل للأَسفَارِ والحضَر
نتيجةُ العِلْم والأفــكار صوَّرَهُ ـيا حبَّذاـ مُبدِعُ الأفكار في الصُّور

تظليل صحْن القَرو يِّين

كان بصَحن جامِع القرويين بفاس مِظَلَّات من شُقَق الكَتَّان تُنشَر في زمن الصيف لتظليل المصلين يومَ الجمعة أحدَثَهَا القاضي محمد ابنُ داود وذلك بأن جعَل حِبالاً تجري في حَلَقٍ على جوانب الصَّحْن تُرفَع بها المِظَلَّات وقتَ الحاجة اليها وجعَل في مواضع منهـا فُرَجــاً يتَنَسَّم الناسُ منها الهواء ، وفيه يقول الشاعر مُنوِّهاً بعمَله هذا :

تفسَّحتِ الدنيا بعدْلِك في الورى وفَسَّحتَ لَّما ضاق للخَلْق جامِعا
شكَى صَحنُه شَمْسَ الظَهيرة ضاحِياً فأظللته ظِلَّا على الوَهج دافِعــا

تحت ثُرَيَّا القرويين

جلس الأستاذ المِزيَاتي ومعه محمد بن عَبدُون ومالك بن المُرَحَّل ومحمد بن خلَف تحت ثُرَيَّا القرويين الكبرى ليلةَ السابـع والعشرين من رمضان وهي تتوهَّجُ نوراً فأنشد فيها ارتجالا :

انظُر الى ثُرَيَّةٍ نورُهـا يصْدَع بالَّلألاء سَجْفَ الغَسَقْ

فقال ابنُ عبدون :

كأنَّها في شكلِها ربْوةٌ انتظم النَّوْرُ بها فاتّسَقْ

وقال ابن المرَحّل :

أُعيذُها من شر ما يُتّقَى مِنْ فجْأةِ العَيْن برَبِّ الفَلَقْ

وقال ابنُ خلَف :

بَاهَى بها الإسْلامُ ما أشْرقَتْ كاسَاتُها عند مَغيب الشَّفَقْ

وذكر الثّعالبي قال كنّا نقرأ المقامات الحريرِيَّةَ بيْنَ العِشاءَيْن بعنزَةِ جامع القرويين في زمن الصيْف على الأُستاذ مَنْدِيل بْن أَجرُّوم فجعَل يُقرِّرُ الاستعارةَ في قولِه تعالى : فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ فجاءت ريحٌ قويةٌ فضَربَت المصابِيحَ الى الجدُران فأطرَق الأُستاذ ثم رفَع رأسه فقـــال :

ولمَّا ضرَبْنا في بيـــان استِعَارَةٍ مِثالاً بِصَدْعِ الحقِّ صدْعِ زُجاجُ

أرتْنا عِيَاناً صدْعَها الرِّيحُ إذْ غدَتْ تُكسِّرُ في الجدْرَان كلَّ سِراج

قاضٍ حضرَمي

كان القَاضي أبو عبد الله مُحمّد الحضْرمي والدُ الرئيس عبد المهيمنِ لحضرمي شديداً في باب القَبُول على الشُّهداء فيُذكَر أن أحد الظَّلَمَة

عرَض له كتابُ رَسْم في قضية نزلت به فنقَده القاضي ومَطَل في تَخْليصه فتَحيَّل على أن كَتب بحائِط مجلِس القاضي ما نصه :

بِسَبْتَة قــاضٍ حضرَميٌّ اذا انتَسب
وفي حَضْرَموْتَ الشُّؤمُ واللُّؤمُ في النَّسَب

فمِن شُؤمِه لا يَثبُتُ العَقــدُ عِندَه
ومِن لُؤمِه يَرْمِي أولي الفضــل بالرِّيَب

فلما وقعت عينُ القاضي على المكتوب وفهِمَه أمرَ بازالته وأمسك من عِنانه .

فتحتَ لنجْلك بابَ الفتـُوح

كان للقاضي أبي عبد الله بن عبد الرزّاق الجزُولي ولَدٌ قد فُتِنَ به فرُبَّما تدخل في قضايا الناس بما يُرِيبُ فلا ينهَاه ، فقــال فيه أبو عبد الله العزَفي مُورَّياً ببابَين من أبواب فاس :

أقاضِيَ فاسٍ لقد شِنتهَــا وأحدثتَ فيها أموراً شَنِيعَة
ظلَمْتَ العِبـادَ ورُمْت العِنَاد وخادَعتَ في الدِّين كلَّ الخَدِيعة
فتحتَ لنَجْلِك بابَ الفُتـوح وأغلَقْتَ للنَّاس بابَ الشَّريعة[1]

---

١ — باب الفتوح وباب الشريعة من أبواب فاس المعروفة والتورية في الفتوح ظاهرة على أنه جمعُ فَتْح مُكنّى به عن الرشوة .

فبادَرَ موْلَى الوَرى فارِسٌ[١] بعَزْ لِكَ عنها لِسَدِّ الذَّرِيعة

بين ابن المرحّل وابن رَشيق

كان بين ابن رُشَيْق الثّعلبي ومالك بن المرحّل خِصام أدّى الى تَهاجيهما ، فنظم ابنُ رُشَيْق قصيدةً جاء في مطلعها :

لكِلابِ سبْتَةَ في النُّبَاح مَدارِكُ وأشدُّها عند التّهارُش مالِكُ
شيخٌ تفانى في البطَالةِ عُمْرُه وأجلُّ مَحْكيه الكلامُ الآفِكُ

واتّخذَ لها كِنانَةً كأوعِيَة الكُتب وكتَب عليها « زِمامٌ مُعجّل الى مالك بن المُرحّل » وعمَد الى كلب وجعلها في عُنقه وأوجعه ضرباً حتى لا يأويَ الى أحد وطرَده بالزُّقاق ، فذَهب الكلبُ يعوِي وخلَفَه من الناس أُمّة ، وأُخِذَ الكتابُ وقُرِيءَ فحُمِل الى ابن المرحل فلم يخفَ عليه أنه من عمَل ابن رُشَيْق ، فقال في جوابه :

كِلابُ المزَابِل آذَيْنَني بأبوالِهنَّ على باب داري
وقد كنتُ أُوجِعُها بالعَصا ولكن عوَت من وَراءِ الجِدار

١ – يعني به السلطان أبا عنان المريني .

زكانةُ ابن البنّاء

قال ابنُ شاطِر : كنتُ قاعداً مع ابن البناء بمراكش في دكّان طبيب فاذا برَجُلٍ جـاء اليه وقال له يا سيّدي ان والدي تُوفي وكان متّهماً بالمال ولم يترُك لي شيئاً وقيل لي أن ماله مدفون بداره ، فأُحِبُّ أن تعمِلَ خاطِرَك معي لوجه الله ، ففكر الشيخ بَرهةً ثم قـال للرجل : صوِّر لي صورة الدار في الرمل فصوَّر له الدار من غير أن يدَعَ منها شيئاً فأمره أن يُزيل صورتَها فأزالَها فأمره بإعادتها ثانيـاً ففعل ، فأمره بإزالتها وبإعادتهـا ثالثاً وقال له : إن مالَك في هذا الموضع منها ، فانصرف الرجل وبحَثَ في ذلك الموضع فوجَد به المال.

شعر للشريف المومناني
يُغنّيه ابنُ الطرّاحة

كان الشريف أبو الحسَين المومناني من العلم والجاه بالمكانة التي لا تُجهل وكان قد وَليَ القضاء بمدينة بِجَايَة وحضَر في مجلسٍ كان فيـه المُغَنّي ابراهيم ابن الطَّراحة فاقترح بعضُ الحاضرين على المغني المذكور أن يغني لهم قولَ بشّار بن بُرْد :

رأَيْنَ الغَوانِي الشَّيْبَ لَاحَ بمَفْرِقي ... فأَعْرَضْنَ عنِّي بالعُيـون الفَواتِر
وكُنَّ اذا أبصَرْنَني أو سَمعنَ بي ... سَعَين يُغَلِّقن الكَرى بالمحَـاجِر

وكان من عادة ابن الطراحة ألَّا يغني من الشعر ما انتهى الى حفظ المغني محمد ابن يعقوب وسُمِعَ منه، وكان ابنُ يعقوب اذ ذاك في أول ظهوره فقال ابن الطراحة لِمقترحِ ذلك عليه: كلامكم عندي لا يُرَدُّ، والأمر ممتثل، فان شئتم فاقترِحوا على سيدنا أبي الحسين زيادةً على البيتين، فأنشد الشريفُ بديهةً:

فوَا أسفَا ولّى الشبابُ وقد غدا ... يُنافرُني مَن كان بالأمس زائري
فلولا مَشيبي ما أُضيعَتْ مودَّتي ... ولا عادَ محبُوبي القَريب مُنافِري

فغنى ابنُ الطراحة الشعر كما طُلِب منه ورَغِب هو.

محتسبٌ وشاعر

روى ابنُ عربي الحاتمي في محاضراته قال: أُتِيَ محتسب كان عندنا بفاس بشاعر جنَى جنايةً فأمرَ بضربه فسأله العفوَ حتى أغضَبه فصاح في الضرّاب شُدَّ عليه ففي صيحته تلك ضرط ضرَطاتٍ فقال الشاعر في ذلك والسياطُ تأخذُه:

اسمَعُوني وأعجَبُوا ... ضرَط المُحتَسِبُ
ضرَطة صَافِيَةً ... طارَ منها العَتَب
سَهّلَتْ حلْقَ سلا ... وعَّرتْ وادِي سَبُو

سبعـــةً في نَسَقٍ   بُ بُ بُ بُو بُبُبُ

حلَفَ لا يمشِي شاعِرهُ لداره إلاَّ على الذهب

كان الشاعر الفيلسوف الموسيقار أبو بكر بن بَاجَة مُنقطِعاً الى الأمير أبي بكر ابن تافَلويت المسُوفي الصّنهاجي صِهرِ عليّ بن يوسف، ومّما جرَى له معَه أنه حضَر يوماً بمجلِسه فألقَى عـلى بعض قَيْنَاتِه مُوشَّحتَه :

جَرِّرِ الذَّيـلَ أيَّمـا جَرِّ   وصِلِ السُّكْرَ منك بالسُّكْرِ

وختَمها بقَوله :

عقَدَ اللهُ رايةَ النَّصْرِ   لأَمير العُلا أبي بَكْرِ

فلمَّا طرَقَ الشعرُ والتَّلحينُ سمِـعَ ابن تافَلويتَ صاحَ واطرباه وشَقَّ ثيابه وقال ما أحسَن ما بدأتَ وما ختَمتَ ، وحلَف لا يمشي ابنُ بَاجَةَ الى داره إلاَّ على الذهب ، فخـاف الشاعر الحكيم سُوءَ العاقبة فاحتال بأن جعَل ذهباً في نعله ومشَى عليه .

من حِكايَاتِهم في العَفاف

ذكر الأستاذ أبو جعفر بنُ الزُّبير قال : أنشدني أبو الخطّاب بنُ

خليل قال أنشدني القاضي أبو حفص بنُ عُمَر لنفسه وقد أُهدِيَتْ له جاريةٌ فوجدَها ابنةَ سُرِّيَّةٍ كان قد تسرَّاها فردَّها الى مُهدِيها وكتَب له :

يَا مُهْدِيَ الرَّشَاء الذي أَلْحَاظُه ... تركَتْ فؤادِي نُصبَ تلك الأَسْهُمِ
رَيْحَانةٌ كلُّ المُنَى في شمِّها ... لولا المُهَيْمِنُ واجْتِنَابُ المحْرَمِ
ما عَن قِلًى صُرِفَتْ اليك وإنما ... صَيْدُ الغَزالةِ لم يُبَحْ للمُحْرِمِ
إنَّ الغزَالَةَ قد علِمْنَا قَبْلَها ... بِسرِّ المَهَاة ولَيْتَنَا لم نَعْلَمِ
يا وَيْحَ عنْتَرَةَ الذي قد شَفَّه ... ما شفَّنِي فشدا ولم يَتَكَلَّمِ
(يا شَاةَ ما قنَصٍ لِمَن حلَّتْ له ... حَرُمَتْ عليَّ وليتَها لم تحْرُمِ)[1]

من محاسن الكناية

دَخل الفقيه أبو الحسن بنُ الصبَّاغ على القاضي أبي القاسم الشريف السَّبْتي يوماً لأداءِ شهادةٍ عنده فوجد بين يديه جماعةً من الغُزَاة يؤدُّون شهادةً فسمِعَ القاضي منهم وقال لهم هلْ ثَمَّ مَن يَعْرِفُكم ؟ فقالوا نعم ، يعرِفُنا عليٌّ الصبَّاغ فقال القاضي أتَعْرِفُهم يا أبا الحسَن ؟ فقال نعم يا سيِّدي معرفةَ محمد بنِ يَزِيد ، فما أنكَر عليه شيئاً بل قال لهم عرَف

(١) ضمن بيت عنترة والعرب تطلق الشاة على البقرة الوحشية فكنى عنترة بالشاة على المرأة تشبيهاً لها بها ويقال انها كانت زوجة لأبيه فبذلك حرمت عليه .

الفقيه أبو الحسن ما عنده فانظْروا مَن يعْرِفُ معه رَسْمَ حالِكم فانصرَفُوا راضِين ولم يرْتَبِنْ الشاهد في شيء من حـــالهم ولا كشَف القاضي لهم سِتْر القضية وإنما أشار أبو الحسن الصَّبَّاغ الى قول الشاعر :

أُسائِلُ عن ثُمَـــالةَ كلَّ حيّ   فكلّهمُ يُجِيبُ ومَن ثُمَالة ؟
فقلتُ محمدُ بنُ يزِيـــدَ منهم   فقـــالوا : الآنَ زدتَهم جهَالَه

غرِيبَةُ رَابَغ

قال ابنُ رُشيد في رحلته : ذِكرُ غريبة عنَّت لنـــا بِرابَغ وما عَنَّت ، بل أغنَت في معنى الآية الكريمة وأقنَت ، وهي قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا (لَيبلُونَّكُم اللهُ بشيء من الصَّيد تنَـــالُه أيديكم ورماحكم لِيعلَم اللهُ مَن يخافُه ورُسلَه بالغَيب) . صَحِبني في الطريق من المدينة على ساكنها الصلاة والسلام الى البيت الحرام أحـدُ الشيوخ من شُرفَاء المدينة ، فلمَّـــا وافَينا رابَغَ رأيتُ أمراً عجباً من تخلُّل الوَحْش ، الغزَال والأرنَب بين الجمال والرِّحال ، بحيثُ يناله الناسُ بأيديهم والناسُ يُنادُون حَرام ! حَرام ! والجوارِحُ قـــد سُلسِلَتْ خِيفَةَ تعدِّي جاهل ، يتَعَسَّفُ المجاهل ، فقال لي ذلك الشيخ الشريف : تأمَّلْ ترَ عجَباً هكذا جرتْ عادَتُنا في هـــذه الطريق اذا مَررْنا به ونحن مُحرِمُون نَجِدُ به من الوَحْش ما ترى فإذا عُدنا مُحِلِّين لم نَجِدْ

به شيئاً ، فلما عُدنا كان كما قال فبَانَ لي مِن مَعْنى الآية ما لم يكُن عندي بالمُشاهَدة .

آخِرُ ما سُمِعَ منهم

لمَّا احْتُضِرَ أبو محمّد الأَصِيلي قال : اللَّهم انك قد وعَدْتَ الجزاءَ على المُصِيبَة ولا مصِيبَةَ عليَّ أعظَمُ من نفسي فأحسِنْ جزَائِي فيها يا أرحمَ الراحمين وكان ذلك آخرَ ما سُمِعَ منه .

ودخل أبُو عبد الله المَقَّرِيُّ على عبد الرحمن بن عفَّان الجُزُولي وهو يَجُودُ بنفسه وكان رآه قبل ذلك مُعافىً ، فسأَله عن السبب فأخبرَه أنه خرَج الى لقاء السلطان أبي الحسَن المَريني فسَقَط عن دابَّته فتضَعضَت أركانُه فقال : ما حَملك أن تتكلَّف هذا في ارتفاع سنك فقال : أَمَا عَلِمْتَ أن حُبَّ الرياسَةِ آخرُ ما يخرُج من قلُوبِ العارِفين .

وقال ابنُ الطيِّب القادري : دخلتُ على محمد بن قاسم جَسُّوس في مَرضه الذي تُوُفِّي فيه فسمعتُه يُنشِد هذه الأبيات وما فهِمْتُ ما يقُول إلا بمشَقَّة :

سلامٌ على أهلِ الحِمَى حيثما حَلُّوا هنيئاً لهم يا حبذا ما به حَلُّوا
لهُمْ أظهرَ المولى شُموسَ بَهائِه فيا ليْتَ خدِّي في التُّرابِ لهم نَعلُ

متى يا عُرَيْبَ الحيِّ يأتي بَشيرُكم فتبتهجُ الدنيا ويجتمعُ الشَّمْلُ
صِلُوني على مَا بِي فإنِّي لِوَصْلِكم وان لم أكُن أهلاً فأنتُم له أهْلُ

كلِم نوابغ
للكاتب محمد بن سُليمان من رجال الأنيس

إذا حصَلت الألفَة ، سقَطت الكُلْفة . بِكَتْم الأسرار ، تُستَعبَدُ الأحرار . تَرْكُ التَّدبير ، أخرجَ يُوسفَ من البِير . الثَّقيل ، هو البَلاء كما قِيل . الجاه ، لا يُفلِحُ من رَجاه . حُبُّ المال يُطيلُ الآمال ، خَوْفُ العِقاب ، يفُكُّ الرِّقاب . الذلُّ ممقُوت ، ولو جلَبَ الياقُوت . رِزْقُك مَعك ، حيثما سِرْتَ تبِعك . الكُرُوب ، أشدُّ من الحُروب . مَن اغتابَك ، فقد أثابَك . العاقِلُ يختار ، وإنْ كان ذا إقتار . الفُرقَة ، هي الحُرْقة . الشُّرور ، تُميتُ السُّرور . لا تَرْضَ بالسُّؤال ، ولو جلَب اللآل .

المقالات

البلاغة النبوية للقاضي عياض

... وأما فَصاحةُ اللسان وبلاغةُ القول فقد كان صلى الله عليه وسلم من ذلك بالْمحَلِّ الأفضل والموْضع الذي لا يُجهَل سلاسةَ طَبْع وبَراعةَ مَنزَع وإيجاز مَقطَع ونَصاعة لَفْظ وجزالةَ قوْل وصحَّةَ معَان وقلَّةَ تكَلُّف أُوتيَ جوامِعَ الكَلِم وخُصَّ ببَدائع الحِكَم وعَلِمَ ألسِنةَ العرب يُخاطِبُ كل أُمة بلسانها ويُحاوِرُها بلُغتها ويُباريها في مَنزَع بلاغتها حتى كان كثيرٌ من أصحابه يسأُلونه في غير مَوْطِن عن شرح كلامه وتفسيرِ قولِه ، مَن تأَمَّلَ حديثَه وسِيَره عَلِمَ ذلك وتحقَّقه وليس كلامُه مع قريشٍ والأنصار وأهلِ الحجاز ونَجْدٍ ككلامه مع ذي المِشْعار الهَمْداني وطِهْفة النَّهْدي وقَطَن بن حارثة العُلَيمي والأَشعَثِ بن قَيْس ووَائِل بن حُجْر الكِندي وغيرِهم من أَقيال حضْرَمَوْتَ ومُلوكِ اليَمن .

وانظر كِتابه الى هَمْدان : « إن لكم فِرَاعها[1] ووِهَاطها وعَزازَها[2]

---

١ – أي ما علا منها ضد وهاطها والضمير للأرض ٢– أي ما اشتد منها وصلب

تأكُلُون عِلافَها[1] وترعون عَفاءَها[2] ؛ لنـا من دفئهم[3] وصرامِهم[4] ما سَلَّموا بالميثاق والأمانة ولهم من الصَّدَقة الثِّلْبُ[5] والنَّابُ والفَصِيلُ[6] والفارضُ[7] والدَّاجن[8] والكَبْشُ الحوَري[9] وعليهم فيها الصَّالِغ[10] والقارح[11] » وقوله لنَهْد : « اللّهم بارِكْ لهم في مَحْضها ومَخْضها ومَذْقِها[12] وابْعَثْ راعِيَها في الدَّثْر[13] وافجُرْ له الثَّمَد[14] وبارِكْ لهم في المـال والولَد ، مَن أقـامَ الصلاةَ كان مُسْلِماً ومَن آتى الزكاةَ كان مُحْسِناً ومَن شَهِد أن لا إله إلا الله كان مُخْلِصاً ، لكُم يا بَني نَهْد ودائعُ الشِّرْك[15] ووَضـائعُ المِلْك[16] ، لا تُلَطِّط[17] في الزّكاة ولا تُلحد في الحياة ولا تَتَثاقَل عن الصَّلاة » وكتب لهم : « في الوظيفةِ الفريضة[18] ولكُم الفارض[19] والفَريشُ[20] وذو العِنـاق الرَّكُوب[21] والفَلُوُّ[22] الضَّبِيس[23] لا يُمنَـعُ سَرحُكم[24] ولا يُعضَدُ طَلحُكم[25] ولا يُحبَس

١ – جمع علف ٢ – مواتها وهو ما لا ملك لأحد عليه ٣ – أي نعمهم ٤ – أي نخلهم ٥ – الجمل الهرم والناب الناقة الهرمة ٦ – ولد الناقة الصغير ٧ – البقرة الهرمة ٨ – ما يألف البيوت من الحيوان ٩ – الكبش الكبير الذي يتخذ للضراب والمراد أن ماذكر يحسب في عدد النصاب ولا تؤخذ الزكاة منه اما لنفاسته أو لخسته وانما تؤخذ من الوسط ١٠ – ما كمل من البقر والغنم السنة السادسة ١١ – هو من الخيل ما دخل في السنة الخامسة ١٢ – المحض اللبن الخالص والمخض ما أخرج زبده والمذق اللبن المخلوط بالماء ١٣ – الابل الكثيرة ١٤ – الماء القليل ١٥ – عهوده ومواثيقه ١٦ – ما كان يوضع على الأملاك من المغارم ١٧ – أي تمنع ١٨ – الوظيفة الزكاة والفريضة المسنة من النوق ١٩ – المريضة التي عرض لها آفة ٢٠ – القريبة العهد بالوضع ٢١ – الفرس الذلول ٢٢ – المهر الصغير من الخيل ٢٣ – الصعب الركوب لعدم رياضته والمراد أن ذلك كله يحسب في عدد الفريضة ٢٤ أي من الرعي ٢٥ – الطلح شجر عظيم الشوك من العضاه واذا لم يقطع هذا فغيره بالأحرى .

دَرُّكم[1] ما لم تُضمِرُوا الرِّماق[2] وتأكلوا الرِّبَاق[3] مَن أقرَّ فلَهُ الوَفَـاء بالعهْد والذِّمة ومَن أَبى فعليه الرَّبوَة[4] ومن كتابه لِوَائل بن حُجْر : « الى الأقيَال العبَاهِلة[5] والأرواع[6] المشَابيب[7] » وفيه « في التِّيعَة[8] شاةٌ لا مُقوَرَّةُ الألْيَـاط[9] ولا ضِنَاكٌ[10] وأنطُوا الثَّبجَة[11] وفي السُّيُوب[12] الخُمُس ومَن زَنَامِمْ[13] بِكْر فاصقَعُوه مائـةً واستَوْفِضُوه[14] عاماً ومَن زَنَامِمْ ثَيِّب فضَرِّجُـوه[15] بالأضامِيم[16] ولا تَوْصِيمَ[17] في الدِّين ولا غُمَّةَ[18] في فَرائِض الله وكلُّ مُسْكِر حرَام ووَائِلُ بنُ حُجْر يترَفَّلُ[19] على الأقيَال » .

أينَ هذَا من كِتَابه لأنسَ في الصَّدقة المشهور لَّما كان كلامُ هؤلاء على هذا الحدّ وبَلاغتهم على هذا النَّمَط وأكثَرُ استِعمَالِهم هذه الألفاظُ ، استَعْملَها معهم ليُبيِّن للناس ما نُزِّلَ إليهْم وليُحَدِّث الناسَ بما يعْلَمون ، وكقَوْلِه في حديث عَطِيَّة السَّعدي قال : اليَدُ العُليَا هي المُنطِيَة واليَدُ

١ – يعني الماشية ذات الدر لا تحبس لأجل المصدق الذي يأخـذ الزكاة ٢ – أي النفاق ٣ – جمع ربقة أي ما لم تبطنوا الخلاف وتخلعوا الطاعة ٤ – أي الزيادة في الوظيفة عقوبة له ٥ – أي الملوك الذين أقروا على ملكهم ٦ – جمع رائـع ٧ – الزهر الالوان ٨ – أربعون من الغنم ٩ – أي مسترخية الجلد من الهزال ١٠ – كثيرة اللحم سمينة ١١ – أي الوسط ١٢ – الركاز أي الكنز ١٣ – أي من ١٤– غربوه ١٥ – أي أدموه حتى يموت ١٦ الحجارة ١٧ – لا عار ١٨–لا سترة ١٩ – يتأمر ويترأس .

السُّفْلَى هِيَ المُنْطاة ، قـال : فكَلَّمنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بلُغَتِنا . وقوله في حديث العَامِري حين سأله فقال له النبي صلى الله عليه وسلَّم : سَلْ عنك أيْ سَلْ عمَّا شِئْتَ وهي لُغَةُ بنِي عَامِر .

وأمَّا كلامُه المُعتَـاد وفصاحَتُه المَعْلومة وجوامِعُ كَلِمه وحِكَمِه المأثُورة فقد ألَّف الناسُ فيهـا الدَّوَاوين وجُمِعَتْ في ألفاظِها ومعَانيها الكُتُب ومِنْها ما لا يُوازى فصاحةً ولا يُبارَى بلاغـةً كقوله : المُسْلِمُون تتكافأُ دِمَاؤُهم ويَسْعَى بذِمَّتهم أدنَاهم وهُمْ يَـدٌ على مَن سِوَاهم وقولِه : الناسُ كأسنَان المُشط والمرءُ معَ مَنْ أحبَّ ولا خَيْرَ في صُحْبةِ مَن لَا يَرى لك ما تَرى لَه والناسُ مَعادِنُ وما هلَكَ امرُؤٌ عرَفَ قَدْرَه والمُستَشارُ مُؤتَمن وهو بالخِيَارِ مَا لمْ يتكلَّم ورَحِمَ اللهُ عبداً قال خيراً فغَنِم او سكَتَ فسَلِم وقوله : أسلِمْ تَسْلَم وأسلِمْ يُوتِك اللهُ أجرَكَ مرَّتين وإنَّ أحبَّكم إليَّ وأقربَكم مِنّي مجَالِسَ يومَ القيامة أحاسِنُكم أخلاقاً المُوَطَّئُون أكنافاً الذين يَألَفُون ويُؤلَفُون وقولِه لعلَّه كانَ يتكلَّم بما لا يَعْنِيه[1] وقولِه : ذُو الوَجهَين لا يكونُ عند الله وَجيهاً ونَهيه عن قِيلَ وقالَ وكثرةِ السُّؤال واضاعةِ المال ومَنعِ وَهاتِ وعُقُوقِ الأمَّهات ووَأدِ البنات ، وقولِه : اتَّـقِ اللهَ حيثُ

---

١ – هو حديث أوله أصيب رجل يوم أحد فقالت أمه هنيئاً لك الشهادة فقال : وما يدريك لعله الخ .

كُنتَ وأَتبِـع السيئةَ الحسنةَ تَمحُها وَخالِق الناسَ بخُلُق حسَن وَخيرُ الأمور أوسَاطُها وقولِه : أحبِبْ حَبيبَك هَوْنــاً ما عسَى أن يكُونَ بغَيضَك يَوْماً مَا وقولِه : الظُّـلم ظلُمَاتٌ يومَ القيـامة وقولهِ في بعض دعائه : أللهمَّ إنِّي أسأَلك رحمةً من عِنْدك تَهْدِي بها قَلبي وتجمَعُ بهـا أمرِي وتَلُمَّ بها شَعَثِي وتُصْلِحُ بها غائِبي وتَرْفعُ بها شَاهِدي وتُزَكِّي بها عمَلي وتُلْهِمُني بها رُشدي وتَرُدُّ بها أُلفَتي وتَعصِمُني بها من كُلِّ سُوء أللهمَّ إنِّي أسأَلك الفَـوْزَ في القَضـاء ونُزُلَ الشهداء وعَيْشَ السُّعَداء والنصرَ على الأعداء .

الى ما رَوته الكَافَّةُ عن الكافَّةِ من مَقاماته ومُحاضَراته وخُطَبه وأَدعِيَتِه ومُخاطَباتِه وعُهُودِه ممَّا لا خِلافَ أنه نزَلَ من ذلك مَرْتبةً لا يُقَاس بها غيرُه وحازَ فيها سَبْقاً لا يُقْدَرُ قَدْرُه . وقــد جُمِعَتْ من كَلِمَاتِه التي لم يُسبَقْ اليها ولا قَدَر أحدٌ أن يُفرِغَ في قالَبِه عليها كقوله حَمِيَ الوَطِيس وماتَ حتْفَ أنفِه ولا يُلدَغُ المؤمن من جُحْرٍ مرَّتين والسعيدُ من وُعِظ بغَيْرِه في أخوَاتِهــا ، ما يُدرِكُ الناظِرَ العجَبُ في مُضَمَّنها ويذهَبُ به الفكرُ في أدَانِي حِكَمها وقد قال له أصحابُه ما رَأينا الذي هو أفصَحُ منك فقال : وما يَمنَعُني وإنَّما أُنزِلَ القُرآنُ بلِسَاني لِسَانٍ عرَبيٍّ مُبين . وقـــال مرةً أخرى : أنا أفصَحُ العَرب بَيْدَ أنِّي من قُرَيش ونشَأتُ في بَني سَعْد فجُمِع لــه بذلك صلى الله عليه وسلم قُوَّةُ عارِضَة البَادِية وَجزَالَتُها ونصَاعَةُ الفــاظِ

الحاضِرةِ ورَوْنَقُ كلامِها الى التَّأييد الإلهي الذي مَدَدُهُ الوَحيُ الذي لا يُحيطُ بعلْمِه بَشَري وقالتْ أمُّ مَعْبد في وَصفِهـا له حُلْوُ المَنْطِق فَصْلٌ لا نَزْرٌ ولا هَـذْر كأنَّ مَنْطِقَه خرزاتٌ نُظِمْنَ وكانَ جَهِيرَ الصَّوْت حَسَن النَّغْمَة صلَّى الله عليه وسلَّم .

الألقاب والنعوت

لابن الحاج الفاسي

يتعيَّن على العالم أن يتحفَّظ من هذه البِدعة التي عمَّت بهـا البَلْوَى وقَلَّ أن يَسلَم منها كبير أو صغير وهي ما اصطَلَحُوا عليه من تسميتهم بهذه الأسماءِ القرِيبة العهد بالحدُوث التي لم تكُن لأَحد ممَّن مضَى بل هي مُخالِفة للشرع الشريف وهي فلانُ الدِّين ، والعالِمُ أولى من يتحفَّظ على نفسه من هـذه الأشياء ويذُبُّ عن السنَّة في حق نفسه وفي حق غيره . . . ألاَ ترَى أن هذه الاسماء فيها من التَّزْكِيَة ما فيهـا فيَقعُ بسببها في المُخـالَفة بدليل كتاب الله وسُنَّة رسوله صلى الله عليه وسلم وأقوالِ العلماء . أمَّا الكتاب فقوله تعالى : « فلَا تُزَكُّوا أنفُسَكم » وقوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ الى الذين يُزَكُّون أنفُسَهم بَـل اللهُ يُزَكِّي مَن يشَاءُ ولا يُظلَمُون فَتيلاً ، أنظُرْ كيفَ يفترُون على الله الكذبَ وكفَى به إثماً مُبيناً » وأمَّا السنَّة فقولُ رسول الله صلَّى الله عليـه

وسلم : لا تُزَكُّوا على الله أَحداً ولكن قُولُوا إِخالُه كذا وأَظنُّه كذا

وأما قولُ العلماء فقد قال أبو عبد الله القُرْطبي رحمه الله في كتابه شرْحِ أسماءِ الله الُحسْنَى فقد دلَّ الكتابُ والسنةُ على المَنْع من تَزكيَة الانسانِ نفسَه ، ثم قال : قال علماؤُنا ويَجري هذا المَجْرَى ما قد كثُر في الدِّيَار المِصرية وغيرِها من بلاد العِرَاق والعَجم مِن نَعتِهم أنفسَهُم بالنعوت التي تقتضِي التزكيةَ والثَّناء كزَكِيّ الدِّين ومُحْيِي الدِّين وعلَم الدِّين وشِبْهِ ذلك هـ.

... فاذا قال مثلاً مُحْيِي الدين أو زكِيّ الدين فلا بُدَّ أن يُسْأَلَ عن ذلك يومَ القيامة ويُقالَ له هذا هو الذي أحيَى الدِّين وهذا هو الذي زكَّى الدِّين الى غير ذلك فكيفَ يكون حالُه إِذ ذاك حينَ السؤَّال بل حين أخذِه صَحيفتَه فيجدُها مَشْحُونةً بما تقدم ذِكْرُه من التزكية ؟ وقد اختلف علماؤنا رحمةُ الله عليهم في هذه الآية « ما يَلْفِظُ من قَوْل إِلَّا لَدَيْه رَقِيبٌ عَتِيد » هل الملائكةُ الكرام يكتُبون كلَّ ما يتلفَّظ به الشخصُ المكلَّفُ كانَ ما كان أو لا يكتُبون الا ما تضمنَّه الأمرُ والنَّهي وعلى هذا القول الثاني هي المسألةُ التي نحنُ بسبيلها اذْ انها احتَوتْ على اشياءَ مذْمُومة في الشرع الشريف وهي تزكية الانسان نفسه وتزكيته لغيره والكذِبُ ومخالفةُ السلف رضي الله

ولو وقف أمرُنا على هذا لكان قريباً لانه اذا تقرر عندنا أن هذا كذبٌ وتزكية يُرجى لأحدِنا التَّوبَةُ والاقلاعُ ولكن زِدْنا على ذلك الامرَ المخوفَ وهو أنَّا نرى أن ذلك جائزٌ أو مَنْدُوب اليه بحسَب ما سوَّلَتْ لنا انفسنا من أن الناس اذا خُوطِبُوا بغير هذه الاسماء تشوَّشُوا من أجل ذلك وتولَّدت الشَّحناءُ والبغضاءُ فوضعنا لهم التزكيةَ الخالِصةَ حتى لا يتشَوَّشوا ولا تتولَّد البغضاءُ ولا العداوة . لا جَرَمَ أن العداوة والبغضاء والشحناء قد كمنت عند بعضِهم وحصل منها أوْفَرُ نصيب كلُّ ذلك بسبب هذه البدعة فبقيت البَواطن متنافِرةً مع الأذهان في الظاهر فأدَّتْ هذه البدعةُ الى الامر المخوف لانَّ صفةَ المنافق ان يكون باطِنُه ومُعتقَدُه خلافَ ظاهِره نعوذُ بالله من ذلك .

ولو كانت هذه الاسماءُ تجوزُ لماكان احدٌ اولى بها من أَصحاب رسول الله ﷺ إذْ انهم شُموسُ الهُدى وأنوارُ الظُّلم وهم انصارُ الدين حقا كما نطقَ به القرآنُ والخيرُ كله في الاتباع لهم في الاعتقاد والقول والعمل . أَلا ترَى الى النبي صلى الله عليه وسلم لمَّا أن دخل بزَيْنَب أمِّ المؤمنين رضي الله عنها قال لها ما اسمك قالت بَرَّةُ ، فكَرِهَ ذلك الاسمَ وقال لا تُزكُّوا أنفسَكم لِما فيه من اشتقاق اسم البِرّ ومعلومٌ بالضرورة انها ما اخْتِيرَتْ لِسيِّد الاولين والآخرين الَّا وهي من البِرِّ بحيث المنتهَى لكنَّه عليه الصلاة والسلام كرِهَ ذلك الاسم وان كان حقيقةً لِما فيه من التزكية فجدَّد اسمها زينب وكذلك فعله عليه الصلاة والسلام مع جُوَيْرِية أمِّ

المؤمنين (وكانَ اسمها بَرَّةَ أيضا) فاذا كَرِه ذلك في حق مَن فيه ذلك حقيقةً ونهى عنه بقوله لا تُزَكُّوا انفُسَكم فما بالُك باحوَالنا اليوم ؟ ومِن هذا الباب ايضاً ما خرَّجه ابو داود في سُننه عن شُرَيْح عن ابيه هَانِيء رضي الله عنه انه لما وَفَد على رسول الله ﷺ مع قومه سمعهم يُكَنُّونه بأبي الحَكم فدعاه رسول صلى الله عليه وسلم فقال ان الله هو الحَكَم واليه الحُكم فلِمَ تُكنَّى ابا الحَكَم فقال ان قومي اذا اختلفوا في شيء أَتَوْني فحكَمْتُ بينهم فرَضِيَ كلا الفريقَيْن بحُكْمي فقال رسول الله ﷺ ما احسنَ هذا فما لَك مِنَ الوَلد فقال لي شُرَيْح ومُسْلم وعَبدُ الله قال فمن اكبرُهم قال شُرَيح قال فانتَ ابو شُرَيْح .

فان قال قائل انما هذه الاسماء مَجازٌ لا عِبْرةَ بها وقد صارَتْ ايضاً كاسماءِ الأعلام حتى لا يُعرَف احدٌ الا بها فقد خرَجتْ عن باب التزكية الى باب اسماء الاعلام كالعبَّاس وعَلِي . فالجوابُ ان هذا يرُدُّه ما نُشاهِده في الوجود مُباشرَةً وهو ان الوَاحِدَ منَّا اذا قيلَ له اسمه العَلَمي الشرَّعي كالعبَّاس وعَلِي تشوَّش من ذلك على مَن ناداه به ووَجَدَ عليه الحَنَقَ لكونه ترَكَ ذلك الاسم وعدَل عنه الى غيره فهذا يُوضِّح ويُبَيِّن أن التزكيةَ باقيةٌ مقصودة في هذه الاسماء وانها لم تبرَح ولم تخرُج عن موضِعها الذي وُضعت له . مع انه لو لم يكُن فيها لا كذبٌ ولا تزكيةٌ لَكان مَنْهِياً عنها لان النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن التشبُّه بالاعاجم وهذه الأسماء ما ظهرتْ الّا من قِبَلِهم . وقد رأيتُ لبعض الشيوخ ممن

يُقتدى بهم في العلم والفتوى والدين يقول إنه ادرك اباه ومَن كان في سنّه لا يَتَسَمَّوْن بهذه الاسماء ولا يعرفونها وكان سببُها انَّ التُّرْكَ لما تَغَلَّبُوا على الخلافة تسمَّوْا اذ ذاك هذا شَمسُ الدَّولة وهذا ناصِر الدَّولة وهذا نجم الدَّولة الى غير ذلك فتشَّوفت نفوسُ بعض العوام ممن ليس له علم الى تلك الاسماء لِما فيها من التعظيم والفخر فلم يجِدُوا سبيلاً اليها لأجل عدم دُخولهم في الدولة فرجعوا الى امر الدين فكانوا في اول ما حدَثتْ عندهم هذه الأسماء اذا وُلِدَ لاحدهم مَولود لا يقدر ان يُكنّيه فلان الدين الا بامر يخرُج من جِهة السلطان فكانوا يُعْطُون على ذلك الاموالَ حتى يُسمَّى ولدُ احدهم بفلان الدين فلما إن طال المَدَى وصار الأمرُ الى التُّرْك فلم يبق لهم بالتسمية بالدولة معنى اذ أنها قد حَصلتْ لهم فانتقلُوا الى الدّين ثم فشا الأمرُ وزاد حتى رَجعُوا يُسمُّون اولادَهم بغير مال يُعطونَه على ذلك ثم انتقل اليه بعضُ مَن لا علم عنده ولا عمل ثم صار الأمرُ مُتعارَفاً مُتعاهَدا حتى أَنِسَ به بعضُ العلماء فتواطئُوا عليه فانّا لله وانا اليه راجعون . كان الناسُ يقتدُون بالعالم ويهتدُون بهَدْيه فصار الأمرُ الى ان يُحدِثَ الاعاجِمُ ومَن لا علم عنده شيئاً فيقتدي العالِمُ بهم فلا حول ولا قوة إلا بالله على عكسِ الأمورَ وانقلاب الحقائق . ولم يرضَ الامامُ الحافظ النَّوَوي رحمه الله من المتأخرين بهذا الاسم قطُّ وكان يكْرَهُه كراهةً شديدة على نُقِلَ عنه وصحَّ وقد وقع في بعض الكتب المنسوبة اليه رحمه الله أنه قال اني لا أجْعَلُ احداً في حِلٍّ ممَّن يسمّيني بمُحْيي

الدِّين وكذلك غيْرُه من العلماء العاملين بعلمهم . وقد رأيتُ بعضَ الفضلاء من الشافعية من أهل الخير والصلاح اذا حكى شيئاً عن النَّوَوي رحمه الله يقول قال يحيى النَّوَوي فسألتُه عن ذلك فقال إنا نكْرَه أن نُسميه باسم كان يكْرهُه . فعلى هذا فهذِه الاسماء انما وُضِعَتْ عليهم تفعُّلاً وهم بُرءَاءُ من ذلك .

النارجيل

لابن بطوطة

وهو جَوْزُ الهند وهذا الشجَرُ من اغرَب الاشجار شأناً واعجَبِها امراً وشجرُه شِبْهُ شجر النخل لا فرق بينهما الا ان هذه تُثْمِرُ جَوْزا وتلك تثمر تمراً وجوْزُها يُشْبِه رأسَ ابنِ آدم لان فيه شِبْه العينين والفم وداخِلُها شِبْهُ الدِّماغ اذا كانت خضراء وعليها لِيفٌ شبْهُ الشَّعر وهم يصنَعُونَ منه حِبالًا يخيطُون بها المرَاكِب عوضاً من مَسامِير الحديد ويصنعون منه الحبال للمرَاكب والجوْزَة منها وخصوصاً التي بجزائر ذيبَة المُهْل ، تكون بمِقْدَار رَأسِ الآدمي ويزْعمون ان حَكيماً من حكماء الهند في غابر الزمان كان مُتَّصلا بملك من الملوك ومُعظَّما لديه وكان للملك وزير بينه وبين هذا الحكيم مُعادَاة فقال الحكيم للملك ان رأسَ هذا الوزير اذا قُطِعَ ودُفِنَ تخرُج منه نخلَةٌ تُثْمِرُ بثمر عظيم يعودُ نفعه

على أهل الهند وسواهم من أهل الدنيا فقال له الملك فان لم يظهر من رأس الوزير ما ذكرته قال ان لم يظهر فاصنع برأسي كما صنعت برأسه ، فأمر الملك برأس الوزير فقطع واخذه الحكيم وغرس نواة تمر في دماغه وعالجها حتى صارت شجرة واثمرت بهذا الجوز وهذه الحكاية من الاكاذيب ولكن ذكرناها لشهرتها عندهم .

ومن خواص هذا الجوز تقوية البدن واسراع السمن والزيادة في حمرة الوجه واما الاعانة على الباءة ففعله فيها عجيب ، ومن عجائبه انه يكون في ابتداء امره اخضر فمن قطع بالسكين قطعة من قشره وفتح رأس الجوزة شرب منها ماء في النهاية من الحلاوة والبرودة ومزاجه حار معين على الباءة فاذا شرب ذلك الماء اخذ قطعة القشرة وجعلها شبه الملعقة وجرد بها ما في داخل الجوزة من الطعم فيكون طعمه كطعم الجوزة اذا شويت ولم يتم نضجها كل التمام ويتغذى به ومنه كان غذائي في ايام اقامتي بجزائر ذيبة المهل مدة من عام ونصف عام ومن عجائبه انه يصنع منه الزيت والحليب والعسل .

فاما كيفية صناعة العسل منه ويسمون فإن خدام النخل منه الفازانية يصعدون الى النخلة غدواً وعشياً اذا ارادوا اخذ مائها الذي يصنعون منه العسل وهم يسمونه الأطواق فيقطعون العذق الذي يخرج منه الثمر ويتركون منه مقدار اصبعين ويربطون عليه قدراً صغيرة فيقطر فيها الماء الذي يسيل من

العِذْق فاذا رَبطها غُدْوةً صعد اليها عَشيةً ومعه قَدَحان من قَشْر الجَوْز المذكور احدُهما مملوءٌ ماءً فيصبُّ ما اجتمع من ماء العِذق في احد القَدَحين ويغسِلُه بالماء الذي في القَدَح الآخر وينجُرُ من العذق قليلاً ويربطُ عليه القِدْر ثانيةً ، ثم يفعل غدوةً كفعله عَشيا فاذا اجتمع له الكثير من ذلك الماءِ طبَخه كما يُطبَخ ماء العنب اذا صُنِعَ منه الرُّبُّ فيصير عَسلا عظيم النفع طيّبا فيَشتَريه تُجّارُ الهند واليَمَن والصِّين ويحمِلُونه الى بلادهم ويصنعون منه الحلواء .

وأما كيفية صُنْع الحليب منه فان بكل دارٍ شِبْهَ الكُرْسي تجلِسُ فوقه المرأةُ ويكون بِيَدها عصًى في أحد طرَفَيْها حديدة مُشرِفَة فيفتَحُون في الجَوْزة مِقدارَ ما تدُخل تلك الحديدة ويَجرُشون ما في باطن الجوْزة ، وكلُّ ما ينزل منها يَجتَمِعُ في صَحفَة حتى لا يبقى في داخل الجوزة شيء ثم يُمْرَسُ ذلك الجَريشُ بالماء فيَصير كلَوْنِ الحَليب بياضاً ويكون طَعْمه كطعْم الحليب ويَأْتَدِمُ به الناس .

وأما كيفية صُنْع الزَّيت فإنهم يأخذُون الجوزَ بعد نُضجِه وسُقُوطه عن شجَره فيُزِيلُون قِشره ويقطعونه قطعاً ويُجعَل في الشمس فإذا ذَبل طبَخُوه في القُدور واستخرَجوا زيتَه وبه يستصبِحون ويأتدِمون به ويجعله النساء في شعُورِهن وهو عظيم النفع .

أُصُول الطريق[1]

للشيخ زرّوق

أصولُ طريقتنا التي تنبني عليهـــا عشرةُ أشياء : خمسةٌ ظاهرة وخمسةٌ باطِنة . أما الخمسةُ الظاهرةُ فأولُها مُلازَمة السمع والطـــاعة لأمراء المسلمين وعامَّتِهم وخاصَّتِهم من أهـــل الله ، فلا يُخالف عليهم بقول ولا بفعل بل إيمان وتسليم ، الثاني لزُوم الخَمْس في الجماعة بحَسَب الامكان فإنِ كان في الجامع الأعظم فهُو أوْلَى وتكفِي المرأةُ والصبِيُّ وأيُّ مَن كان مِن المسلمين في تحصيل فضلها ، الثالث القناعةُ بقليـــل الرزق وكثيره بأيِّ وجه تحصَّل من الوجوه المُبَاحة ، الرابع إقـــامةُ الأوراد الشرعية بِحَسَب ما يكون صالحاً بالانسان في دينِه ودُنياه وذلك يختلِف باختلاف الناس ، الخامس إيثار الُخمول بترْك الفضول وعدَم المُنازَعة والعِناد في كل قول وفعل وفي ذلك يقول القائل :

وقائِلَةٍ مَالِي أَراكَ مُجانِبـــاً	أُموراً وفيها للتِّجارة مَرْبَحُ
فقلتُ لها مَالِي بِربحِكِ حاجةٌ	فنَحنُ أُناسٌ بالسَّلامة نَفْرَحُ

وأما الخمسة الباطِنيَّة فأولُهـا الاعراض عمَّـا يُرجى أو يُخشى من قِبَل الخلق بأن لا يُرجَى منهم [illegible] ولا جلبٌ ولا يُتوجَّه اليهم [illegible] الثاني [illegible] بالله بان لا تطلب [illegible]

قلَّت أو جلَّت إلا منه . الثالث إقامةُ رَسمِ الشريعــة بلزوم الأسباب من غير استناد ولا اعتماد ، بل كما قال ابنُ عَطاءِ الله : لا بُــدَّ من الأسبابِ وُجوداً والغَيْبةِ عنهـا شُهوداً فأثبتها من حيثُ أثبتَهـا الحقُّ بحِكْمته ولا تَسْتَنِدْ اليها لعلْمك بأَحديَّته . الرابع الخُروُج من الكُلَف بأن تُكَلِّف ولا تَتَكلَّف وان جرَى لك شيء من ذلكِ فلا تُعْدله ودَع الخَلْقَ وما دُفِعُوا اليه فمُرادُ الحق ما هم عليه . الخامس أن لا تعمَل عَمـلاً إلا بقَصدٍ ونِيَّة فكلُّ عمـل لا تصحَبُك فيه نِيَّةٌ ولا قَصدٌ صالِحٌ فلا تَقرَبه فـانه لا فائدة فيه .

وبعدَ هــذه الخمس خمسٌ لا بدّ لك منها ؛ مُجامَلةُ الخلق ، ومُحاسَنَتُهم في الأُمور والحذَرُ منهُم في عــين حُسن الظنّ بهم ، ومُوافَقتهُم في كل أمر لا يُخالِف الشرعَ ولا يضُرُّ بالدنيا ولا يُنقِصُ العَقل ، وإتباعُ العِلْم في كل وِرْدٍ وَصدَر ، فقد قــال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : العِلْمُ إمامُ العمَل والعملُ تابِعُه . وقال صلى الله عليه وسلم : لِمَن استَوْصاه اتَّقِ اللهَ حيثُ كنتَ وأَتبِـع السيئةَ الحسنةَ تمحُها وخالِق الناسَ بخُلُق حَسَن فمِن ثَمَّ قال الشيوخ : الانسانُ مُبتــلىً بنفسه والوقُوعُ في المعصية لا يقضي بعدم الاستدراك ، فالواجبُ على المُريـد أن لا يَعزِم على مَحذور ولا يُفرِّطَ في مأمور فإن وقَع فليُبادر المعصيَّةَ بالتَّوبة والنَّقيصَة بالإنَابة . والفرقُ بين المعصيَّة والنَّقيصة أن المعصيَّة ما فيه إثمٌ كالزِّنى والنقيصة ما فيه عيبٌ كالطَّمَع .

وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه : إجعَل التّقوى وَطنَك ، ثم لا يضرُّك فَرحُ النفس ما لم تَرضَ بالعيْب أو تُصرَّ على الذّنب أو تسقُطَ منك الخشيَة بالغَيْب اه. وهو مَدارُ الأمر وجُملتُه وبالله التوفيق .

التـاريخ
والألفاظ المُستعملة فيه

لأحمد بن عرضون

اعلم أن الأدباء والكتّاب اختلفُوا في التاريخ هل يكون بما مضى من الشهر أو بما بَقِيَ منه أو بهما . فمِنهم من يُؤَرخ بما مضى كانَ أقلّ مما بَقِيَ أو أكثر أو مُساوِياً فيقول لِثلاثٍ خلَوْن ولِعَشر خلَون ولا يؤَرخ بما بَقِي لأنه مجهول لأن الشهرَ يكون من ثلاثين ومن تسعة وعشرين كما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وهذا القولُ ارتضاه الأكثرون لِأَنه أسلَمُ من الكذب . . . ومنهم من يؤرخ بالأقل سواءً كان ماضِياً أو باقِياً قصداً لاختصار اللفظ وتقريبه فيقول لثلاثٍ بَقِينَ ولا يقول لِسبعٍ وعشرين خلَتْ ويقول لثلاثٍ خلَتْ ولا يقول لسبع وعشرين بَقِيَت . ثم اختلف القائلون بهذا اذا استوَى الماضي والباقي فمنهم من يُجوّز التاريخ بالماضي وبالباقي أيّهما شاء ،

ومنهم من يؤرخ بالماضي فقطّ ، وبعضُ المتأخرين أجاز التحرُّز في التاريخ بالباقي فيقول لِثلاثٍ بَقِين ، إنْ بَقِين . والتاريخُ بالليالي دونَ الأيام ، بهذا استمر العمل قديماً حِفْظاً على الليلة السابقة وإشعاراً بأن الشهر قَمَرِيّ تسبِقُ الليلةُ نهارَها في دخوله وجرياً على مَهْيَع العرب في تغليب المؤنّث على المذكر في التاريخ .

قال الرُّعَيْني عَدل أهلُ العصر ومَن قَبلهم قريباً الى التاريخ بالأيام فيكتبون في الأول مِن كذا وفي الثاني ثم يُتبِعُون الأيام يوماً بعد يوم الى آخر الشهر وسقَط بذلك تكلُّف خلَت وخلَوْن وبَقِيَت وبَقِين ، وأكثرُ العمل الآن عليه وهو أقبَلُ من الأول ، وليس فيه ما زَعَمُوا من إغفال الليلة فإنَّ الليلةَ وانْ دلَّت على يومها فاليومُ أقوى دلالة عليها لتقدُّمها عليه قال وتحذُّ المذكّر إن أرختَ بالأيام على الأصل من ثُبوت التاء في الأول وتُسقِطها من الثاني عكسَ المؤنَّث ولم تثبت التاء في الثاني من المذكر وإن كان ذلك الأصلَ قبلَ التركيب لئلا تجمَع بين علامتَي تأنيث في كلمة ، فَإنَّ الاسمين قد صُيِّرا اسماً واحداً من أحد عشر الى تسعة عشر .

واعلم أنه ليس شيءٌ من أسماءِ الشهور يُضاف اليه شهرٌ إلّا ثلاثةٌ رمضَان ورَبيعان قيلَ لأنها كلَّها أعلامٌ للشهور الموضوعة عليها أو صِفَات قامت مقامَ الاعلام إلا الربيعَين ورمضَانَ فإنها باقيةٌ على الصفة المحضة .

ويقال مُحرَّم والمُحرَم وذُو قَعــدة وذو القِعدة وذو حِجة وذو الحِجة وما سواها من الشهور لا يقال بالألف واللام لأنها أعلامٌ وتلك لُمحَ فيها الوصف الاصلي .

والشهور كلها مُذكَّرة إلا جُمادَى تقول جمــادَى الأُولى وجُمادَى الثانية ويقال جُمادَى الآخِرَة بمدِّ الهمزة والأَخِـيرةَ بقصر الهمزة وياء بعد الخاء ولا يُقال الاخرى فإن الأُخرى تأنيثُ الآخَر بفتح الخــاء وكذلك الايام تُذكَّر كلُّها إلا الجمعة .

وقال في المَنهَج : الأَلفــاظ التي تُستعمَل في أول الشهر : مُفتَتَح ومُهِلّ وغُرّة وصَدْر وعُقْب بضم العين وسكون القـــاف أو ضمها فيقال وذلك في مفتتح كذا وفي مُهِلّه وغُرَّته وصَدْره وعُقْبه ، فأما المُفتتح فيقال في أول يوم منه خاصةً ، وأما الغرةُ فيقــال في اليوم الاول والثاني والثالث ، لا خلافَ في ذلك ، وأما المهل ففيه خلاف منهم من يجعله كالمفتَتح ومنهم من يجعله كالغرَّة ، وأبو عليّ الفــارسي منَع أن يقال في أول يوم من الشهر مُسْتَهَلّ لأَن الاستهلالَ قد انقضى ونصَّ على أن يؤرخ بأول الشهر أو بغُرته أو بليــلة خلت منه ، وأما العُقب بالضم فقال بعض النحويين يقع على ما تقع عليه الغرة ، ومنهم من قال : يقال جئت في عُقْب الشهر اذا جئتَ بعـــد ما مضى ولم يَحُدَّ هذه البَعْدية بيوم ولا بيومين ولا بثلاثة ، وأما الصدرُ فقيل الذي

يظهَر من كلام بعض النحاة واللغويين أنه كالغرَّة وقيل من أوله الى ثُلثه وقيل الثلثان والنصف وكلا القولين مستَقرأٌ من المُدوَّنة .

وأما الالفاظ التي تُستَعمَل في وسَط الشهر فهي وسَط ومُنتصَف وسَواء فيقال: وذلك في وسط شهر كذا وفي منتصَفه وسَوائه ، وهذه الالفاظ ظاهرة في النصف لا غير ويصح في لفظ الوسَط أن يكون للعشْر الأَوَاسِط لأَنها وسَطٌ باعتبار أن قبلَها عشْراً وبعدَها عشراً .

وأما الالفاظ التي تستعمل آخر الشهر فهي عَقِب بفتح العين وكسر القاف أو سكونها ومُنسَلَخ وسَلْخ فيقال وذلك في عقِب شهر كذا ومنسلَخ شهر كذا وسلْخه فالعقب للثلاثة الأَخيرة منه والمنسلخ والسلخ لليوم الاخير منه والصواب أن لا يؤرخَ بالعَقِب لا في أول الشهر ولا في آخره لئلا يُصَحَّف أحدُهما بالآخر فيقع اللبْس .

قال الرُّعيني وتكتُب في العشرة الأُولى حملاً على المعنى والأَوَل حملاً على اللفظ ، والوُسطى والوسَط والآخِرة والأَواخر ولا تقُل الأُخرى لئلا يلتبس بالتَّواني وتمتنع الأَوائل والأَواسط والآخر لما فيه من وصف المؤنث بالمذكر .

التوشيحُ والوَشّاحُون

للإفـــراني

التوشيخ لغةً مأخوذٌ من الوِشَاح قال في الانوار والوِشَاحُ خِرْزٌ تنظَّم بجواهرَ وأحجار نَفيسة نَظْمَين مختلفين تتقلّد بهما المرأة يلْتقِيَان عند صدْرِها وبين كَتَفِيْها كحمائل السيف ومنه التَّوْشِيح الذي في الحديث وهو أن يُخالِفَ الرجلُ بين طرفَي الثوب آخذاً لهما من تحت إبطَيْه عاقِداً لهُما على رَقبتِه اه . ومن هذا التوشيحُ عند أهل البديع ومُختَرِعُه قُدامَةُ وهو أن يكُون أولُ الكلام دَالّاً على لفْظٍ ولهذا سمَّوْه توشيحاً فإنه يتنزّل المعنى فيه بمنزِلَة الوِشَاح ويتنزّلُ أولُ الكلام وآخِرُه منزلةَ العاتِق والكَشْح اللذين يجول عليهما الوِشاح .

ومن غريب التوشيح البديعي ما ذُكِرَ أن عَدِيَّ بنَ الرِّقَاع أنشد الوليدَ بن عبد الملك بحضرة جَرير والفَرزْدَق قصيدَته التي أولها : عَرفَ الدِّيَارَ توَهُّماً فاعتادَهـا ، حتى انتهَى لقوله : تُزْجِي أَغَنَّ كَأَنَّ إبرَةَ رَوْقِه ، ثم شُغِلَ الوليدُ عن الاستماع فقطَع عَدِيٌّ الانشادَ فقال الفرزدق إنه سيقول :

قَلَمٌ أصابَ من الدَّواةِ مِدَادَها ، فلمَّا عادَ الوليدُ للاستماع وعاد

للانشاد قال : قلمٌ أصابَ من الدَّواة مِدادَها ، فقال الفرزدَقُ : واللهِ لما سمعتُ صدرَ بيته رَحِمْتُه فلمــا أنشأ عجزَه انقلبت الرحمة حسَداً

وقال الشريف الغرناطي (أبو القاسم الشريف) في شرح المقصورة لما أنشد أبياتَ ابن الزقّاق ومنها :

على عاتِقي مِن ساعِدَيها حَمائِلٌ وفي خَصْرِها من ساعِدَيَّ وِشاحُ

استعمل ابنُ الزقّاق الوِشاحَ في معنى النِّطاق وهـــو ما تُديرُه المرأةُ على خَصْرِها والوشاحُ ما تتقلَّدهُ على عاتِقهــا فيكونُ منها في مَوْضِع حَمائِل السيف من الرُجل. وقد خطّئ أبو تمّام في قوله :

مِن الهِيف لو أنّ الخلاخِلَ صُوِّرت

لهــا وُشحاً جالَتْ عليه الخَلاخِــلُ

لأنه استعمَل الوِشاح في الحِقاب ، وإنما وصفُوا الوِشاح بالقَلَق والحرَكَة لأن ذلك يدل على رِقَّــة الخصْر وضُمُور البَطن ، وسُمِّي التوشيحُ توشيحاً أخذاً من وَشَّح بمعنى زَيَّن ، قـــال الثعالبي على قول الحِلّي :

ما رَوضةٌ وشَّحَ الوَسْمِيُّ بُرْدَتَها ، ما نصه وشَّح هو من التوشيح وهو التَّزيين يقال : وشّحتُ الشيء اذا زينتَه ومنه الوشاح اه.

وأما التوشيح عُرْفاً فقال ابنُ خلدون ان أهل الأندلس لما كثُر

الشعر في قُطرهم وتهذَّبت مَناحِيه وفُنونُه وبلَغ التَّنميقُ فيه الغـايةَ استحدث المتأخرون منهم فنّاً سمَّوه بالمُوَشَّح ينظِمُونَه اسماطاً اسماطاً وأغصاناً أغصاناً يُكثِرُون منهـا ومن أَعاريضِها المختلفة ويسمُّون المتعدِّد منها بيتاً واحداً ويلتزِمُون عدَد قوافي تلك الأغصان وأوزَانها مُتتالياً فيما بعدُ الى آخرِ القِطعة وأكثرُ ما ينتهيَ عندهم الى سبعةِ أبيات ويشتمل كلُّ بيت على أغصان عددها بحسَب الأغراض والمذاهب ويَنسِبُون فيها ويمدَحون كما يُفعَلُ في القصائد اه . ولم يلتزِمُوا في أوزانه بحْراً من البحور الخمسةَ عشَر بل صَنعُوا على كلّ بحرٍ منها وربَّمـا استعملوه في الألحان المُوَلَّدة والطُّبُوع المختَرَعة والنَّغَمات المستحدَثـة الخارجة عن أوْزَان العرب رأساً وهـذا الاستعمال أغلَبُ عليهم ، ثم قال ابن خلدون :

وأولُ من اختَرع التواشيح بجزيرة الأندلس مُقدَّمُ بنُ مُعـافِر القبري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المَرْوَاني وأخذَ عنه ذلكَ أبو عبدِ الله أحمدُ بنُ عبد ربه صاحبُ كِتاب العِقْد ولم يظهر لَهُما مع المتأخرين ذكر وكسَدت مُوَشَّحاتُهما ، فكان أَولَ من برَع في هـذا الشأن بعدَهما عُبادَةُ القَزَّاز شاعرُ المُعتصِم بن صُمَادِح صاحِبِ المِريَّة وقد ذكَر الأعلَم البَطَلْيَوْسي أنه سَمِعَ أبا بكر بنَ زُهـر يقولُ الوَشَّاحُون كلُّهم عِيَالٌ على عُبادةَ فيما اتّفق له من قوله :

بَدْرُ تَمّ شَمْسُ ضُحَى غُصْن نَقَـا مِسْك شَمّ
ما أَتَمّ ما أوْضَحـا ما أوْرَقَـا ما أَنَمّ
لا جَرَمْ مَن لَمَحـا قد عَشِقَا قد حُرِمْ

وزعمُوا أنه لم يَسْبِق عُبـادةَ وشّاحٌ من مُعاصِريه الذين كانوا زمَنَ الطَّوائف وجـاء مِنْ بعدِه جمـاعةٌ منهم ابنُ ارْفَع رَأسه شاعرُ المأمون بن ذي النُّون صاحِب طُليطِلة قالوا وقـد أحسنَ في ابتداء مُوشَّحتِه التي طارت له حيث يقول :

العُودُ قـد تَرَنَّمْ بأَبْدع تَلْحِين وشَقَّت المَذانِبْ رياضَ اليَاسمِين

وفي اثنائها يقول :

تَخْطر ولم تُسلِّم ، عساك المأمُون
مُروِّع الكتائِب ، يَحْيَى بنُ ذِي النُّون

ثم جاءت الحِلْبَةُ التي كانت في أيام المُلثَّمين فظهَرتْ لهم البدائـع فمِنْ فُرسَان حَلْبَتهم الأَعمى التُّطِيلي ويحيَى بنُ بَقِي ، ومن مُوشَّحات الأعمى :

كيفَ السبيلُ الى صَبْري وفي المَعَالِم ، أَشْجَانُ
والرَّكْبُ وَسْط الفَـلَا بالخُرَّدِ النَّوَاعِم ، قد بَانُوا

وذكر غيرُ واحد من المشايخ أن أهلَ هذا الشأن بالاندلس يذكرون أن جماعةً من الوَشّاحين اجتمَعُوا في مجلِس من اشبيلية وكان كلٌّ واحد مِنهُم قد صنَع مُوشّحةً وتأنّق فيها فتقدم الاعمى التُّطِيلي فلما افتَتَح موشحتَه المشهورة بقوله :

ضاحِكٌ عن جُمَان ، سَافِرٌ عن بَدْر

ضاقَ عنهُ الزَّمان ، وَحَوَاهُ صَدْرِي

خرّقَ ابنُ بَقِي مُوشّحتَه وتبِعَه البَاقُون وذكَر الأَعْلَم البَطليُوسي انه سمِعَ ابنَ زُهر يقول ما حسَدتُ قطُّ وشّاحاً على قَولٍ إلا ابنَ بَقِيّ حِينَ وقَع له :

أما ترى أَحْمَد   في مَجْدِه العَالِي   لا يُلحقُ

أَطلَعه الغَرْبُ   فأَرِنَا مِثْلَهُ   يا مَشْرِقُ

وكان في عصرِهما من الوشّاحين المطبُوعين أبو بكر الأَبيَض وكان في عصرِهِمَا أيضاً الحكيمُ ابنُ بَاجة صاحِبُ التّلاحِين المعروفة ، ومن الحكايات التي اشتهَرت عنه أنه حضَر مجلس مخدُومه ابنِ تيفَلويت صاحب سرَقُسطة فألقَى على بعض قَيْنَاتِه مُوشّحتَه :

جرِّرِ الذيلَ ايّما جرّ   وصِلِ السُّكْر منك بالسُّكْر

فطربَ الممدوح حتّى ختمها بقوله :

عقَــدَ اللهُ رايَةَ النصر   لامير العَــلا أبي بَكر

فلما طرقَ ذلك التلحينُ سمــعَ ابن تيفَلويت صاحَ : واطرباه وشقَّ ثيابه وقال ما أحسنَ ما بدأتَ به وما ختمتَ وحلَف بالأيمان المغلَّظة لا يمشِي ابنُ باجة الى داره إلا على الذهب فخاف ابنُ باجــة سوءَ العاقبة فاحتال بأن جعَل ذهباً في نعله ومشى عليه وذكر أبو الخطاب بن زُهر[1] أنه جرى في مجلس أبي بكر بن زُهر ذكرُ أبي بكر الابيض الوشّاح المتقدم الذكر فغَضَّ منه أحدُ الحاضرين فقال كيف تغُضُّ ممن يقول :

ما لذّ لي شربُ راح   على رياض الاقاح
لولا هَضيمُ الوشاح   اذا انثنى في صَباح
أو في الاصيل أضحَى يقُول   ما لِلشَّمُول لطَمتْ خــدّي
وللشّمَال هبَّــتْ فمــال   غُصْنُ اعتِدَال ضَمَّه بُرْدي
مِمّا أبادَ القُلوبا يمشي لنا مُسْتَرِيبا   يا لحظه رُدْ ذُنوبا ويالَماهُ الشَّنِيبا
بَرِّدْ غَليل صَبٍّ عَليل   لا يَستَحِيل فيه عن عَهْد

[1] ــ كذا عند الافراني وفي مقدمة ابن خلدون ونظنُّ ان الصواب ابو الخطاب ابن دحية .

ولا يزَال في كلّ حال يرُجو الوِصَال وهو في الصَّد

واشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة الموحدين محمد بن ابي الفضل ابن شرَف قال الحسن ابن دُوَيْدَة حسدتُ حاتِمَ بن سعيد على هذا الافتتاح:

شمسٌ قارَنت بـدْراً راحٌ ونَـدِيم

وابن هُردُوس الذي له :

يا لَيْلَةَ الوَصل والسُّعودِ بالله عُـودِي

وابن مُؤَهل الذي له :

ما العِيدُ في حُلَّةٍ وطاق، وشَمِّ طِيب وانَّما العِيدُ في التَّلاق ، معَ الحبيب

وابو اسحـاق الرُّوَيْني قال ابن سعيد سمعتُ ابا الحسن سهل ابن مالك يقول انه دَخل على ابن زهر وقد أسنَّ وعليه زِيُّ البادية اذ كان يسكن بحصن اسْتَبَّة فلم يعرِفـه فجلس حيثُ انتهى به المجلس وجرَّت المحاضرةُ أن أنشَد لنفسه مُوَشَّحةً وقعَ فيها :

كُحْلُ الدُّجى يَجْرِي من مُقْلَة الفَجْر على الصَّباح
ومِعْصَمُ النَّهْـر في حُلل خُضْر من البِطاح

فتَحرَّك ابنُ زهر وقال انتَ تقول هذا قال اختَبِرْ قال ومن تكون فعرَّفَه فقال ارْتَفِع فوَالله ما عرَفتُك قال ابنُ سعيد وسابِقُ الحلبة التي

ادركتْ هؤلاء هو أبو بكر بن زهر وقد شرَّقت موشحاته وغرَّبت . قال وسمعت أبا الحسن ابن سهل بن مالك يقول قِيلَ لابْنِ زُهر لو قِيــلَ لك ما ابْدَعُ ما وقَع لك في التوشيح قال كنتُ اقول :

ما لِلْمُوَلَّه　من سُكْرِهِ لا يُفيق　يَا لَه سَكْرَان

قال في نفح الطيب هذا مَطْلِعُ مُوَشَّح يستَعْمِلُه أهل المغرب الى الآن ويَروَى انه من احسن الموشَّحات قلت وابو بكر بن زُهر هو أول من عصر سُلافَةَ التوشيح لاهلِ عصرِه ولذلك قالَ فيه تلميذه ابو الخطَّاب بن دِحْيَة في كتاب المُطْرِب من اشعار أهــل المغرب والذي انفرد به شيخنا المُوَشَّحــات وهي زُبْدَةُ الشِّعر وخلاَصتُه من الفُنون التي أغرَبُ فيها أهلُ المغرب على اهل المشرق .

... قال ابن خلدون واشتهر بعد ابنِ زُهر ابن حَيُّون والمُهْر بنُ الفَرس بغرناطة قال ابن سعيد ولما سَمِعَ ابنُ زُهر قولَه :

لله ما كان مِن يَوْم بَهيج　بِنَهْرِ حِمْص على تلْك المرُوج
ثمَّ انعطفنا على فَم الخليج
نفُضُّ مِسْكَ الختام　عن عَسْجدِيِّ المُدَام
وَرِداءُ الاصيــل　تَطْوِيه كَفُّ الظَّلام

قال اينَ كُنَّا من هذَا الرداء وكان معه في بلدِه مُطَرِّف أخـبر ابنُ

سَعِيد عن والده ان مُطَرِّفاً هذا دخل على ابن الفرس فقام له وأكرَمه فقال لَا تفعَل فقال ابنُ الفرس كيف لا أقوُمُ لمن يقول :

قلوبٌ تصابَتْ بألحاظ تُصيب فقُلْ كيفَ نَبْقَى بلا وَجْد

وبعد هؤلاء ابن حزمون بمرسيَة ذكرَ ابنُ الرئيس ان يحيى الخزرجي دخــل عليه في مجلس فانشده مُوَشَّحة لنَفْسه فقال له ابنُ حَزْمُون ما الموشحُ بموَشَّح حتى يكونَ عارِياً عن التكَلُّف قال مثــلَ ماذا ؟ قال على مثل قولي :

يا هَاجِري هل الى الوِصَال مِنْــكَ سَبيل .
أَوْ هَل يُرَى عن هَواكَ سَال قَلْب العَليـل

وابو الحسن بنُ سهل بن مالك بغرناطـة قال ابن سعيد كان والدي يُعجَب بقوله :

إنّ سيْلَ الصَّباح في الشَّرْق عادَ بَحراً في أَجْمَع الأُفْق
فتداعَتْ نَوادِبُ الوُرْق أَتُراها خافَتْ من الغَرق
فبكت سُحرةً على الوَرَق

واشتهَر باشبِيلية لذلك العهد ابو الحسن بن الفضل قال ابن سعيد عن والده سمعتُ سهلَ بن مالك يقول يا ابن الفضل لك على انوشّاحين الفضل في قولك :

فَواَحسْرَتا لِزمَــانٍ مضَى   عَشيةَ بانَ الهـوى وانقَضى
وأُفردتُ بالرَّغم لا بالرِّضا   وبتُّ على جَمرِ جَمْر الغَضا
أُعَانِقُ بالفِكْر تلك الطُّلول   وأَلثُمُ بالوَهْمِ تِلْكَ الرُّسوم

قال وسمعتُ ابا بكر الصَّابُوني يُنشِد الاستاذ ابا الحسن الدَّبَّاج موشحاته غير ما مرَّة فما سمعتُه يقول لله درُّه الَّا في قوله :

قسَمًا بالهوى لذي حِجْر   ما لِلَيْل المَشوق من فَجْر
جمد الصُّبْح لَيس يطَّردُ   ما لِلَيْلي فيما اُظنُّ غدُ
صحَّ يا ليلُ انكَّ الأبَدُ
أوْ فقُصِّت قَوادِمُ النَّسْر   فنُجُوم السَّماءِ لا تَسْرِي

واشتهَر ببرِّ العُدْوَة ابنُ خلف الجزائري صاحبُ الموَشحة المشهورة:
يــدُ الصباح قــد قدَحتْ   زِنَادَ الانوار، في مجَامر الزَّهر

وابن زَجر البِجائي وله من موشحة :
ثغْرُ الزَّمان مُوافِــق   حيَّـــاك   بابْتسَام

قال ابنُ خلدُونْ ومن محَاسِن الموَشحَات للمتأخِّرين مَوشَّحةُ ابنِ سهل شاعر اشبيلية وسَبْتة من بعدِها فمنها قوله :

هَل درَى ظَبْيُ الِحمَى أَن قدْ حمِي   قلْب صَب حلَّه عن مكْنَس

فهْوَ فِي حرّ وخفْقٍ مِثلمـا لَعِبَتْ رِيـحُ الصبا بالقَبَسِ

واما المَشارقةُ فالتكلُّف عندهم ظاهر على ما عانوْه من المُوَشّحات ومن احسن ما وقع لهم في ذلك مُوشّحةُ ابن سَنَاءِ المُلْك المِصري اشتهرتْ شرقاً وغرباً واولها :

يَا حبِيبي ارفع حِجَابَ النُّور عن العِذار
تنظُرِ المسْكَ على الكافُور في جُلنّـار
كلِّلي ، يا سُحْبُ تِيجَان الرُّبى بالحُـلِي
واجعَلِي ، سِوَارَهـا مُنْعَطِفَ الجَـدْوَلِ

ومن احسن موشحـات المَشارقة مُوشّحةُ عبد العزيز بنَ سَرايا الحِـلِّي :

شُقّ جيْبُ الليْلِ عن نَهْدِ الصّباح ايُّهَا السّاقُون

وله :

جرّدَ الأُفقُ صارِمَ الفَجْر مِن جُفُونِ الغَسَق

تقسيمُ العُلوم الى فلسفيّة ومِلّيّة

وبيان ما تواطأت عليه الملة والفلسفة منها

لأبي علي اليوسي

العلوم على الجملة إما قديمة واما حادثة ، وان شئتَ قلتَ أمّا فَلْسَفِية واما مِلّيّة ، أو اما قديمة واما اسلامية ، وهو أضبَطُ لأن من القديم ما ليس بفلسفي كعلوم العرب ، غيرَ أن هذه لّما لم تكُن علوماً مُهِمّة صحّ أن لا يُبالَى بهـا في التقسيم بل يُقتصَر على ذكر الفلسفية والاسلامية وما سوى ذلك يُذكَر تبَعاً فنقول : أما الفلسفية فمنها مقبُول في المِلّة ومنها مَرْدُود ، والمقبولُ منه مأخوذ ومنه متروك ، ولْنَبدأ بتقسيم الفلسفيات جرْياً مع عباراتهم فيها مع الإلمام بما يُقبَل وما لا ، فنقول : العـلم إمّا مقصودٌ لِذَاتِه أو لغيره ، أما الأول فهو الفلسفة الأولى المقصودُ بهـا تكميلُ النفس الناطقة والاطلاعُ على حقائق الأشياء بقَدْر الطاقة وهـو إما نَظَريّ واما عَمَليّ ، والأول اما مُجرَّد عن المادة مطلقاً وهو العِلْم الالهي أوَ في الذّهن فقط وهو العِلم الرِّياضي أو مُقيَّد بالمادَّة وهو العلم الطبيعي ، والثاني اما مُتعلّق بنفس الشخص من حيث هي ويسمى سياسةَ النفس وعلْمَ الأخلاق أو بها وبما يحتاج

اليه من شهوات قواها وهو علم تدبير المنزل ، أو بما يعمّ وهو المَلَكية والسَّلْطنة ، فان كان الحافظُ لنظامها والقائمُ بأحكامها الظاهرة والباطنة شخصاً دلَّت عليه القِرانات الكبار وتميَّز عن البَشر بما أُفيضَ عليه من قُوى المجرَّدات فهو النبي وهو دولة النبوءة ، وان كان قائماً بتدبير ظواهرها فقط ودلَّت عليه القِراناتُ المتوسطة فهي السَّلطنة وهو السلطان ، وقد يعمُّ حكمُه وقد يخصّ .

قلت أما دَلالَاتُ القِرانات الكبار والمتوسِّطة فلا مانعَ منه ، إذ لا مانع أن يُجريَ الله تعالى عادَته بخَلْق شيءٍ أو إنزال شيءٍ أو تخصيص شيء ما بشيء عند طلوع كوكب أو غُروبه أو اجتماعِه بكوكب آخر أو بَيْنُونَته عنه أو قُرْبه منه أو بُعْدِه ثم يُلْهم الله من يشاء من عباده علمَ ذلك فيعلَم ويحكُم به اتِّباعاً لتلك العادة ولا تأثير في شيء من ذلك لشيء ، بل التأثير كله لله تعالى الواحد القهار ، وأما الفيْضُ من قُوَى المجرَّدات فهو وَهْم باطل لا حاصل له ، فكلُّ ما يثبتونه من الُمجرَّدات والعقل الفيَّاض باطل ، وإنما الله تعالى واحدٌ موجود واجبُ الوجود وكل موجود من هذه العوالم حادثٌ أَثرٌ عنه خَلقَه بقُدرته ومَشيئته عن عَدم ، وهو تعالى المخصِّص للنبي بما اختَصّ به من النبوءة والكرامة ، وهو الُممِدُّ له ولغيره لا إلهَ ولا فاعلَ ولا مُعطِيَ ولا مانعَ غيرُه سبحانه .

وأما الثاني أعني المقصودَ لغيره ، فإما للذّهن وما يُنَـاط به من المعاني وهو المنطِق ، واما لِلّسَان وما يُناط به من الألفاظ وهـو الأدب ، وهذا مُحدَث .

ثم ان الشريعة المطهّرة على القَيِّم بها أفضلُ الصلاة والسلام جاءت بما يُغنِي عن العلوم العمَلية المذكورة فتُرِكَت ، وذلك أن مَدارَها اما على حفظ النفس وهو في الشريعة بالقِصاص ونحوه ، واما على العقل وهو فيها بتحريم ما يُزيله والحدّ عليه ، أو المالي وهو فيها بالتَّنْمِية بالتّجارات وسائر المُعاملات وَحـدّ الحِرَابة والسَّرِقَة وتحريم الرِّبا والغِش ونحو ذلك ، أو العِرْض وهو فيها بحد القَذْف مثلاً أو النَّسبِ وهو فيها بتحليل النكاح وتحريم السِّفاح وحـدّ الزنى ، أو تهذيبِ النفس بالتخْلِية والتحْلِية ، والقيـام بالتعبُّد ومعرفة المعبُود والاعتراف بالشرع ومَن جاء به وهو مبسُوط فيها على أكمل وجهٍ وكذا سياسةُ العِبَاد بالنبوءة والخِلافة فأسقَط المتأخرون هذا القسمَ من علوم القدماء استغناءً عنه واقتصَرُوا على الأقسام الباقية أعني العلم الالهي والرياضي والطبيعي والمنطقي .

أما العلم الالهي فهو العلم الباحث على الموجود من حيثُ ثبوتُه وما يعرِضُ له أو على المعلوم من حيثُ هو على الخِلاف في موضوعه، ومَنفعتُه تبيينُ المعتقَد الحق من الباطل وسُمِّيَ إلهيـاً لأن فيه أحكامَ

الربوبية وهذا العِلْمُ هو المقصود بالذات للانسان في كَمَاله وفَوْزه في الدارين وكلُّ ما سواه من العلوم تبَعٌ له فما كان منهـــا دينيا فوَسِيلةٌ اليه وما كان دنيوياً فبِمَثابَةِ الخديم له ولهذا توَفَّرت رغباتُ العقلاء على طلَبِه ثم اختلفت الطرُق اليه فمِن العقلاء من رَام إدراكَه بالنظر وهم الحكماء ومنهم من رَام إدراكَه بالرياضة بالُجوع والعُزْلة والَخلْوة كالنسَّاك وهم الصُّوفية في مِلَّتنا ومِنهُم مَن رامَه بالنظر وليس من أهله فأخطَأَ الحقَّ وضلَّ وأَضل كالثَّنِوِيَّة والُمعَطِّلَة وسائِر الُمنْكِرين للشرائع، ومنهم من عجَزَ ورامَ التعلُّق بالموْلى تعالى على ما هو شأنُ العُبودية أَوْ غفَل فأمدَّهم الله تعـــالى فضلاً منه ومِنَّةً ببعث الرسل مع التأييد بالعقل الصائب ...

وأما العلم الرياضي فهو العلم الباحث عمَّا تجرد عن المادَّة في الذهن فقط كما مرّ ، وأنواعُه أربعة : علمُ الهندسة ، وعلم الهيئة ، وعلمُ العدد ، وعلم الموسيقى وذلك أن نظَره في الكَمّ وهو اما متَّصل بأن يُفرَض بين أجزائه حدّ مشترَك تتلاقَى عنده وكلاهما أما قارٌّ الذات بأن يكون مُجتمِع الأجزاء في الوجود أولا ، فالأول علم الهندسة وموضوعه الكمُّ المتصِل القارُّ الذات وهو المقدار فهو عـــلم يعرف به أحوال المقادير ولواحِقُها وأوضاعُها وأشكالُها ، ومنفعتُه اكتسابُ الحدَّة وارتيـــاضُ الفكر مع ما يستتبع ذلك من المصالح في الأبنية والمنازل وغير ذلك ويتفرع عنه عشرة علوم ، والثاني علم الهيئة وهو العـــلم الباحث عن

الأجرام البسيطة فلكيةً أو عنصريةً من حيث الكمّ والكيفُ والحركةُ والسكونُ وموضوعه الأجرام المذكور من تلك الحيثية فمَرجِعُ مبحثه الزمان وهو الكمّ المتصل غيرُ القارّ الذات ، وهو محتاج الى علم الهندسة لأن مقدّمات براهينه منها والعلوم المتفرعة عليه خمسة ... والثالث علمَ العَدد وهو العلم الباحث عن العدد من حيث انقسامُه الى الزوج والفرد والى الصحيح والكَسْر وغير ذلك وما يعتريه من الأحوال كالضرب والجمع والقسمة ونحو ذلك وموضوعه العدد من تلك الحيثية وهو الكَمّ المنفصِل ومنفعتُه ارتياضُ الذهن وضَبْطُ الأموال والمعاملات ويتنوع الى ستة أنواع ... والرابع علم الموسيقى وهو العلم الباحث عن النَّغَم وما يعترَيها من الإيقاعات وانتظام اللُّحُون المختلفة وإيجاد الآلات الصالحة لذلك ...

وأما العلم الطبيعي فهو العلم الباحث عن الجسم الطبيعي أي المَادّي وهو المحسُوس من حيث هو مُعَرَّض للتغيُّر والانفعال والثبات في أحواله وموضوعه الجسم من تلك الحيثية وفائدتُه معرفة أحوال الأجسام البسيطة والمركبة من الأفلاك والعناصر والمولّدات والاطلاع على موادها وصُوَرها وعِلَلها وغاياتها وأعراضها اللازمة والمفارقة وسائر خواصّها وأسرارها الغريبة ويتفرع منه عشرة علوم ...

وأما المنطق فهو العلم الباحث عن المعلومات التصوُّرية والتصديقية

من حيث التأدّي بها الى مجهول تصوّري أو تصديقي ، وموضوعه المعلومات من تلك الحيثية، ومنفعتُه تقويم الفكر عن الزيغ وحراستُه عن الخطأ في المدارك وناهيك بها فهو المعيار على العلوم كلّها ولذا قيل مَن لا معرفةَ له به لا وُثوقَ بعلمه ... وهذا آخر العلوم الفلسفية وقد تواطأ على بعضها الملّةُ والفلسفة كالعلم الإلهي والطبِّ والعِبارة[1] والتوْقِيت فهي موجودة في لسان الشرع ، وأُدخِلَ منها في الملة ما عمَّت منفعتُه ، وعظُمت فائدته ، مع هذه المذكورة ، كالمنطق والحساب وما يحتاج اليه من علم الهيئة ومن علم الهندسة كالتكسير ، وكثير منها متروك إلا في الخصوص لعدم الحاجة اليه أو لقصور الهمم عنه ، وجملةٌ منها دنيوية بَقِيَت في أيدي العامَّة من الفلاحين والبنّائين ورؤساء البحر وأهل السحر وخُطاط الرمل ونحو هؤلاء ، ولا بأس بجميعها فنحن لا نلْتَفِتُ الى مَن يُحرِّم علم شيء منها فان العلم في نفسه هو غِذَاءُ العقل ونُزهَةُ الروح وصفة الكمال ، وإنما تختلف ثمراتُه في الشرف بحسب الموضوع والغاية ، وتختلِفُ الأحكام بحسب النية حتى ان علم السِّحْر الذي يحرُم استعمالُه باجماع لو تعلّمه أحدٌ ليؤذِيَ به مَعصُومَ الدَّم، كان تعلُّمه حراماً كعمَله ولو تعلّمه لمجرد أن يعرفه فيُميز بينه وبين المعجزة مع ما تقدم من الفوائد كان تعلُّمه جائزاً أو واجباً

١ – يعني علم تعبير الرؤيا .

كما مر ، وعلم الأدب الذي هو جائز باجماع لو تعلّمه أحد لقصد أن ينبُغَ في الشعر فيهجوَ من لا يجوزَ هجوُه أو يمدح من لا يجوز مدحه كان تعلمه حراما في حقه ، وإنما الأعمال بالنيات ، والمردود منها إنما هو جُمَل من العلم الإلهي أو من علم الطب وعلم الهيئة ونحوها .

القلم في اللغة

لأكنسوس

وهو القلم والمِزْبَر بالزاي والمِذْبَر بالذال المعجمة سُمي بذلك لأنه يُزبَر به ويُذْبَر أي يُكْتَب وقد فرَّق بعضُ اللغويين بين زَبرتُ وذَبرتُ ، فقال زبرت بالزاي كتبتُ وذبرت بالذال قرأتُ وسمِّي قلما لأنه قُلِمَ أي قُطِع وسُوِّي كما يُقْلَم الظُّفْرُ وكلُّ عودٍ يُقطَع ويُحَزُّ رأسُه ويُعَلِّم بعلامة فهو قَلَم ولذلك قيل للسِّهام أقلام ، قال الله تعالى : إذْ يُلقُون اقلامَهُم أيُّهم يكفُلُ مَرْيَم وكانت سِهاماً مكتوباً عليها أسماؤُهم . ويقال للذي يُقلَمُ به مِقْلَم ولِما يُبرَى به مِبرَى ومِبرَاةٌ وقد بَرَيْتُه أبريه بَرْياً وحَصْرَمْتُه حَصرمةً عن ابن الاعرابي . وقيل لِما يسقُط عن التَّقليم القُلَامة وعن البَرْي البُرَاية وجَمْعُ القَلم أقلام وقِلام كجَبل وجِبال . وقيل لاعرابي ما القَلم فجعل يُفكِّرُ ويقلِّب اصابِعَه

وينظُر فيها فقال لا أدري فقيل له توَّهمه في نفْسِك فقال عُودٌ قُلِّمَ رأْسه وجوانِبُه كتَقليم الظُّفُر .

ويقال لِعُقَده الكُعوب واحِدُها كَعْب فان كانت فيه عُقْدة تَشينُه وتُفسِده فهي الأُبنة ويقال لما بَين العُقَد الأَنابِيب واحدُها أُنبُوب والَمقَالِم واحدُها مِقلم . والأنابيبُ والكُعوب تستعمل ايضاً في الرِّماح وفي كل عودٍ فيه عُقَد وكذلك الأُبَن . فان كان في القَصبة او العُود تأكُّل قيل فيه قَادِح وفيه نَقَد وكذلك في السِّنِّ . قال جَميل :

رَمى الله في عَيْنَي بُثَيْنَة بالقَذَى وفي الغُرِّ من أنيابِها بالقَوادِح

وقالَ الهذَلي :

تَيْس تُيُوس اذَا يُناطِحُها يَألَم قَرْنا أرُومه نَقِدُ

ويقال لباطِنه الشَّحمة ولظاهره اللِّيط فان قَشَرت منه قِشْرة قُلت لِطْتُ من القلم لِيطَة أي قشرتُها واللِّيطُ ايضاً اللونُ قال ابو ذويب :

اذا اصفَرَّ لِيطُ الشمس حانَ انقلابُها [1] .

ويقال للقَصب اليَراع وقال قوم الإِبَاء اطرافُ القَصَب والواحدة يَراعة وإباءة قال مُتمِّم بنُ نُوَيرة يذكُر فرساً :

---

١ – الشطر في الاصل غير مستقيم ولم يظهر لنا معناه وهذا عن التاج .

ضَافِي السَّبِيب كأَنَّ غُصنَ إِبَاءة رَيَّان ينقُضُه اذا ما يُقْرَع

ويقال للقُطن الذي يُوجَد في جَوْف القصَبة البَيْلَم والقِنْصِفُ والفَشغ واحدها بَيْلَمة وقِنْصِفة وفَشغة فان كان فيه عِوَجٌ فذلك الدَّرْءُ وكذلك العُود ، قال الشمَّاخ :

أقامَ الثِّقافُ والطَّرِيدَة دَرْءَها كما أخرَجت ضِغْن الشُّمُوس المهَامِز

والطَّرِيدة خشبة صغيرة فيها حديدة تُسوَّى بها الرماح ونحوها .
ويقال لغِشَائه الذي عليه الغِلاف واللِّحاء والقَشْر فاذا نزَعته قلتَ قشَرتُه وقَشوته وقَشيته ولَتمتُه وكشَأْتُه ولَحَوْته ولفأته ولحيَته وسحَفته وسحَيْته وسَحَوته وحَلقتُه وجَلهتُه ووسَّفتُه ونقَحتُه ، ويقال لطرَفيه اللذَين يُكتَب بهما السِّنَّان واحدُهما سِنّ والشَّعيرَتان واحدتهما شَعيرة فاذا قطعتَ طرَفيْه وهيأتَه للكتابة قلت قططتُه أُقطُّه قطّا وقضمتُه اقضَمه قضماً والمِقَطُّ بالكسر يُقطُّ عليه والمقَطُّ بالفتح الموضعُ الذي يُقطُّ من رأسه ، قال أبو النجم :

كأنما قُطَّ على مَقَط .

وقال المقَنَّع الكِندي يصف القلم :

يحفَى فيُقطَم من شَعيرة انفِه كقُلامة الأظفور في تَقلامِه

فاذا انكسرت سِنُّه قيل قَضِم يَقضَم قَضَماً كحذِر يحذَر حذَراً وكذلك كل تكسُّر في سنّ أو سيْف أو رُمح أو سكّين فان أخذتَ من شَحمته بالسكين قلتَ شَحمتُه أشحَمه شحماً فاذا افرطتَ في الأخذ منها قلت بطَّنتُ القلم تبطيناً وحفرتُه حَفراً وقلَم مُبَطن ومحفُور واسم موضِع الشحمة الُحفرَة فاذا تركتَ شحمتَه ولم تأخذ منها شيئاً قلت: أشحمتُه إشحاماً ويقال للشَّحمة التي تحت بَرْيةِ القلم الضَّرّة شُبهت بضرَّة الإبهام وهي اللُّحمة التي في أصلها كذا. قال ابنُ قتيبة في آلَةِ الكتَّاب وهو المعروف ولكنَّه خالَف في ادَب الكتَّاب فقال الأَليه اللُّحمة التي في أصل الابهام والضَّرة اللحمة التي تُقابِلُها . فان جعلتَ سِنَّي القلم الواحدةَ اطولَ من الأخرى قلت قلم مُحرَّف وقد حرَّفتُه تحريفاً وان جعلت سِنَّيه مُستَوِيَّتين قلت قلم مبسوط وقلَم جَزْم فان سُمِع له صوت عند الكتابة فذلك الصَّرِيف والصَّرِير والرَّشق ويقال قلم مُذَنَّب بفتح النون أي طويل الذنَب فاذا كثُر المداد في رأس القلم حتى يقطر المداد قيل رُعِفَ القلم يُرعَف رُعافاً شبَه برُعاف الانف ومجَّ يمُجُّ مجّا وأرعَفه الكاتب إرعافا وأَمَجَّه إمجاجا ويقال للكاتب استَمْدِدْ ولا تُرعِف ولا تمجِجْ أي لا تُكثر من المداد حتى يقطر ويقال للخِرْقة التي يمسَح بها الكاتب، الوَقِيعَة بالقاف وعَن أبي عمرو الشَّيْباني انها الوَفيعَة بالفاء .